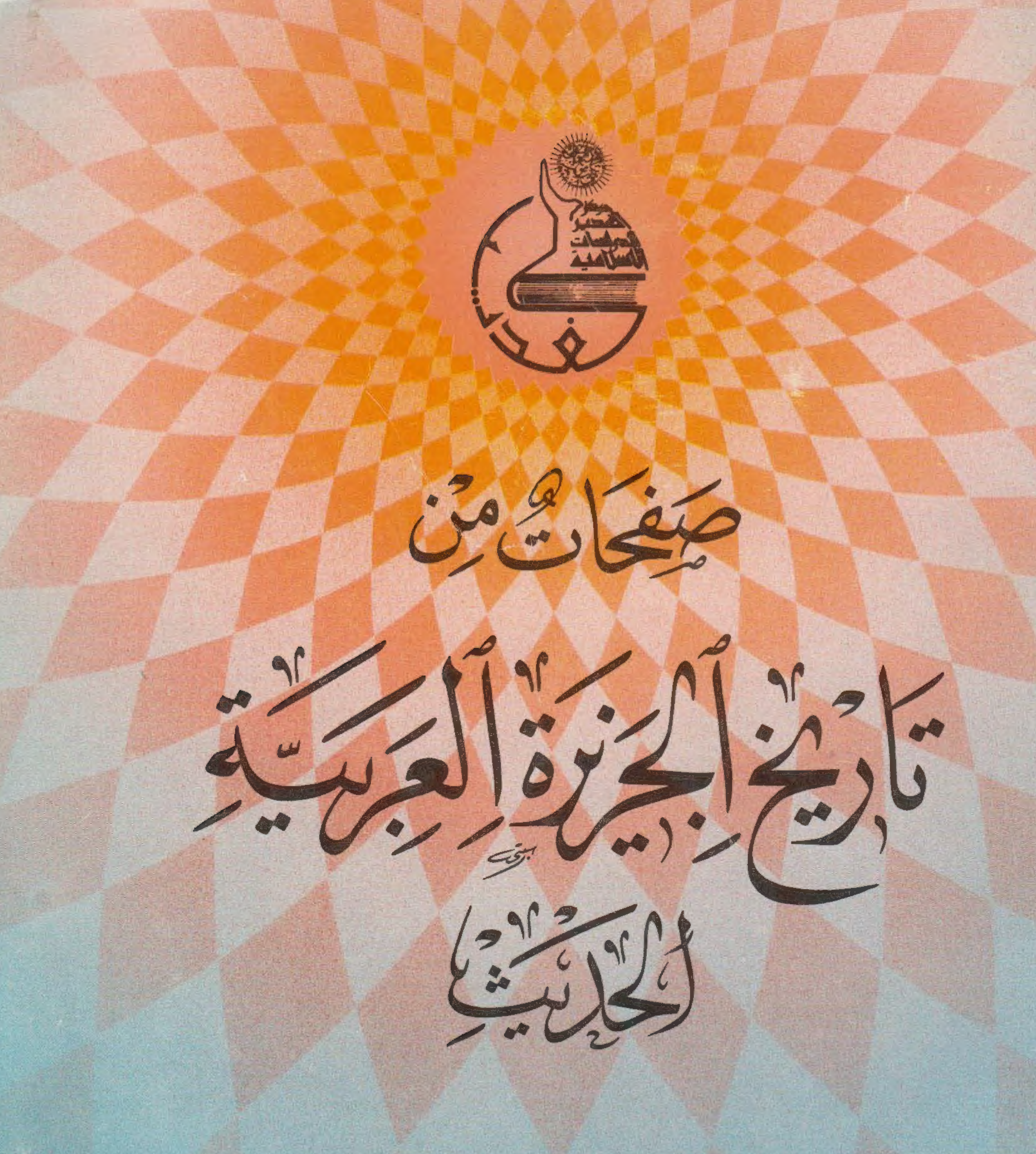
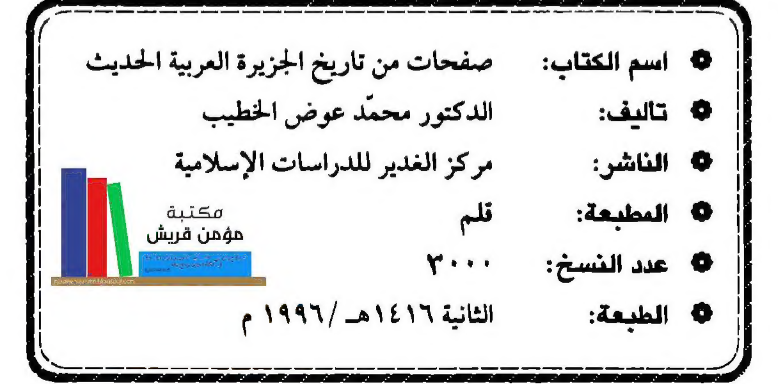


صفحات من تاريخ الجزيرة العربية الحديث

الدكتور
محمد عوض الخطيب

مركز الغدير للدراسات الإسلامية / قم

صفحات من
تاريخ الجزيرة العربية
الحديث



- اسم الكتاب: صفحات من تاريخ الجزيرة العربية الحديث
- تاليف: الدكتور محمّد عوض الخطيب
- الناشر: مركز الغدير للدراسات الإسلامية
- المطبعة: قلم
- عدد النسخ: ٣٠٠٠
- الطبعة: الثانية ١٤١٦هـ /١٩٩٦ م

صفحات من

تاريخ الجزيرة العربية الحديث

الدكتور

محمد عوض الخطيب

مركز الغدير للدراسات الإسلامية / قم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

يتعرض الاسلام والمسلمون منذ وجدوا وحتى اليوم الى حملة من أعدائهم متعــددي الأشكال والأجناس بقصد القضاء عليهم، وهذه الحملة تتخذ صوراً وأبعاداً متجددة ومتنوعة بحيث تتلاءم مع ظروف الزمان والمكان ، وهي متمادية دون كلل أو ملل بحيث لا يتسرب اليأس إلى القائمين بها ، ولعل ذلك عائد إلى حجم المصالح المعنوية والمادية التي تتضرر عند هؤلاء فيما إذا قام الاسلام بشكله الصحيح وانتشر في العالم على النحو الذي يجب أن ينتشر عليه.

وإذا كان لنا أن نميز بين مراحل في عملية الصراع ضد الإسلام أمكننا أن نرى فيها عصرين متباينين إلى حد ما: عصر اتّسم بالصراع المباشر وعصر كان طابعه الغالب الصراع غير المباشر ، علماً بأنه يمكن تلمس حقب مختلفة في كل عصر . ففي العصر الأول قاوم أعداء الاسلام انتشاره بالوسائل الفكرية ، ذات الطابع الديني ، وبالوسائل العسكرية فكانوا يهاجمون ما أتى به الوحي ويحاولون أن يثبتوا أن عقائدهم أكثر صحة وكانوا يشنون الحروب على المسلمين للقضاء عليهم ، ولكن الغلبة كانت للمسلمين بشكل عام حتى نهاية الحروب الصليبية .

وبعد تلك الحروب بدأت تتشكل ملامح العصر الثاني الذي هيأ للتحول التاريخي لدى أعداء الاسلام بالانتقال من حالة الدفاع إلى حالة الهجوم ، لاسيما في القرن التاسع عشر ، حيث أخذ الكافرون بالإسلام يهاجمون ثغوره من جهة ، وينشرون ما أسموه الفكر العلماني من جهة أخرى.

وإذا كانت الوسيلة العسكرية قد استطاعت أن ترضخ الشعوب الإسلامية ، إلا أنها كانت أداة استفزاز استراتيجي دفعت بهم الى مواجهة التحدي والانتصار عليه.

أما الوسيلة الفكرية فكانت هي الأخطر، ذلك أنه بعد فشل المواجهة الدينية بسبب حرص المسلمين على مقارعة الأديان الأخرى الحجة بالحجة ، برزت مواجهة غير مباشرة تمثلت بنشر فكر لاديني ، وبذلك كان غير استفزازي ، وصوِّر على أنه متجاوز للأديان كلها وبذلك يكون مقبولاً كفكر عالمي انساني صالح للحاضر وللمستقبل . فأدى هذا الفكر الى شرخ في العالم الإسلامي ما لبث أن اتسع بشكل غير معقول وغير متوازن حيث أخذ المتمسكون بالفكر الإسلامي يتعرضون للتقوقع والعزلة حتى صاروا أقلية غريبة عن المجتمع الى حد بعيد .

ولكن الأعداء تنبهوا الى أن الفكر « العلماني » ربما لم يستطع النفاذ الى كل قطاعات الشعوب الاسلامية ، فراحوا يدسون في الاسلام عملاء لهم لكي يحوروه ويمسخوا مفاهيمه .

وهكذا فأخذ يظهر إسلام غربي الطابع منسجم مع تطلعات الأعداء ، إلى جانب إسلام مطابق يروج له كتاب تبنوا أفكار الغرب وراحوا يصوِّرون أنَّ هذه الأفكار موجودة في الإسلام وأن الإسلام لا يختلف على الصعيد السياسي والاجتماعي والفكري عن الغرب ، وأن نقطة الخلاف الوحيدة هي في الجانب العبادي فقط .

في هذه المعمعة العاتية برزت بعض الحالات كألغاز ، فكانت مثالاً للالتباسات والشُبهات ، فتحير المسلمون حيالها ، هل هي تجديد للإسلام ، أم هي محاولة لإطلاق رصاصة الرحمة ، هل هي تأصيل أم هي استئصال؟ وكان على رأس هذه الحالات الوهابية التي ظهرت في مناطق نجد من الجزيرة العربية ثم انتشرت لتشمل الجزيرة كلها .

وقد أثارت هذه الحركة جدالاً واسع النطاق وصنفت حولها المصنفات بين مدافع ومفند ، وبقيت ألغازاً بدون جواب .

وفي سبيل إلقاء ضوء جديد على هذه المسألة ، أو لنقل : ضوء آخر عمدنا في هذه المحاولة إلى دراسة الوهابية فكرة وممارسة لنرى حسب النتائج الملموسة ما تشكله هذه الحركة على صعيد التاريخ الإسلامي .

وهذه المعالجة نعتقد أنها الأفضل لكشف مواقع حركة ابن عبد الوهاب وابن سعود ، على أساس أن الاقتصار على تناول الجانب الفكري ، على أهميته تبقي الأبواب مفتوحة على السجالات ، على الطرح والرد والرد على الرد إلى ما لا نهاية ، وإن تكن الحقيقة غير خافية بالكلية على من يحاول البحث عنها في هذا الصعيد، كما أنّ الاقتصار على الجانب العملي يعفي الوهابية كفكرة دينية من أي تبعة، إذ أنها تستطيع أن تعزو مخالفة الشريعة إلى الحكام الذين لا يلتزمون بتعاليم الشيخ ابن عبد الوهاب ، علماً بأن القيمين على تعاليم الشيخ المذكور لا يستطيعون التبرؤ لأن ما يجري يجري باسم الفكر الذي يتبنونه ويتسترون به ويدافعون عنه ، دون أن يقصدوا أو يعلنوا مواقف مختلفة عما يعلنه ويتخذه حكامهم ، بل على العكس فهم يهيئون الغطاء الشرعي لهؤلاء بفتاويهم ومشوراتهم وكتاباتهم .

على أنّ الصورة ، وهي صورة موجزة لا تكتمل إلا إذا استعرضنا باختصار شديد ما يتعرض له الإسلام منذ نشوئه حتى اليوم ومحاولة تلمس مواقع الوهابيين في كل هذه المسيرة وذلك في فصل تمهيدي يركز على أهم الوقائع الأساس التي تعتبر ذات مساس مباشر وواضح بموضوعنا .

في ١٩٩١/٤/١

فصل تمهيدي

المؤامرة المتمادية على الإسلام

قام الاسلام في بداياته في عالم لم يكن خلواً من الوجود الديني الفكري والاجتماعي ، بل كانت هناك ديانات عديدة منها الديانات الوثنية بأنواعها ونسخها المختلفة ، ومنها الديانات السماوية خصوصاً بنسختيها اليهودية والمسيحية اللتين يسمي القرآن الكريم أتباعهما «أهل الكتاب» .

وإذا كانت المعركة مع الوثنية قامت وحسمت تقريباً بانتشار الإسلام في الشرق ، فإن المعركة مع الديانتين «السماويتين» قامت ولم تنته حتى اليوم وإن تكن مرت بأطوار ومنعطفات واستخدمت استراتيجيات مختلفة على مر العصور.

ففي البدايات الأولى للتبشير بالدين الحنيف، اتسم موقف فريق من «أهل الكتاب» من اليهود والنصارى من هذا الدين بالعداء على الرغم من كل الاشارات التي حملتها كتبهم والتي تعد بظهور الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وبالإسلام .

وقد بدأت معركتهم الفعلية مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم منذ ظهور أمره واشتدت عندما هاجر إلى المدينة ، ولكن هذه المعركة تأثرت بظروف كل من الديانتين المذكورتين.

فالمسيحية كانت غارقة في صراعاتها الداخلية، الأمر الذي جعل مقاومتها ضعيفة في البداية ، حتى إذا ما تلقّت الهزيمة في الجزيرة العربية ثم في بلاد الشام ، إذا بها تستفيق في الخارج وتحاول الرد على الإسلام ردّاً متناشطاً إلى أن تمكنت أخيراً من حشد قواها واجتياح أجزاء هامة من المنطقة الإسلامية في الحروب الصليبية ، لتعود بعد دحرها الى ممارسة التآمر باستخدام الأساليب غير

المباشرة التي مهدت الطريق لاجتياحات جديدة في القرن التاسع عشر والقرن العشرين.

أما اليهودية ، فكانت في البداية القوة الدينية التي أخذت على عاتقها الى جانب مشركي قريش ، التصدي الفعال للإسلام ، فخاضت معارك فكرية شرسة ثم تلتها بمعارك عسكرية ضارية بدأت منذ وقت مبكر من هجرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، ولم تنته إلا بعد مرور حوالي سبع سنوات على تلك الهجرة ، وقد تلقت في النتيجة هزيمة قاسية بحيث لم تقم لها قائمة حتى التقت بالمسيحية الناهضة بعد اثني عشر قرناً لتعقد معها تحالفاً ضد الإسلام انتهى باحتلالها فلسطين كما بإلحاق البلدان الإسلامية بمراكز الاستعمار الغربي.

وإذا ما أمعنا النظر في العلاقة بين الإسلام والديانتين المذكورتين ، فإننا نستطيع أن نتلمس ثلاث دورات من العداء اتخذت مناهج متشابهة ، مع الفارق في الإمكانات ، وقد كان عماد الأولى منها يهود ومسيحيي الجزيرة العربية ، بينما كان عماد الأخريين مسيحيي الخارج بشكل أساسي مع مشاركة من مسيحيي الداخل ، وقد انتهت الدورتان الأوليان بهزيمة «أهل الكتاب» بينما لا تزال الثالثة قائمة :

- فالدورة الأولى بدأت مع ظهور الاسلام في المدينة لتأخذ المنحى الفكري في البداية ثم العسكري لاحقاً ، مروراً بهزيمة المشركين الشاملة أيام الرسول لتنتهي بحروب الردة.

- أما الدورة الثانية فقد بدأت بعد انتشار الاسلام خارج الجزيرة وتغلبه على الروم ثم إقامته حضارته التي شكلت تحدياً فكرياً للديانات الأخرى ، لتنتهي بالحروب الصليبية التي حققت للمسيحيين انتصارات هامة ومكنتهم من إقامة الممالك على سواحل الشام لمدة قرنين من الزمن ، ثم انتهت بالهزيمة المتثاقلة التي أدت الى إخراج الجيوش الأوروبية بصعوبة من هذه البلاد.

- وأما الدورة الثالثة فقد بدأت على شكل صراع فكري وتآمري اتخذ أشكالاً مختلفة منذ بدايات ما سمي عصر النهضة في أوروبا بعد الحروب الصليبية ليتخذ شكل التحدي العسكري منذ بدايات القرن التاسع عشر ويفضي

الى تمزيق بلاد الإسلام في القرن العشرين . ولكن الإسلام بعد هذه الضربة أخذ يستعيد أنفاسه ويلعب دوراً مؤثراً أكثر فأكثر في مسار المعركة التي ما زالت قائمة حتى اليوم وستستمر إلى ما شاء الله .

ـ وفي أواخر هذه الدورة الثالثة كان ظهور الوهابية الذي سنتناولـه تحت العنوان الرابع .

وقبل البدء بدراسة هذه الدورات ، لابد لنا من إلقاء نظرة على ما آلت إليه أوضاع أهل الكتاب عند بزوغ فجر الإسلام في الحجاز[١] .

أوضاع أهل الكتاب عند ظهور الإسلام :

عند ولادة الإسلام وانطلاقه في مكة ثم في المدينة ، كان أهـل الكتاب يتمتعون بحضور محسوس في جزيرة العرب حيث كـانت اليهوديـة مستقرة في منطقة يثرب وجوارها ، فيما كانت المسيحية منتشرة في منطقة نجران في الجنوب وفي الشمال في مملكتي الغساسنة والمناذرة على الحدود مع الشام والعراق ، إضافة إلى بعض مناطق نجد حيث تضرب قبائل تغلب وطيء وغيرها . .

وقد شكل وجود أهل الكتاب هذا تحدياً للديانة الجديدة ، وقد كان خطر اليهود أشد من خطر النصارى ، وذلك عائد ، من جهة الى طبيعة وأوضاع كل من الديانتين عالمياً بوجه عام وفي الجزيرة العربية بوجه خاص ، ومن جهة أخرى الى الظروف الاجتماعية الاقتصادية التي كان يعيشها معتنقو كل منهما .

وضع اليهود :

كان يهود الجزيرة العربية ، المعزولين عن أبناء دينهم المشتتين في بقاع الأرض ، يسيطرون على الأراضي الزراعية الخصبة في شمالي الحجاز ، التي كانت عامرة ببساتين النخيـل ، كما تـوفر محصـولاً كبيراً من الغـلال وخاصـة الحبوب ، وكانوا إلى جانب ذلك يهيمنون على التجـارة المحلية وعلى بعض الحرف كالصياغة وغيرها .

أما من الوجهة الدينية فقد كـان يهود الجـزيرة كغيـرهم منغلقين مكتفين

بذاتهم ، يدّعون التميز عن الشعوب الأخرى في الجانب العرقي كما في الجانب الديني ، فهم شعب الله المختار حسب ظنهم وهم أصحاب الديانة الحقة ، لأن الله (يهوه) آلههم وحدهم ، وهو متفوق على « آلهة » الآخرين من الشعوب الغلفاء الوثنية.

وكان اليهود الى جانب ذلك يتباهون بأن الأنبياء منهم ويتوعدون الآخرين بأن نبياً جديداً سوف يظهر من بين صفوفهم وينصرهم على سائر الشعوب ، وذلك استناداً إلى تفسيرات خاطئة للتوراة واعتماداً على التحريف الذي ألحقه بها مدونوها ، ذينك التفسير والتحريف اللذين أظهرا النبوءات بالرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم على أنها نبوءات بنبي اسرائيلي جديد .

فلما ظهر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في نسل إسماعيل من العرب وقفوا ضده بكل ما أوتوا من قوة ودهاء .

وضع المسيحيين :

إذا كان اليهود قد أعادوا إنتاج فكرة الألوهية ، فجسدوها بإله قبلي خاص ، فإن المسيحيين أعادوا إنتاجها على شكل ثالوث ، ذلك من طريق صبها في قالب جاهز مستعار من الديانات الوثنية وخاصة المصرية ، وهو يقوم على تصور الألوهية على شكل عائلة مكوّنة من أب وأم وابن ، وبعد تحوير هذا القالب تحول الثالوث الى الثالوث المسيحي المعروف .

ولكن فكرة الثالوث لم تعفِ المسيحية من الصراعات العقائدية التي ذرت قرنها على نطاق واسع منذ القرن الثالث الميلادي بين من يعتبرون المسيح إنساناً ومن يعتبرونه «إلهاً» ، وبين من يعتبرونه ذا طبيعة واحدة وبين من يعتبرونه ذا طبيعتين ، أو ذا إرادة واحدة أو ذا إرادتين أو ذا إمكانية واحدة أو ذا إمكانيتين ، وقد تسببت هذه الصراعات الفكرية في اقتتال دموي طيلة القرنين الخامس والسادس الميلاديين وجزءاً من القرن السابع .

علاقات اليهود والمسيحيين :

كانت علاقة المسيحيين باليهود في الجزيرة العربية علاقة سيئة ، فإلى جانب الخصومة الدينية الشديدة ، نشبت بين الفريقين معارك دامية ، لم تقتصر

على منطقة واحدة بل شملت جنوب الجزيرة وشمالها معاً.

ففي الجنوب ، وبعد أن رفض مسيحيو نجران دعوة الملك ذي نواس الحميري لاعتناق اليهودية ، حفر لهم هذا الملك الأخدود الشهير وأحرقهم فيه ، الأمر الذي دفع بالنجاشي ليهاجم اليمن وينتقم من ذي نواس.

وفي الشمال زحف أبو جبيلة الغساني (المسيحي) إلى يثرب لينتقم لأقاربه الأوس والخزرج من اليهود الذين كانوا يضطهدونهم ويتعالون عليهم ويغتصب ملكهم (الفطيون) بناتهم قبل زواجهن . وقد وصل الملك الغساني إلى مقربة من يثرب ، وهو متظاهر بالزحف إلى اليمن ليأخذ اليهود على غرّة فلا يعتصمون في آطامهم ، وعند ذلك دعا زعماء اليهود إلى وليمة ، فلما حضروا وثب الجيش عليهم وقتلهم فسادت الأوس والخزرج على يثرب(٢) .

أولاً ـ دورة المواجهة الأولى بين أهل الكتاب والإسلام:

بدأت هذه الدورة كما أشرنا مع ظهور أمر الإسلام عند انتقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الى المدينة وامتدت حتى حروب القبائل المعروفة بحروب الردة ، وانحصرت بين المسلمين وأهل الكتاب من سكان الجزيرة العربية ، وقد اختلف فيها دور كل من النصارى واليهود.

فالنصارى ، وبسبب ظروفهم في الداخل وما كانوا يعانونه في الخارج أبدوا خصومة أقل حدّة من خصومة اليهود للدين الجديد ، لا بل إنه كان من الطبيعي أن يجد المعذبون فيهم من المؤمنين فعلاً ، خلاصهم في الإسلام لا سيما وقد حمل كل من التوراة والانجيل البشارات بذلك . وقد أشار القرآن الكريم الى هذا بقوله تعالى : ﴿ **لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون۞ وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنّا فاكتبنا مع الشاهدين** ﴾ [المائدة/٨٢،٨٣] .

أما اليهود فقد تصدوا بكل خبث وشراسة للاسلام ونشبت معارك بينهم وبين المسلمين أدت الى سحقهم .

موقف اليهود الفكري من الاسلام :

يتفق موقف اليهود الفكري من الإسلام مع الموقف المسيحي ولكن يفوقه حدة وشراسة كما سنرى.

فقد انطلق اليهود في تعاملهم مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من الادعاء بأنهم المرجع في الفكر الديني ، تقاس على آرائهم معتقدات الآخرين ، فما وافقها كان صحيحاً وما خالفها كان كاذباً ، وهذا ما نبّه الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله : ﴿ **ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم** ﴾ [البقرة/١٢٠] . وقد اعتبر اليهود أن الهدى ما هم عليه وكان رد الله سبحانه وتعالى : ﴿ **قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم** ﴾ [المائدة/٦٨] ، ولكنهم صموا آذانهم وأصروا على إتباع خطى آبائهم من قبلهم على أنهم أكثر علماً من سائر الناس. يقول تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير** ﴾ [لقمان/٢١].

ثم إن اليهود أنكروا ما شهدت به التوراة من نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فدعا الله تعالى الى الاستغناء عن شهادتهم لشهادته هو عز وجل فقال : ﴿ **لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً** ﴾ [النساء/١٦٦] وذلك على الرغم من تهديداتهم لأهل المدينة قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بنبي سوف يظهر ويكون منهم فيسيرون معه ويقضون على أعدائهم كما جاء في قوله تعالى : ﴿ **وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين** ﴾ [البقرة/٨٩].

وتمادى اليهود في نكرانهم وكتمانهم المعلومات الواردة في التوراة والتي تتناقض مع مصالحهم ومع مواقفهم من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإنَّ فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم**

يعلمون﴾ [البقرة/١٤٦] ولكنهم بسبب كتمانهم هذا سيبؤون بأشد العذاب : **﴿ إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلّمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ﴾** [البقرة/١٧٤] ولهم الفضيحة في الدنيا لأن القرآن يكشف كثيراً مما يكتمون : **﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسول يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ﴾** [المائدة/١٥] .

وإذا احتج المسلمون على اليهود بأنه لو لم يكن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم صادقاً لما آمن به بعض من علماء اليهود ، فإنهم كانوا يقولون: ما اتبعه إلاّ شرارنا . ولكن الله زكّى أولئك النفر من اليهود بقوله : **﴿ ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون* يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين ﴾** [آل عمران/١١٣، ١١٤] .

وأخيراً فقد ادّعى اليهود أن الجنة ستكون نصيبهم وإن عُذِّبوا فلأيام معدودات : **﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾** [البقرة/١١١] ، **﴿ قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات ﴾** [آل عمران/٢٤] أما لماذا؟ فلأنهم المحظيون عند الله بل أبناؤه: **﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحبّاؤه قل فلمَ يعذبُكم بذنوبكم ﴾** [المائدة/١٨] كما هو ثابت في كتبكم؟ .

ولقد بلغ من استكبارهم أن أخذوا يتطاولون على العزة الإلهية فيدعون أن الله عاجز وفقير إليهم : **﴿ وقالت اليهود يد الله مغلولة غُلت أيديهم ولعنوا بما قالوا ﴾** [المائدة/٦٤] ، ويضيف القرآن : **﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق ﴾** [آل عمران/١٨١] .

هذا ولم يكتف اليهود بتأكيد مرجعيتهم المزعومة لأغراض عقيدية بل هم حاولوا أن يوظفوها لإقامة تحالفاتهم عن طريق إصدار تقييمات للأديان الأخرى وإجراء المفاضلات بينها ، إذ أكدوا لعتاة قريش من الكفار أن دينهم أفضل من

دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم : **﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً ﴾** [النساء/٥١] .

تأكيد اليهود بعض معتقداتهم :

وبعد هذا الادعاء الإجمالي يعود اليهود إلى تأكيد بعض جوانب عقيدتهم التي تخالف ما جاء به الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيؤكدون اعتقادهم بأن عزير هو ابن الله : **﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ﴾** [التوبة/٣٠] ، كما يدّعون أن إبراهيم (عليه السلام) الذي يعطيه القرآن مكانة أساسية هو يهـودي وكذلك أبناؤه وأحفاده المباشرون : **﴿ أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله ﴾** [البقرة/١٤٠] **﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ﴾** [آل عمران/٦٥] **﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً لكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴾** [آل عمران/٦٧] ثم يؤكد القرآن أن اليهود في زمن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لا علاقة لهم بإبراهيم لأن العلاقة بإبراهيم لا تقوم على النسب وحده ، وهو ما يتساوى فيه اليهود والعرب ، بل على الإيمان في الدرجة الأولى لذلك فـ **﴿ إن أولى النـاس بإبـراهيم للذين اتبعوه وهـذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ﴾** [آل عمران/٦٨] .

ومن العقائد التي أكدها اليهود أيضاً إنكارهم نبوة عيسى (عليه السلام) إذ أخذوا على المسلمين إيمانهم بهذه النبوة فكان الجواب : **﴿ قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بـالله وما أنـزل إلينا ومـا أنزل من قبـل وأن أكثركم فاسقون ﴾** [المائدة/٥٩] و **﴿ قل آمنّا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾** [آل عمران/٨٤] .

هذا وكان اليهود إلى ذلك يسخرون من الإسلام لتأكيده نبوة داود وسليمان اللذين تعتبرهم التوراة المزيفة من الملوك الذين ارتكبوا المعاصي فكان تشخيص

الله لما قام به اليهود لتأكيد مزاعمهم أنه قال تعالى : ﴿ **واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا . .** ﴾ [البقرة/١٠٢] .

محاولة المساومة مع الرسول :

من الأساليب الخبيثة التي جرّب اليهود استعمالها لتشكيك الناس بصدق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مساومته على الأحكام التي أتى بها من عند الله ، فطلب إليه بعض كبارهم أن يحكم لهم بما يخالف كتاب الله ، أو لكي يرجع عن القبلة التي اختارها له الله .

ففي الموضوع الأول سأله بعض المتنفّذين أن يقضي لصالحهم ضد بعض أبناء جلدتهم بغير الحق ولكن الله أوحى إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كاشفاً هؤلاء المتنفذين ومبيناً الخط الذي على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم اتباعه تجاههم بقوله : ﴿ **وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم إنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإنّ كثيراً من الناس لفاسقون** ﴾ [المائدة/٤٩] .

على أن الحكم ليس إلزامياً على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وذلك لتصديق المعنيين الافتراءات على المسلمين وأكلهم المال الحرام ، فهم ﴿ **سماعون للكذب أكّالون للسحت فإن جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين** ﴾ [المائدة/٤٢] .

كما جرّب بعض آخر أن يحكّم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في حادثة زنا مع إحصان عسي أن يحكم حسب أهوائهم فكشفهم الله بقوله : ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يُدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون** ﴾ [آل عمران/٢٣] .

أما في الموضوع الثاني فقد سخروا من تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى المسجد الحرام وهو ما كان الله قد نبّه رسوله إليه بالقول : ﴿ **سيقول السفهاء من الناس ما ولّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ [البقرة/١٤٢] . كما طرحوا أنهم يمكن أن يؤمنوا إذا

عاد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى قبلته الأولى لكن الله عصمه وأنبأه بكذبهم بقوله : ﴿ **ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين** ﴾ [البقرة/ ١٤٥].

التحـــدي :

لجأ اليهود إلى تحدي الرسـول صلى الله عليه وآله وسلم وطلب المعجـزات والمستحيلات مكابرة من بعد ما شاهدوا ما يمكن أن يقنع كل إنسان سويّ العقل والعاطفة فطلبوا منه أن يجعل الله يكلِّمهم فكان جوابه عز وجل : ﴿ **وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بيّنا الآيات لقوم يوقنون** ﴾ [البقرة/١١٨] ، كما طلبوا أن يُنزل الله عليهم كتاباً ﴿ **يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا: أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم** ﴾ [النساء/١٥٣] على أن تحديهم هذا اتخذ أحياناً شكل المماحكة فكانوا يسألون عن الغيب الذي لا يعلمه إلا الله . يقول تعالى : ﴿ **يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجلّيها لوقتها إلا هو ثقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة** ﴾ [الأعراف/١٨٧] كما شككوا بوحدانية الله تعالى وسألوا عناداً عمن خلقه (سبحانه) فكان الجواب سورة الاخلاص وكذلك قوله تعالى : ﴿ **وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير* قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحِيَ إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أإنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون** ﴾ [الأنعام/١٨، ١٩].

وبعد كل شيء فإن اليهود في الواقع لم يعرفوا الله حقيقة كما أكده تعالى إذ يقول : ﴿ **وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾ [الزمر/٦٧] .

محاولة ركوب الموجة لتحويلها :

لعـل أخبث مـا حـاولـه اليهـود مـع المسلمين التـظاهـر بـالإسـلام مـع إسرارهم الكفر . ﴿ **وإذ جاؤوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به**

والله أعلم بما كانوا يكتمون﴾ [المائدة/٦١] فهم كانوا يخادعون الذين آمنوا بإعلانهم الإيمان ولكنهم سرعان ما يؤكدون نفاقهم إذا خلوا إلى زعمائهم ، **﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا الى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ﴾** [البقرة/١٤] وذلك دون أن يكشفوا للمسلمين ما يدين المعتقدات اليهودية المزيفة **﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنّا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون﴾** [البقرة/٧٦] .

كما كشف الله تعالى تآمر بعضهم إذ كانوا يشكلون حلقات ويتسارّون ويتحركون بإيحاء من كبار اليهود ويحاولون تثبيت ما حرّف من التوراة في أذهان المؤمنين ويشككونهم بالقرآن عندما يخالف هذا التحريف ويكشفه ، وقد حزن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لهذا الأمر ولكن الله عزاه بقوله : **﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنّا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرّفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا . . . ﴾** [المائدة/٤١] .

كما كشف الله أولئك الذين كانوا يعتنقون الإسلام كذباً لفترة وجيزة ثم يكفرون ليجرّوا معهم ضعاف النفوس . **﴿ وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ﴾** [آل عمران/٧٢] على أن أحط ما قاموا به على هذا الصعيد هو تحريف الكلام ومحاولة دس أقوال في القرآن (كما في التوراة) ليست منه وذلك عن طريق التلفظ بها بطريقة توحي بأنها من كلام الكتاب . وقد حذر الله المؤمنين من هذه المحاولات بقوله : **﴿ وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾** [آل عمران/٧٨] .

الغوغائية (الديماغوجية) :

وقد تمثلت في التقول على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بما لم يقله ليستنتجوا ما يحقق مأربهم . فقد زعموا مثلاً أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم

يدعوهم لعبادته شخصياً وليس لعبادة الله الواحد ، فكان الرد القرآني على ذلك ما يؤكد استحالة أن يذهب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هذا المذهب : ﴿ **ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكمة والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون**﴾ [آل عمران/٧٩] .

إعلان رفض الحقيقة :

ولما لم يبق لليهود من حجة يدافعون بها عن مواقفهم وبسبب من استكبارهم ومن خوفهم على مصالحهم أعلنوا أنهم لن يستمعوا إلى دعوة الحق مستخدمين أسلوب المداورة أولاً ثم الأسلوب المباشر ثانياً .

فالأسلوب الأول تمثل بادعاء عداوة جبرائيل لهم الأمر الذي يبرّر لهم عدم قبول ما ينزل به ، ولكن الله عزا ذلك إلى كفرهم بقوله عز وجل : ﴿ **قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين* من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين** ﴾ [البقرة/٩٧،٩٨] .

أما الأسلوب الثاني أي المباشر فتمثل بإعلانهم أن قلوبهم لا تفقه أو هي على الكفر : ﴿ **وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون** ﴾ [البقرة/٨٨] .

إلا أنهم كانوا أحياناً يرفقون رفضهم للاقتناع بالحقيقة بتوجيه ألفاظ يقصدون منها الإساءة إلى الرسول كلفظة «راعنا» (من الرعونة)[٣] وقد بين الله منحاهم هذا بقوله : ﴿ **من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليّاً بألسنتهم وطعناً في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً** ﴾ [النساء/٤٦] .

إيقاظ العداوة بين المؤمنين :

على أن نشاط اليهود لم يكن موجهاً إلى الدين كعقيدة فقط بل هو انصبّ أيضاً على المسلمين في محاولة لضرب بعضهم ببعض عن طريق تذكيرهم

بخلافاتهم وحروبهم القديمة ومن ذلك خطة بعث الصراع بين فريقي الأنصار الأوس والخزرج ، تلك الخطة التي كادت أن تنجح لولا أن تداركها النبي صلى الله عليه وآله وسلم في آخر لحظة والتي نزل حولها قول الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين* وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هُدي إلى صراط مستقيم* . . . *واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً** ﴾[آل عمران/ ١٠٠، ١٠١، ١٠٣] .

ولما فشلوا في إيقاظ العداوة بين الأنصار عادوا ليعزفوا على وتر المصلحة الخاصة عن طريق تصوير اتفاق المؤمنين في سبيل الله على أنه يؤدي في النهاية إلى الفقر لا أكثر ولا أقل ولكن الله أبطل كيدهم بكشف خطتهم ، إذ يقول : ﴿ **الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله واعتدنا للكافرين عذاباً مهينا** ﴾ [النساء/٣٧] .

كل ذلك كان صادراً عن حسدهم للمؤمنين الذين أرسل الله فيهم رسوله ولم يرسله في بني إسرائيل ، وقد كشف الله هذا الحسد وذكرهم بأنه أرسل فيهم أنبياء ولكن بعضهم كان يكذب بهم ، فقال تعالى : ﴿ **أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً* فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيراً** ﴾ [النساء/٥٤، ٥٥] .

موقف النصارى الفكري من الاسلام :

اتخذ النصارى أحياناً مواقف من الإسلام مشابهة لمواقف اليهود ولكنها أقل حدة كما أشرنا ، فهم قد ناقشوا بالتوراة والانجيل المحرفين (المائدة/٦٨) وهم كانوا يخفون ما يؤكد بعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم (المائدة/ ١٥) ويدعون أنه لن يدخل الجنة الا النصارى (البقرة/١١١) وإنهم أبناء الله وأحباؤه (المائدة/١٨) ، وقالوا إن المسيح ابن الله (التوبة/ ٣٠) وإن إبراهيم وأبناءه وأحفاده كانوا نصارى (البقرة/ ١٤٠) . وقد كان الرد الالهي في هذه المواضيع هو

الرد نفسه الذي وجه الى اليهود.

ومن جهة أخرى فقد خصص الله تعالى سورة آل عمران لتبيان حقيقة المسيح (عليه السلام) مشيراً إلى أنه روح الله وكلمته أرسلها إلى مريم فحملت به ووضعته وآتاه الله الكتاب والحكمة وأجرى على يديه المعجزات فكلم الناس في المهد ثم كان يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله ويصنع من الطين على هيئة الطير فيمنحه الله الحياة ، وإن اليهود ما قتلوه وما صلبوه وإنما شبّه لهم.

ولعل ما ميّز موقف المسيحيين إلى جانب ضعفه للأسباب التي ذكرناها سابقاً هو نكوصهم أمام التحدي عندما طرح عليهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، بأمر من الله ، الملاعنة بقوله : ﴿ **فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين**﴾ [آل عمران/٦١] وكذلك قبولهم بأن يولي الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من يرافقهم ليحل لهم بعض مشاكلهم حيث أرسل معهم أبا عبيدة الجراح إلى نجران.

موقف اليهود العملي من الاسلام :

لم يكتف اليهود بالحرب الفكرية (الايديولوجية) والإعلامية يشنونها ضد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وضد الإسلام والمسلمين مخالفين أحكام الصحيفة التي وضعها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عند قدومه إلى المدينة والتي تنص على أن أهل الصحيفة «بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم» بل عمدوا إلى التآمر مع قريش وسائر الكفار ضد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين .

اجلاء قبيلة القينقاع (شوال السنة الثالثة للهجرة) :

بعد معركة بدر سار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى بني القينقاع وهم إحدى القبائل اليهودية الرئيسة الثلاث في منطقة المدينة فوعظهم بما حصل لقريش وطلب منهم أن يسلموا ، فأبوا واستكبروا.

ثم حصل أن كانت امرأة مسلمة في سوق بني القينقاع حيث جلست إلى صائغ ، فأخذ اليهود يتحرشون بها ، ثم عمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى

ظهرها فلما قامت انكشفت سوأتها وهم يتضاحكون ، فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، فما كان من اليهود إلا أن قتلوا الرجل المسلم ، فغضب المسلمون وتحرك الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لحصار بني القينقاع فأحاط بهم خمسة عشر يوماً فنزلوا على حكمه ولكن المنافق الشهير عبد الله بن أبي بن سلول تدخل لإنقاذهم من الموت فوهبهم له الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم أمر بإجلائهم ولم تكن لهم أرض.

إجلاء بني النضير (ربيع الأول سنة أربع) :

كان السبب المباشر لغزو الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنه صدف أن كان صلى الله عليه وآله وسلم يكلمهم في أمر دية يريد دفعها لبني عامر بن صعصعة بعد أن قتل أحد المسلمين رجلين منهم دون أن يدري أن حلفاً يربطهم بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وفيما الرسول يفاوض القوم وهو جالس قرب جدار أحد البيوت ، إذ بفريق منهم يتآمر عليه بأن كلفوا فتى أن يرمي حجراً على النبي صلى الله عليه وآله وسلم من فوق السطح . ولكن الله عز وجل أوحى إلى رسوله يخبره بالأمر فغادر المكان ودعا المسلمين إلى قتال بني النضير ، فحاصرهم إلى أن نزلوا على حكمه ، فسيّرهم من المدينة ، فمنهم من استقر في خيبر ومنهم من تابع طريقه إلى أذرعات من بلاد الشام ، وقد استولى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على سلاحهم وأموالهم ، إلاّ ما حملت الإبل ، فوزع المال على المهاجرين .

غزوة بني قريظة :

بقي من قبائل اليهود الرئيسية في المدينة بنو قريظة ، فتآمرت هذه القبيلة مع قريش والأحزاب في موقعة الخندق على أن تشن الهجوم على المسلمين من الخلف فيما الأحزاب يهاجمونهم من أمام ، ولكن لم يقيّض لها أن تفعل بفضل مكيدة دبّرها أحد المسلمين السريين . فلما فرغ الرسول من قتال المشركين أمره الله أن يتوجه إلى بني قريظة ، فحاصرهم خمسة وعشرين يوماً فاستسلموا ، وكانوا موالي لقبيلة الأوس فحكّم بهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سعد بن معاذ من نفس القبيلة فحكم بقتل الرجال وسبي النساء والذراري ، فنفذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حكمه.

وبهذا تخلص رسول الله من هذا العدو الغادر المقيم بين ظهراني

المسلمين واجتثه من جذوره وأصبحت منطقة المدينة خالصة للمؤمنين.

الرسول ويهود الشمال :

بعد فشل المشركين في معركة الخندق أخذ رؤوس بني النضير الذين أصبحوا زعماء خيبر إثر إجلائهم عن المدينة يعدون العدة لحرب أحزاب جديدة . وأخذ زعماؤهم يختلفون إلى بطون غطفان الذين كانوا أول من نكص في معركة الخندق . لذلك فإن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ما لبث بعد أن عاد من صلح الحديبية آخر سنة ست للهجرة أن أعدّ العدّة للتوجه إلى خيبر وذلك في بدايات سنة سبع للهجرة .

عمد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى محاصرة حصون خيبر وإسقاطها الواحد بعد الآخر . وقد أبدى اليهود مقاومة عنيفة وشنوا عدداً كبيراً من الهجمات المضادة على الجيش الاسلامي المحاصر . وقد استمرت مقاومة الحصن الأول شهراً أو يزيد وفشلت محاولات متكررة لاقتحامه ، إلى أن مكّن الله عليّاً بن أبي طالب (عليه السلام) . أما بقية الحصون فإنها لم تستسلم هي الأخرى بسهولة بل استمرت في مقاومتها فترة طويلة إلى أن تم فتحها حصناً بعد حصن.

وفي أثناء حصار خيبر كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد بعث الى يهود فدك ، إلى الشمال من خيبر ، يدعوهم إلى الإسلام أو الاستسلام فلم يردوا جواباً إلا بعد تأكدهم من سقوط خيبر ، فنزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دون أن يوجف عليهم بخيل ولا ركاب.

ثم توجه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم شمالاً إلى وادي القرى التي لم تستسلم إلا بعد حصار وقتال فافتتحها صلى الله عليه وآله وسلم وانتقل إلى تيماء فدانت له . وهكذا قضى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على النفوذ اليهودي المستشري والممتد من المدينة المنوّرة إلى حدود فلسطين ومن نجد إلى البحر الأحمر.

وكان من نتائج هذه المعركة أن يئس سائر العرب والمشركين من إمكانية القضاء على الإسلام وأخذوا يعيدون النظر في مواقفهم من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ويبحثون عن الوسائل للدخول في طاعته .

قتال المسيحيين :

لم يشكل المسيحيون داخل الجزيرة العربية خطراً على الإسلام ، كما رأينا ، لذلك فلم تنشب معارك معهم . ولكن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان يدرك أن هؤلاء لابد أن يكونوا تابعين للخارج ، للمراكز المسيحية على أطراف الجزيرة وللروم ، لذلك فقد توجه إلى هذه المراكز الرئيسية فأخذ تارة يهاجم الروم وتارة يهاجم الممالك العربية التابعة لهم .

غزوة مؤتة :

فبعد عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع ، واطمئنان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم النسبي إلى الوضع في الحجاز فكّر صلى الله عليه وآله وسلم بالبدء بمناوشة الروم وقتال حلفائهم العرب فكانت غزوة مؤتة في جمادى الأولى سنة ثمان . وقد واجه المسلمون في هذه الغزوة وكانوا حوالي ثلاثة آلاف بقيادة جعفر ابن أبي طالب وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة ، جيشاً كثيفاً من الروم قدر بمئة ألف ، فقتل القادة الثلاثة الواحد بعد الآخر ، فاختار المسلمون خالد بن الوليد للقيادة فانسحب بهم الى المدينة .

غزوة تبوك (رمضان سنة تسع):

توجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى تبوك في زمان عسرة على الناس وشدة وجدب في البلاد ، وعندما أخذت الثمار تنضج والناس يميلون إلى المقام في بساتينهم ويكرهون الشخوص.

ولما وصل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى تبوك أتاه صاحب إيلة يوحنا بن رؤبة فصالحه ودفع اليه الجزية ، وكذلك فعل أهل جرباء وأذرح .

أما أكيدر دومة فقد بعث صلى الله عليه وآله وسلم إليه خالد بن الوليد فأتى به فحقن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم دمه وصالحه على الجزية ، ثم غادر صلى الله عليه وآله وسلم تبوك الى المدينة .

بعث أسامة :

وأخيراً وقبل وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم جهز جيشاً لأسامة بن زيد ،

وكان في العشرين من عمره ، وجعل في هذا الجيش المهاجرين الأولين وأمره بالمسير إلى الشام حتى يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم ، ولكن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وقع في مرضه الأخير وأخذ كبار الصحابة يطلبون من أسامة التريث ، فلم يسر على الرغم من إلحاح الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلّا في خلافة أبي بكر وقد نفّذ أسامة ما كان أمره به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من بث الخيول في قبائل قضاعة والغارة على آبل ثم عاد سالماً غانماً .

استمرار المحاولات العدائية بعد الهزائم :

لم ييأس اليهود والنصارى بعد هزائمهم من إمكانية القضاء على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وزرع بذور الشك والشقاق بين المسلمين . فقد حاول اليهود بعد هزيمتهم في خيبر أن يغتالوا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بواسطة السم الذي وضعته له زينب بنت الحارث زوجة سلام بن مشكم في شاة هيأتها له ، ولكن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم اكتشف الأمر ، إلا أن واحداً من أصحابه كان تناول شيئاً من لحم تلك الشاة فأودى السم بحياته .

هذا ولم تزل الروح الغدائية تحرك يهود خيبر وتدفع بهم إلى محاولة الإنتقام . ففي زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم اغتيل في خيبر عبد الله بن سهل الأنصاري أخو بني حارثة الذي وجد مقتولاً ومرمياً في إحدى العيون .

وفي زمن عمر عدا بعض اليهود على عبد الله بن عمر وتركوه مرضوض اليدين .

وفي غزوة تبوك برز دور خبيث لبعض اليهود ، حيث اجتمع في دار سويلم اليهودي عند جاسوم رهط من المنافقين أخذوا يثبطون الناس عن المسير فبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نفراً من أصحابه فهربوا .

كما حاول في تلك الغزوة رجل من بني القينقاع ويدعى زيد بن اللهيث أن يشكك في نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولكن كيده ارتد عليه ، فقد حصل أن فقدت ناقة للرسول صلى الله عليه وآله وسلم فأرسل يبحث عنها ، فأخذ القينقاعي يبث بين المسلمين أن محمداً يدَّعي أنه نبي يعرف أخبار السماء وهو لا يعرف أين ضاعت ناقته ، ولكن الله أعلم رسوله بهذه المقالة فأجاب بأنه صلى الله عليه وآله وسلم لا يعلم إلا ما يعلّمه الله وأن الله أعلمه أن الناقة موجودة في الوادي

الفلاني في الشعب الفلاني قد حبستها شجرة فذهبوا فأتوه بها.

وأخيراً حاول أهل الكتاب التحرك بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وارتداد بعض القبائل.

النصارى في حرب الردة :

كان دور النصارى أكثر وضوحاً من مواقف غيرهم من أهل الكتاب في حروب القبائل التي ثارت في عهد أبي بكر.

فسجاح بنت الحارث التي ادّعت النبوة أقبلت« من الجزيرة وكانت ورهطها في بني تغلب تقود أفناء ربيعة ، معها الهذيل بن عمران . . . (الذي كان قد استجاب لها) وترك التنصّر . . . (وهي) كانت راسخة في النصرانية ».

كما أن ربيعة اجتمعت في البحرين وارتدت وقالت « نردّ الملك في آل المنذر من النصارى فملّكوا المنذر بن النعمان بن المنذر وكان يسمّى الغرور ».

وفي سنة ثلاث عشرة قام ربيعة بن بجير التغلبي (وبنو تغلب من النصارى) في جمع من المرتدين في المصيبح والحصيد فقاتله خالد .

تحالف النصارى مع الفرس ضد المسلمين :

كما تحالف النصارى مع الفرس ضد المسلمين . فيوم «الولجة» أصاب خالد عدداً من النصارى من بكر بن وائل « الذين أعانوا أهل فارس فغضب لهم نصارى قومهم فكاتبوا الأعاجم وكاتبتهم الأعاجم فاجتمعوا إلى «اليس»» .

وفي عين التمر حين غلب عليها خالد وجد في بيعتهم أربعين غلاماً يتعلمون الإنجيل.

ولما بلغ أهل دومة الجندل مسير المسلمين إليهم بعثوا إلى أحزابهم من بهراء وكلب وغسان وتنوخ والضجاغم وكان النصارى الذين أمدّوا أهل دومة محيطين بحصن المدينة الذي لم يتسع لهم عند وصول المسلمين.

كما باغت خالد تغلب وقتلهم في منطقة تقع شرق الرصافة اليوم يقال لها الثني، والزميل . وفي الفراض وهي تخوم الشام والعراق والجزيرة اجتمعت الروم والفرس ضد المسلمين فدارت الدائرة على الكافرين.

ثانياً : الدورة الثانية من المواجهة من فتح الشام حتى الحروب الصليبية

عرفت هذه الفترة انتشار الإسلام بشكل واسع بحيث غطّى المنطقة الممتدة من حدود الصين إلى المحيط الأطلسي والأندلس حيث أقام حضارته التي أسهمت في تقدم البشرية وانعتاقها سواء بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر في عصر قوة الدولة الإسلامية وفي عصر نهوض أوروبا .

وتميزت هذه المرحلة بضعف دور أهل الكتاب وبلجوئهم إلى بعض المحاولات الخبيثة لنشر البلبلة الفكرية في أوساط المسلمين إلا أنهم أقاموا اتصالات مع الغرب في ظل تسامح (إن لم نقل تعامي) السلطات الإسلامية .

ولكن القسم الأخير من هذه المرحلة كان أخطر ما تعرض له الإسلام حتى ذلك التاريخ إذ غزت الجيوش المسيحية الصليبية مناطق واسعة من بلاد الشام وجزيرة الفرات ولم يتم دحرها إلا بعد مرور قرنين على وجودها ولكن بصعوبة بالغة .

وأهم أحداث هذه المرحلة :

حرب الروم وهزيمتهم :

تحركت جيوش المسلمين باتجاه بلاد الشام من أجل فتحها في عهد أبي بكر بن أبي قحافة وهزمت جيوش الروم في معركة اليرموك الشهيرة وتابعت فتح سوريا في عهد عمر . ثم فتحت مصر وبعض شمالي أفريقيا في الوقت الذي كانت فيه الخلافات العقائدية مستشرية والقتال يدور بين طوائف المسيحيين في أنحاء عديدة من بلاد الشام ومصر .

ولكن الروم ما لبثوا أن تحركوا في أواخر خلافة عمر وبداية خلافة عثمان فشنّوا الغارات على بعض سواحل الشام[٤] ، إلا أن المسلمين أحكموا سيطرتهم على تلك البلاد وتجاوزوها إلى الأندلس .

ولكن انتصار المسلمين في معاركهم هذه لم يثن النصرانية عن تحركها المعادي للإسلام ، سواء في الداخل أو في الخارج وهذا ما سنبينه في الصفحات التالية .

المسيحيون في العصر الأموي :

كان العصر الأموي بالنسبة إلى النصارى عصراً جيداً نسبياً لا سيما في بداياته . فمعاوية تزوج من ميسون بنت بحدل الكلبي وهي نصرانية ، يقال إنها بقيت على دينها فولدت له يزيد الذي قضى وأمه بعد طلاقها فترة طفولته ويفاعته عند أخواله بني كلب ثم أصبح خليفة ليتحكم بمصائر المسلمين(٥) .

هذا كما لعب حسان بن مالك ابن أخي ميسون تلك دوراً هاماً في البلاط الأموي ، فهو الذي اقترح تسمية خالد بن يزيد بن معاوية بعد موت أخيه معاوية بن يزيد ، كما ناور عندما انتزع الخلافة عبد الملك بن مروان لإعادة تسمية خالد المذكور ولياً للعهد ولكنه فشل .

كما أن معاوية اتخذ سرجون بن منصور الرومي صاحباً لأمره ، وقد عاش سرجون هذا في خلافة يزيد ، وهو الذي أشار عليه بتولية عبيد الله بن زياد الكوفة بعد موت معاوية ومكاتبتها للحسين (عليه السلام) .

أما على الصعيد الفكري فقد عرفت قصور الأمويين مستشارين من مفكري المسيحية نذكر منهم يوحنا الدمشقي الذي ألّف كتاباً في الرد على المسلمين وهو الذي كان موظفاً في قصور الخلافة .

وقد بلغ التعاون المسيحي الأموي حدّاً دفع الجايستار وهو من أهل الذمة إلى اغتيال مالك بن الحارث الأشتر الذي كان في طريقه إلى مصر بعد أن ولّاه إياها الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام).

هذا وكان معاوية قد أزمع ، بعد مشورة عمرو بن العاص أن يوادع قيصر الروم ويعطيه مالاً وحللاً من حلل مصر ليتفرغ للتصدي لعلي بن أبي طالب (عليه السلام) عندما عزم على قتاله ، وهذا ما حصل فعلاً كما سنرى.

أما في الفترات اللاحقة من الحكم الأموي فقد بلغت درجة استهتار أهل الذمة من المسيحيين بالإسلام أن أصبح الأخطل التغلبي من شعراء القصر وهو الذي كان ينشد الأشعار التي تستهين بشعائر الإسلام ورموزه كقصيدته التي يقول فيها :

ولست بصائم رمضان يوماً	ولست بآكل لحم الأضاحي
ولست بقائم كالعير صبحاً	أنادي الناس حي على الفلاح

أو الأخرى التي تقول:

إذا ما نديمي علّني ثم علّني	ثلاث زجاجات لهن هدير
خرجت أجرّ الذيل زهواً كأنني	عليك أمير المؤمنين أمير

هذا وقد ساعد بعض الولاة الأمويين على تماسك الذميين عندما أخذوا يعاملون من يعتنق الإسلام منهم كما يعامل الذمي لجهة التكليف المالي ، وهي السياسة التي اتبعها الحجاج بن يوسف ليحافظ على موارد خزينته التي كان لا بد أن تتأثر بإسلام أهل الخراج.

كل هذه الأمور دفعت المؤرخين المسيحيين إلى الإشادة بالحكم الأموي والتنويه بالتسامح الذي اتسم به منذ بدايته حتى نهايته ، باستثناء فترة حكم عمر بن عبد العزيز(٦).

وعلى الرغم من مسايرة الأمويين لمسيحيي الداخل فإن قياصرة الروم كانوا يحاولون استعادة سيطرتهم على بلاد الإسلام بمختلف الوسائل خصوصاً وأن هرقل كان قد طلب من مسحيي سوريا أن يبقوا في أماكنهم حتى يعود ثانية إليهم ويهزم الدولة الإسلامية.

فعلى الصعيد العسكري تحرك الروم في زمن معاوية ضد بلاد الشام وأدخل قسطنطين الرابع بوغونات مجموعات من المقاتلين المسيحيين إلى جبال لبنان لقتال المسلمين ، الأمر الذي اضطر معاوية أن يصالحه على أن يؤدي إليه مبلغاً من المال بلغ ثلاثة آلاف قطعة ذهبية إضافة إلى إطلاق ثمانية آلاف أسير وتقديم خمسين جواداً أصيلاً ، مقابل ايقاف تحركه ومساعدته لأولئك المقاتلين ، ولكن

المقاتلين رفضوا العودة وتمردوا فسموا بالمردة .

ثم أعاد ملوك الروم الكرة في زمن عبد الملك بن مروان سنة ٦٨٥ ـ ٦٨٦ فيما كان منشغلاً بمشاكله الداخلية فاضطر إلى المصالحة على شروط أقسى من تلك التي فرضت على معاوية ، وتمثلت بأن يدفع إلى جستنيانـوس الأخرم مبلغ ألف دينار كل يوم إضافة إلى إطلاق أسير واحد وتقديم جواد أصيل واحد أيضاً.

هذا ولكن أعمال الروم العدائية لم تتوقف تماماً إذ عرف الربع الأول من القرن الثامن الميلادي عدداً من الغارات البيزنـطية على مصـر سنة ٧٠٩ وبين سنتي ٧٢٠ و ٧٢٦ فيما كان المسلمون يقومون غالباً بالغزوات التقليدية الصائفة والشاتية ضد الروم كلما سنحت الفرصة لذلك.

وأخيراً فإن الروم لعبوا دوراً معادياً على الصعيد المالي ، فقد كان التعامل جارياً في الدولة الأموية بالنقود البيزنطية التي تحمل الشعارات المسيحية ولكن عبد الملك بن مروان ضرب النقود منقوشة بالشعارات الإسلامية ، الأمر الذي أثار حفيظة القيصر فراح يهدد ويتوعد.

المسيحيون في العصر العباسي :

عرف العصر العباسي في نهاية عقده الأول (٧٥٩ ـ ٧٦٠) حركة مسيحية مسلحة ضد بعض المناطق ، فقد استفاد مسيحيو لبنان من وجودٍ بيزنطي مسلح بالقرب من طرابلس فتنادى سكان المنيطرة إلى حمل السلاح واجتـاحوا بعض المناطق المجاورة متوجهين إلى بعلبك ، ولكن حـركتهم قمعت بشدة أثـارت حساسية الإمام الأوزاعي كما هو معروف[٧] .

واستكان المسيحيون في الداخل والخارج بعد هذه الحادثة ما يزيد على قرن ونصف قامت خلالها صلات طيبة بين هـرون الرشيد وشارلمان اللذين تبادلا البعثات ما بين سنتي ٧٩٧ و٧٩٩ كما جرى الاتصـال بين شارلمـان وبطريـرك القـدس ، وتوطـدت عـرى التـواصـل بين المسيحيين في ديـار الإسـلام وبين المسيحيين الغربيين وأخذ هؤلاء يقدمون المساعدات لبناء وترميم الكنائس . ولم تتعكر علاقات العباسيين بالمسيحيين في هذه الفترة إلا حينما فرض المتوكل على

أهل الكتاب احترام الشروط العمرية تجاههم ، تلك الشروط التي تراجع عنها الواثق عندما ولي الخلافة .

إلا أن رحلة الغسل هذه انتهت مع الربع الأول من القرن العاشر الذي حفل بالغارات والاعتداءات البيزنطية ضد أطراف الدولة الاسلامية .

فقد زحف الروم على أرضروم وملطية وآمد سنة ٩٢٧ وفي سنة ٩٤٩ غزوا مرعش . وسنة ٩٥٧ غزوا طرطوس وآمد . وسنة ٩٥٩ اجتازوا دجلة شمال العراق ، وسنة ٩٦١ استولوا على كيليكيا ، وسنة ٩٦٢ على عينتاب وحلب وسنة ٩٦٥ احتلوا طرطوس وسنة ٩٦٦ اجتاحوا المنطقة حتى نصيبين في العراق مروراً بأرطاة بين حلب وانطاكيا ، وسنة ٩٦٨ غزوا معرّة النعمان وكفرطاب وحماه وحمص ،كما استولوا في نفس السنة على أنطاكيا وبقوا فيها حتى عشية الحروب الصليبية ، وسنة ٩٧٥ غزوا في وادي العاصي فوصلوا بعلبك ومنها مالوا إلى دمشق ثم إلى الجليل فبحيرة طبريا والناصرة وعادوا من طريق عكا فصيدا فبيروت فجبيل فاللاذقية إلى أنطاكيا .

وفي سنة ٩٩١ استعان سعد الدولة الحمداني بالملك البيزنطي باسيل الثاني ضد الفاطميين وهزمهم .

وفي سنة ٩٩٩ غزا باسيل الثاني شيزر وأحرق حمص ووصل إلى بعلبك ومنها إلى الساحل .

الغزو الثقافي في العصر العباسي :

إذا كانت الفترة التي شملت الثلث الأخير من الفرن الثامن والقرن التاسع هادئة من الناحية العسكرية فإنها عرفت بداية الصراعات الفكرية في بلاد الإسلام . وقد أثارت هذه الصراعات حركة الترجمة التي تناولت كتب اليونان العلمية والفلسفية وكذلك مؤلفات الهند وفارس.

وإذا كان لهذه الحركة من إيجابيات إلاّ أنها أدت فيما أدت إليه ، الى «السفه والانحلال» وكانت «مادة الحيرة والضلال ومثار الزيغ والزندقة » حسب رأي الشهرزوري الذي يصح بشكل جزئي على الأقل ، فقد أدت الفلسفة

اليونانيـة بما قـدمته من أنسـاق فكريـة مترابـطة إلى إثارة الشكـوك لدى بعض السطحيين أو ضعاف العقيدة فراحوا يضلون بها من يستطيعون إضلاله ووجـد الإلحاد والزندقة وسائل جديدة لدعم منطقهما.

ولعل النتائج هذه هي التي كانت غاية المسيحيين الذين انكبوا على المؤلفات اليونانية فنقلوها مروراً بالسريانية أو مباشرة الى اللغة العربية ، وكانت المحصلة أن نقل كل من حنين بن إسحاق وابنه اسحـاق وحبيش بن الحسن وعيسى بن يحيى وموسى بن خالد وقسطا بن لـوقا كتب أرسـطو وأفلاطـون وغيرهمـا إلى العربية ، كمانقل ترافيلوس الرهاوي إلياذة هوميروس .

الرد العسكري الغربي الاستراتيجي على الإسلام ـ الحروب الصليبية :

شكلت الحـروب الصليبيـة أول رد عسكـري شـامـل للمسيحيـة على الاسلام ، حيث تحركت الجيوش من أوروبا في نهايات القـرن الحادي عشـر الميلادي إلى الشرق الاسلامي لتستمر في التدفق قرنين من الزمان وتقيم الممالك الافرنجية في بلاد الشام طيلة تلك الفترة.

فقد سارت الجيوش المسيحية تحت راية الصليب للانتقـام من الاسلام تحت حجة تخليص قبر المسيح (عليه السلام) من المسلمين فاستمرت طيلة فترة إقامتها تغزو وتنهب وتقتل دون أي وازع انساني . ولم يوقف جرائمهم إلا القوة العسكرية التي كانت تبرز هنا أو هناك على أيدي قادة غالباً ما كانـوا يغتصبون السلطة الاسلامية ثم ينتزعها بعضهم من بعض في معارك دموية طاحنة.

لقد هاجم الصليبيون بلاد المسلمين والخلافة فيها خلافتان : عباسية في بغداد وفاطمية في القاهرة . ولكن الانقسام لم يقتصر على هذا الشرخ الثنائي بل كان القادة العسكريون ، خصوصاً الأتـراك السلاجقـة ، من «أمراء الاستيـلاء» (حسب تعبير الماوردي)[٨] يتناهشون أجزاء البلاد في ظل الخلافتين العبـاسية التي أصبحت لقباً من دون مضمون والفاطمية التي أمست عاجزة عن الدفاع عن أطراف ممتلكاتها ، وقد بلغ من ضياع المقاييس الدينية وحتى الأخلاقية أن الأمراء أصبحوا لا يتورعون عن الإستقواء بالصليبيين بعضهم ضد بعض ، فيرشيهم هذا

بمنطقة وذاك بمدينة والثالث بجزية كي ينصروا كلًا منهم على أخيه في فترة من أكثر فترات التاريخ الاسلامي سواداً.

لقد احتل الصليبيون إنطاكيا سنة ١٠٩٨ وسنة ١٠٩٩ مرّوا في الساحل السوري عند سفوح جبل لبنان، وفي ٤ تموز احتلوا القدس، وما وصلت سنة ١١٠٢ حتى كانوا استكملوا احتلال فلسطين، وسنة ١١٠٤ احتلوا عرقة وجبيل وسنة ١١٠٩ احتلوا طرابلس وسنة ١١٢٤ احتلوا صور وسنة ١١٤٩ احتلوا غزة وسنة ١١٥٣ عسقلان.

وفي هذه الأثناء لم تكن تهدأ المعارك بين أمراء الاستيلاء المسلمين. ففي الثلث الثاني من القرن الثاني عشر كان نور الدين زنكي يقاتل أمراء المقاطعات الشامية للاستيلاء عليها وكذلك كان يفعل تجاه مصر. وفي الربع الأخير من نفس القرن كان صلاح الدين يوسف الأيوبي يقفو أثر نور الدين في الشام والجزيرة ومصر. ولم تتوقف المعارك والمشاحنات الداخلية طيلة وجود الصليبيين حتى رأينا سائر الأمراء الأيوبيين وكذلك المماليك يقاتل بعضهم بعضاً ويغتال الواحد منهم الآخر وتصفّي طائفة من الجند طائفة أخرى.

وفي هذا الجو كان من يشعر بالضعف يستنجد بملوك الصليبيين كما يستنجَد بأي أمير مسلم. فمجير الدين آبق صاحب دمشق يستنجد بفولك ملك القدس الصليبي وبعده يمنحه بانياس إذا ما سانده في دفع عماد الدين زنكي عن المدينة وذلك في مناسبتين سنتي ١١٣٩ و١١٥٤.

كما أن أمراء مصر الذين كانوا يكرهون «شاور» وزير الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله كاتبوا سنة ١١٦٨ ملك القدس آموري لكي يهاجم مصر ويحتلها، فتقدم إليها واستولى على بلبيس وحاصر القاهرة، وكذلك فعل جوهر الخصي وبعض الأمراء عندما استقر الأمر لصلاح الدين في مصر إذ راحوا سنة ١١٦٩ يراسلون الصليبيين.

وفي سنة ١١٧٤ حاك بعض كبار موظفي الفاطميين مؤامرة لدعوة الصليبيين، ولكن خطتهم كشفت. ولم يقلع أمراء المسلمين عن هذا التقليد حتى النهاية إذ رأينا سنة ١٢٥٠ سلطان دمشق ناصر الدين يوسف الأيوبي يراسل

ملك فرنسا لويس التاسع الذي كان على رأس حملة صليبية ، ليساعده في مهاجمة مصر ، فيسارع أمراء مصر الى الاتصال بهذا الملك ويقدمون إليه مايتي فارس من الأسرى ويعدونه بتسليمه القدس وبالتنازل له عن نصف البلاد التي سيحتلونها في حال انتصارهم.

أما مسيحيو المنطقة فقد كانت مواقفهم من الصليبيين متباينة ، فالطوائف الشرقية كانت حذرة ، تؤيدهم عندما تقضي مصالحها أو أمنها بذلك وتقف على الحياد أو تتخذ موقفاً عدائياً أحياناً عندما لا ترجو اجتلاب منفعة أو تخشى خطراً. أما المسيحيون ذوو الميول الغربية فقد وضعوا أنفسهم في خدمة الصليبيين وكانوا متحمسين لقضيتهم مثل حماس الفرنجة أنفسهم.

أما موقف الصليبيين فكان موقف السيد الذي يتطلب من مولاه أن يمده بالمساعدة حتى إذا قصّر عمد إلى تأنيبه بقسوة . ونحن هنا لن نتبسط في العلاقة بين الصليبيين والروم في القسطنطينية وما عرفت من معارك غادرة فرضتها الجيوش الغازية على البلاد المغزوة وحذر هذه الأخيرة ومواقفها العدائية ، بل سنقصر كلامنا على مواقف نصارى المنطقة الاسلامية من الصليبيين ومن المسلمين.

لقد ترددت مواقف المسيحيين تجاه المسلمين بين العمل العسكري في خدمة الصليبيين وبين النشاط التآمري المتعدد الأشكال لصالحهم.

فعلى الصعيد الأول شكّل الموارنة سواء المقيمون في الساحل السوري أو في قبرص قوة ترشد الصليبيين إلى المسالك الأكثر أمناً أو الأقل تعرضاً للخطر ، كما أنهم جهّزوا مجموعات من المقاتلين ، منها ما وضعت تحت القيادة الصليبية المباشرة ومنها ما قامت بأعمال مستقلة تمثلت غالباً بالإغارة على مؤخرة جيش إسلامي بخوض معركة مثلاً أو هي شكلت مخافر حراسة متقدمة للصليبيين تنذرهم بقدوم عدوهم الإسلامي وتشاغله ريثما استعدوا.

فلدى انطلاق الفرنجة من إنطاكيا باتجاه القدس سنة ١٠٩٩ تقاطرت نحوهم وفود المردة من سير الضنية وجبيل وساروا معهم وأرشدوهم ودفعوا لهم الميرة كما أرسلوا فرقة من النشابة إلى بيت المقدس[٩].

وفي سنة ١١٦٣ شارك الأرمن والروم (العقبان) في معركة ضد نور الدين زنكي عند أسفل حصن الأكراد . كما شارك الصليبيين فرقة من النصارى الحلبيين المختصين بنهديم الحصون.

وفي سنة ١٢١٥ استدعى البابا إينّوسـان الثالث البطريرك الماروني أرميا العمشيتي للمشاركة في مجمع «لاتران» كما أرسل موفداً من قبله إلى الموارنة وكـان الهدف الإعـداد لحملة صليبية مهمتهـا استـرجـاع القـدس من صـلاح الدين[١٠].

وفي سنة ١٢٤٨ وبعد أن وصل ملك فرنسا لويس التاسع على رأس حملة صليبية ، أصعده مطران قبرص الماروني إلى سطح الأسقفية ليريه سلسلة جبال لبنان ويحرضه على احتلالها . ولما وصل الملك المذكور إلى عكا سنة ١٢٥٠ أرسل إليه «أمير المردة» ابنه سمعان على رأس خمسة وعشرين ألف رجل ، وقيل إن موارنة قبرص أرسلوا قوة مع الصليبيين الذين قصدوا دمياط لمحـاصرتهـا ، بلغت خمسة آلاف رجل لم يرجع منهـم إلا مايتان واثنان .

ومن جهة أخرى فقد أغار موارنة شمال لبنان على مؤخرة الجيوش الإسلامية المحاصرة لطرابلس سنة ١٢٦٦ بقيادة الملك الظاهر بيبرس وفي سنـة ١٢٨٧ بقيادة الملك قلاوون .

وبعيـداً عن جبال لبنـان فإن بعض المنـاطق المسيحيـة التي استعـادهـا المسلمون بقيت تأتمر بأوامـر الصليبيين . ففي سنة ١١٤٤ استعـاد المسلمون الرها ، فما كان من صاحبها الهارب جوسلين إلا أن أخذ في مراسلة أهلها كي يقوموا بالعصيان ضد المسلمين ، وتسليم المنطقة إليه من جديد ، فنفذ الأهالي أوامر جوسلين ، مما دفع نور الدين زنكي إلى اقتحامها سنة ١١٤٦ بعد أن فرّ صاحبها المشار إليه .

هذا كما شكل الموارنة غطاء لبقايا الصليبيين الذين لم يغادروا المنطقة بعد زوال دولتهم ، فاختلطوا بهم وشاركوهم في حروبهم[١١] .

ولم يقتصر دور مسيحيي المنطقة على الجانب العسكري بل هم عمدوا

إلى أساليب ماكرة أخرى ، فقد تسلل بعض أهل الذمة إلى مراكز الدولة الإسلامية واستخدموها ضد مصلحة الإسلام ومن الأمثلة على هذا الدور ما يلي :

في العقد السابع من القرن الثاني عشر نقض صاحب الموصل عهداً عقده مع صلاح الدين فاقتتل الفريقان رغم التهديد الصليبي ، وكانت الغلبة لصلاح الدين الذي أسر عدداً من الأمراء كان بينهم المدعو فخر الدين عبد المسيح الذي وصف بأنه « مسيحي متظاهر بالإسلام »(١٢).

وفي سنة ١٢٤٥ استوزر الملك المعز إيبك شخصاً من نظّار الدواوين يدعى شرف الدين هبة الله بن صاعد الفائزي وهو قبطي تظاهر بالإسلام في عهد الملك الكامل وترقى في الخدمة بشكل تدريجي .

وكان أهل بلدة قارا المسيحيون يخطفون المسلمين ويبيعونهم خفية للصليبيين ، الأمر الذي دفع الظاهر بيبرس إلى مهاجمة البلدة والانتقام منها سنة ١٢٦٦ .

وأخيراً كان خزنة مال صلاح الدين الأيوبي من النصارى فلما انتدب المقاتلين للتسلل إلى عكا المحاصرة سنة ١١٩٠ أخذ هؤلاء الخزنة يثبطون المتطوعين ويصرفونهم .

إلا أن هذه الخدمات لم تكن لتقنع الصليبيين بمعاملة مسيحيي الشرق على أنهم حلفاء بل اعتبروهم أتباعاً أو موالي يقومون بواجبهم حتى إذا قصّروا تعرضوا للقصاص كما أسلفنا . فبالإضافة إلى ما حصل بين الفرنجة وبين الروم في القسطنطينية تعرّض الموارنة للتنكيل بسبب تقصيرهم . ففي سنة ١١٣٧ اتهم الصليبيون موارنة بشري بالتراخي في مواجهة الجيش الاسلامي بقيادة بزواش السلجوقي الذي قدم من جهات بعلبك لمهاجمة طرابلس المحتلة فتمكن من قتل قائد المنطقة الكونت بونس . فما كان من ابنه ريمون الثاني إلّا أن قاد حملة لمعاقبة الموارنة فهاجم الجبل واقتاد الرجال والنساء والأولاد وأودعهم في قلعة طرابلس حيث نكّل بهم أشد التنكيل(١٣) .

علاقة المسلمين بمسيحيي الداخل بعد الحروب الصليبية :

تأكّد للمسلمين أبان الحروب الصليبية أن بعض طوائف المسيحيين تتصرف على أنها جزء من الغرب المسيحي المعادي للإسلام ، وهذا ما أكده غروسيه إذ يقول : « إن ما قام به أهل أنطاكية والرها علّم المسلمين أن المسيحيين من أبناء البلاد يشاركون الفرنجة قضاياهم إلى الدرجة التي دفعت المسلمين إلى اتهامهم باستدعاء الصليبيين[١٤] . لذلك فقد قرر الحكام المماليك أن يعاقبوا الموارنة على مواقفهم فأمر الملك المنصور سنة ١٢٨٣ بغزو جبل لبنان لأن أهله كانوا نجدة للإفرنج الذين في السواحل ، فاجتاح الجيش المماليكي المنطقة الشمالية من جبل لبنان مفتتحاً إهدن وحصرون وكفر صارون والحدث ومارتوما »[١٥].

إلا أن هذه العملية التأديبية لم تكن رادعة فعلاً ، فما أن حاصر الملك قلاوون طرابلس سنة ١٢٨٧ حتى هاجمه النصارى من الخلف كما رأينا.

وقام المماليك بحملة تأديبية أخرى سنة ١٢٩٣ ولكنها فشلت واتهم قائدها الأمير بدر الدين بيدرا بالرشوة إلا أن المماليك عندما تخلصوا نهائياً من الصليبيين (ومن التتار الذين غزوا المنطقة أيضاً) قاموا بعملية تأديب كبيرة ضد سكان الجبل الذين تعاونوا مع الفرنجة ، ففي سنة ١٣٠٥ وجه السلطان الملك الناصر محمد ابن المنصور قلاوون جمال الدين أقش الأفرم نائب الشام وزين الدين عدنان (نقيب الأشراف) وقراقوش وابن تيمية على رأس جيش قوي إلى أهالي كسروان والجرود، فحاول القادة أولاً اقناعهم بالرجوع إلى الطاعة فأبوا، فصعدت إليهم العساكر من كل جهة واحتوت على جبالهم « ووطأت أرضاً لم يكن أهلها يظنون أن أحداً يطأها ، فقتل الجيش منهم خلقاً كثيراً وتمزقوا في البلاد وخمل أمرهم واضمحل ذكرهم »[١٦] .

استمرار أعمال الفرنجة العدائية :

تمثلت هذه الأعمال بالغارات العسكرية وبتغذية العلاقات مع المسيحيين والاستمرار بتحريضهم :

على الصعيد العسكري توالت الغارات البحرية منذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادي حتى بدايات القرن الخامس عشر وهذه أمثلة عليها :

سنة ١٢٩٨ : قام الأسطول الصليبي بمحاولة لمهاجمة السواحل السورية ولكنها فشلت بسبب العواصف .

سنة ١٣٠٢ : حصل هجوم على الدامور أدى إلى قتلى وأسرى .

سنة ١٣٠٦ : حصلت غارة على بيروت وصيدا أدت الى قتلى وأسرى .

سنة ١٣٣٣ : هجوم على جوار عرمون انتهى بقتلى وجرحى وأسرى .

سنة ١٣٦٥ : هجم الفرنجة من قبرص على الاسكندرية واجتاحوها مما دفع بالمماليك إلى مهاجمة مملكة أرمينيا اللاتينية ، ومعاقبة موارنة جبل لبنان المتهمين بمساعدة الغرب باستمرار.

سنة ١٣٨٢ : شن إفرنج قبرص هجومين على صيدا وبيروت .

سنة ١٤٠٣ : شن إفرنج قبرص هجوماً واسعاً على سواحل الشام من طرابلس إلى صيدا.

سنة ١٤١٣ : نزل الفرنجة في الدامور ونشبت معركة حامية بينهم وبين المسلمين.

وإذا كانت الحملات الصليبية قد توقفت قبل نهاية القرن الثالث عشر والغارات في بدايات القرن الخامس عشر فإن هذا التوقف لم يكن خاتمة المطاف ، فقد استؤنفت المحاولات الدائبة في القرن السابع عشر للتحوّل إلى واقع ملموس في القرن التاسع عشر وتتفاقم في القرن العشرين كما سنرى .

على الصعيد السياسي الثقافي :

لم تنحصر نتائج الحروب الصليبية في المجال العسكري والاقتصادي بل هي بطبيعة الحال قد تعدتهما إلى المجال الثقافي الديني والسياسي ، ونحن هنا لن نستطيع تقصّي آثار تلك الحروب في هذا المجال بشكل شامل بل سنتلمس ما إذا كانت أدت إلى تأثيرات على الفكر الاسلامي وعلى الثقافة في بلادنا بشكل عام ، ولن نستقصي تأثيرات الفكر الاسلامي والحضارة الاسلامية على الصليبيين وغيرهم في الغرب ، بل سنكتفي ببعض الآثار المباشرة لتلك الحروب على

المسيحيين في بلادنا كزرع طوائف جديدة والضغط على بعض الطوائف القائمة لإجبارها على التحول إلى الطقس الغربي إضافة إلى استفحال عمليات التبشير وتوالي الإرساليات وانتشارها.

فعلى الصعيد الأول بقيت طوائف اللاتين في أنحاء مختلفة من البلاد التي جلا عنها الصليبيون وقد بقي المطارنة اللاتين في بعض المناطق كجبيل حتى منتصف القرن الخامس عشر ، فقد توفي المطران جاك دي لا ، طران جبيل من مجموعة « الأخوة الواعظين » سنة ١٤٢٢ فأعقبه جاك دي ويسب . وفي سنة ١٤٧٩ كان اللاتين لا يزالون يملكون في جبيل أديرة ومؤسسات عديدة ومزارع وقرى منها مثلاً دير مارسركيس للسيستريين الذي كان يملك عقارات ومزارع في العديد من قرى المنطقة.

كما كان في طرابلس حتى أواخر القرن الخامس عشر مطارنة لاتين ، إذ توفي الأسقف انطوان سنة ١٤٥١ فخلفه بنوا في ٣١ أيار من تلك السنة[١٧].

هذا وكان ملوك الغرب يعملون للسيطرة على المؤسسات المسيحية وتخصيصها برعاياهم كما فعلت الملكة كونسطانسا ملكة صقلية التي اشترت سنة ١٣٣٣ من الملك الناصر كنيسة القيامة وكنيسة عليّة صهيون وقبر مريم (عليها السلام) وبيت لحم بثمانين ألف دينار وعهدت بالإشراف عليها إلى الرهبان الفرنسيسكان وسلمت إلى الموارنة مغارة الصليب الملاصقة لكنيسة القيامة وجملة مذابح في كنائس القدس منها مذبح كنيسة القيامة[١٨].

أما على الصعيد الثاني فقد دفعت إلى الكثلكة ، الكتلة المسيحية العربية الأكثر عداوة للإسلام وهي الكتلة المارونية التي تحولت إلى الطقس الغربي أبان احتلال الصليبيين للساحل السوري . فقد جاء في كتاب « تقاليد فرنسا في لبنان » (لمؤلفه ويسلهوبر)[١٩] «أن قوماً من السريان يقطنون فينيقيا تركوا سنة ١١٨٢ بإلهام إلهي غواية رجل مبتدع اسمه مارون وعادوا إلى وحدة الكنيسة الكاثوليكية ، وأن سيد جبيل هوغ دي لامبرياك هو الذي حملهم على ذلك بشدة تأنيبه لهم ، وأن الإفرنج فرحوا فرحاً عظيماً بعودتهم إلى الدين الكاثوليكي» .

ويبدو أن بداية التحول في الكنيسة المارونية كانت سنة ١١٤٥ حيث جرى

انشقاق قاده البطريرك لوقا في مواجهة التيار المتغرّب ، ولكن هذا التيار انتصر سنة ١١٨٢ ، إلا أن الانشقاق عاد وذرّ قرنه سنة ١٢٧٣ لينتهي الأمر أخيراً لصالح الطقس الغربي .

هذا وسيعرف القرنان الثامن عشر والتاسع عشر عمليات انشقاق في الكنائس الشرقية الأخرى كما سنرى .

وكمكافأة للموارنة على تحولهم المشار إليه ، ومن أجل دفعهم إلى مزيد من الارتماء في أحضان الغرب واستغلالهم في المخططات الغربية ، بسط ملوك فرنسا حمايتهم وبذلوا مساعداتهم لهم موهمين إياهم أنهم يعتبرونهم كالفرنسيين تماماً . فقد جاء في رسالة من لويس التاسع ملك فرنسا إلى « أمير الموارنة » وبطريركهم وأساقفتهم في ٢٤ أيار ١٢٥٠ من عكا : « إن قلبنا قد امتلأ فخراً لما رأينا ولدكم سمعان قد أتى مع خمسة وعشرين ألفاً حاملاً إلينا شهادة عاطفتكم الحبيبة ومقدماً لنا الهدايا الفاخرة . وفي الحقيقة أن محبتنا الخالصة التي بدأنا نستشعرها نحو أمة الموارنة أيام حلولنا في قبرص حيث يقيمون ، وقد تضاعفت اليوم ، ونحن موقنون بأن هذه الأمة التي قامت تحت اسم القديس مارون هي قسم من الأمة الفرنسية لأن محبتها للفرنسيين تشبه محبة الفرنسيين بعضهم لبعض . وعليه فيجب من قبيل العدل أن تتمتعوا أنتم وجميع الموارنة بنفس الحماية التي يتمتع بها الفرنسيون من جانبنا وأن تُقبلوا في الوظائف كما هم يقبلون ولذلك فإننا نستحثك أيها الأمير الرفيع الشأن على أن تسعى كل السعي في ما يعود على أهل لبنان بالسعادة وأن تعنى بإقامة أشراف من أكثر الناس أهلية لديك كما هو جار في فرنسا .

وأنتم أيها السيد البطريرك والسادة الأساقفة وجمهور الأكليروس وعامّة الشعب الماروني وأميركم المعظم إننا نحثكم على المحافظة على هذا الإحترام وأن تبقوا دائماً ثابتين في هذا الإيمان.

أما نحن وجميع الذين يخلفوننا على عرش فرنسا فنعد بأننا نوليكم أنتم وجميع شعبكم حمايتنا الخاصة كما نوليها للفرنسيين أنفسهم ونسعى في كل وقت فيما يكون آيلاً إلى سعادتكم[٢٠]» .

وقد تجددت الحماية في العصور اللاحقة خصوصاً في القرن السابع عشر حيث أصدر لويس الرابع عشر ملك فرنسا مرسوماً في ٢٨ نيسان ١٦٤٩ جاء فيه : « قد أخذنا ووضعنا تحت حمايتنا ورعايتنا الخاصة . . . صاحب النيافة البطريرك وكل الأكليروس والموارنة والمسيحيين من رجال دين أو علمانيين يقطنون جبل لبنان خاصة »[٢١] .

وبعد أن أمّن أرباب المسيحية الغربية السياسية والدينية ارتباط الموارنة بهم أخذوا في احتضانهم وتشجيعهم على الإستمرار في هذا الارتباط وتوثيقه . وهكذا فما إن تخلصت الكنيسة الكاثولكية من مشاكلها ما بين ١٢٩٥ و١٤١٧ حتى أخذت تتواتر الإتصالات بواسطة المبعوثين والرسائل والبراءات ، وقد حملت المصادر المارونية عدداً كبيراً منها : ففي سنة ١٤٣٨ أرسل البابا أوجين الرابع رسالة إلى البطريرك الماروني تتعلق بمجمع فرارا الكاثوليكي .

وبين ١٤٤١ و١٥١٥ أحصى الأب طوبيا عنيسي سبع عشرة براءة ورسالة أرسلها البابوات إلى الموارنة . وتتالت الرسائل والبراءات والهدايا المتبادلة سنة ١٥٢١ و١٥٢٧ و١٥٣٠ ، و١٥٣٢ و١٥٣٤ .

وفي سنة ١٥٢٦ أرسل البابا معتمداً إلى الموارنة.

وفي سنة ١٥٤٢ أرسل البابا براءة إلى البطريرك الماروني باعتماد الآباء الفرنسيسكان.

وفي سنة ١٥٤٤ أرسلت براءة بابوية أيضاً بتعيين راهب فرنسيسكاني معتمداً لدى الموارنة.

وفي سنة ١٥٥٥ أرسل البطريرك الماروني رسالة تهنئة إلى البابا بمناسبة صدور براءة بابوية بتعيين كرادلة محامين عن الموارنة .

وتتالت الإتصالات في سنة ١٥٥٦ و١٥٦٢ و١٥٦٤ و١٥٦٧ .

وفي سنة ١٥٧٧ سافر وفد برئاسة مطران الشام إلى روما وعاد مع المعتمد البابوي اليسوعي حاملاً رسائل وبراءات.

وفي سنة ١٥٨٢ انشئت في روما مؤسسة لاستضافة الموارنة خصصت لها أوقاف سنة ١٥٨٣ .

وفي سنة ١٥٨٤ أنشئت مدرسة للموارنة في روما وخصصت بريع ثابت .

وفي سنة ١٥٩٦ قدم موفد بابوي إلى الموارنة وعقد مجمعاً لتنظيم شؤون الطائفة.

والجدير بالتنويه أن هذه الكثافة في الإتصالات والتدخل الواضح في تشكيل العقيدة المارونية الجديدة لم يكونا ليتما لولا الحروب الصليبية وتشكيل الصليبيين قوة ضغط حاسمة في المنطقة مما أدى إلى تراجع قوة الكنائس الشرقية.

الدعوة إلى حروب صليبية جديدة ضد بلاد الشام :

بعد توطد ارتباط الموارنة بالكثلكة وبعد مرور أكثر من قرنين على جلاء الصليبيين ومرور أكثر من قرن على آخر الغارات الخاطفة على سواحل الشام بدأ الحنين يراود بطاركة الموارنة فأخذوا في ظروف ضعف قوة المماليك يلتمسون من الغرب أن يعاود الحروب الصليبية. ولم يقنطهم انتصار العثمانيين على الروم ولا احتلالهم لبلاد الشام، ويدفعهم إلى الإقلاع عن هذه الفكرة. وهكذا نجد البطريرك موسى سعادة العكاري يبعث سنة ١٥٢٧ برسالة إلى شارلكان أمبراطور الغرب يدعوه فيها لاستخلاص البلاد من المسلمين ويعده بتقديم خمسين ألف مقاتل، ويعبر عن مرارته بقوله: «منذ أربع سنوات ونحن نترجى جلالتكم لتهتموا بمساعدتنا... وعندنا خمسون ألفاً من الرماة تدرّبوا أحسن تدريب وهم على أتم الإستعداد لخدمتكم»(٢٢).

وقد جرت محاولات مشابهة سنة ١٦٠٥ في عهد الأمير فخر الدين المعني، حيث وردت رسالة من بعض الجهات المسيحية إلى فرديناند الأول أمير توسكانا تقول: «إنه إذا جهّز (أمير توسكانا) حملة على الأراضي المقدسة أمكنه أن يعتمد على عشرين ألفاً من نصارى الجبل (الموارنة)(٢٣).

كما أن الجهات المسيحية المارونية والايطالية حاولت الدفع لعقد معاهدة بين فخر الدين وأمير توسكانا، وقد أخذت هذه الجهات تغري البابا بالعمل على الإستيلاء على سواحل بلاد الشام. فقد نسب المطران جرجس مارون في خطاب إلى البابا كلاماً إلى فخر الدين يدّعي أنه خاطب به بطريرك الموارنة جاء فيه:

« سمعت أنه في روميه أمير يخضع له ملوك وأمراء كثيرون ويلبون أدنى إشارة منه ، أنظر إذا كان راغباً في هذه البلاد فإني أعده وأقسم أن أقدم موانئي لغلايينه وأشد أزره بكل قواي ضد هذا الكلب التركي »[٢٤].

ولكن البابا اوربان الثاني أكّد في رسالة إلى البطريرك الماروني في ٦ أيلول ١٦٢٥ عدم قدرة ملوك أوروبا المتورطين في حروب فيما بينهم على ذلك حيث يقول : « إن النزاع القائم الآن بين الملوك المسيحيين والحروب الناشبة في ايطاليا لا تسمح في الوقت الحاضر بتجنيد الرجال . . . »[٢٥].

ولكن إذا كان النظر قد صرف عن الحرب الصليبية في القرن السابع عشر وتأجلت الغزوات الصليبية ضد بلاد الشام إلى بدايات القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، فإن حرباً صليبية غير معلنة شنت ضد الدولة العثمانية في مقاطعاتها الأوروبية منذ بدايات القرن الثامن عشر ، وأخذت روسيا الصاعدة تشارك فيها ، بشكل متزايد الفعالية . ثم استهدف الصليبيون الجدد مصر وجزر المتوسط وانتهى الأمر بانتزاع أو انفصال المقاطعات الأوروبية ثم باحتلال شمالي أفريقيا ومصر ، إلى أن استؤنفت الحرب الصليبية تحت شعارات الإنتداب ضد بلاد الشام والعراق ، ليحتل «اللنبي» دمشق ويدخل مقام صلاح الدين ويخاطبه قائلاً : « ها قد عدنا يا صلاح الدين ، الآن انتهت الحروب الصليبية ».

ثالثاً : الدورة الثالثة من المواجهة بين أهل الكتاب والإسلام - من بدايات النهضة الأوروبية إلى اليوم

استفاد أرباب المسيحية من التجارب الماضية على مرارتها فأخذوا ينتهجون سياسة متئدة ويبنوا المنجزات لبنة لبنة بكل تأنٍ وروية ، حتى إذا انقلبت موازين القوى مع الثورة الصناعية أخذوا يضغطون بشدة وعلى مختلف الصعد مستخدمين أرقى ما توصل إليه العقل البشري في مجال التكنولوجيا حتى استطاعوا في النهاية أن يحتلوا بلاد الإسلام عسكرياً ويلحقوها بهم اقتصادياً

وثقافياً ، فأخذت تدور في فلكهم وتقدم لهم خيراتها وأدمغة أبنائها حتى كأنها واقعة تحت تأثير التنويم المغناطيسي المستمر والمتمادي الذي لا يزول.

فلقد كان من نتيجة الحروب الصليبية ، وبعد الهجوم الذي تعرّض له الغرب على أيدي العثمانيين الذين دقوا أبواب فيينا أن اقتنع القيمون على الشؤون المسيحية أن العمل العسكري بمفرده لا يمكن أن يخضع بلاد الإسلام، ومن هنا أخذوا يفكرون بأساليب جديدة تسبقه وتمهد له . ومن أهم الخطط التي وضعت إضافة إلى استكمال كثلكة المسيحية الشرقية ، بعد نجاح النموذج الماروني ، محاولة نسف الإسلام وإلغاء دوره لتصبح الجماهير المسلمة في حال ضياع لا تسمح لها بتمييز الفكر المعادي من الفكر المناسب ولا بتحديد العدو والصديق . ومن أهم ما توسلت به المسيحية في هذا الصدد :

- كسب بعض كبار النافذين والحكام المحليين إلى النصرانية ، وذلك في البلاد التي تقوم فيها قاعدة مسيحية ذات اتجاهات غربية كبلاد الشام.

- دس فئات من أهل الكتاب في الإسلام ليكونوا طابوراً خامساً للصليبية الدولية تستفيد منه في اللحظات الضرورية وذلك في المناطق القريبة من مركز القرار القائم في استانبول.

- إقامة جاليات أجنبية وتقوية الأقليات في بعض المناطق الإسلامية تغذيةً للطموحات وشحذاً للعزائم عند أشد الأديان عداوة للإسلام ، وهو الدين اليهودي الذي يفهم النصوص التوراتيه على أنها تعده ببعض المناطق الإسلامية .

- أما على الصعيد السياسي المباشر فقد خطط الغرب للاستفادة من «حقوق» معينة مكتسبة في الدولة الإسلامية الرئيسية أي الدولة العثمانية ليستطيع من خلالها أن ينفذ مخططاته المرسومة والمبين بعضها أعلاه بسهولة ، ويسر.

- وأما على الصعيد الفكري السياسي ، فقد عمد الغرب إلى نشر الفكر العلماني الغربي بمدارسه السياسية والاجتماعية ليتمكن بعدها من انتزاع التنازلات على أساس هذا الفكر من السلطة لصالح الأقليات الموالية له . وكذلك نجح إلى حد بعيد في دفع الإسلام إلى التقوقع في العلاقات العبادية بين الإنسان وخالقه .

وسنتناول فيما يلي هذه النقاط باختصار.

١ ـ محاولة كثلكة المسيحيين الشرقيين :

بدأت الإرساليات التبشيرية تتوافد مع توافد الحملات الصليبية ولم تتوقف حتى اليوم . ففي سنة ١١٥٤ افتتحت الرهبانية الكرملية مركزاً لها في جبل الكرمل في فلسطين . وفي سنة ١٢١٩ بدأ الفرنسيسكان نشاطهم في مركز أقاموه على ساحل عكا . وفي سنة ١٢٣٠ بدأت إرسالية من الدومينيكان نشاطها في دمشق .

وبعد الحروب الصليبية ، وخاصة بعدما تخلصت الكاثوليكية من مشاكلها ، تتابع الغزو ، فوفدت سنة ١٦٢٦ ، إرساليتا الكبوشيين واليسوعيين إلى بيروت ثم إلى دمشق سنة ١٦٥٢ .

أما البروتستانت الذين بدأ نشاطهم التبشيري متأخراً نسبياً ، فلم يكتفوا بالدعوة إلى مذهبهم وإنشاء المدارس والمؤسسات كوسائل لذلك ، بل إن فريقاً منهم كان يوجه نشاطه لخدمة اليهود الذين كان يخطط لتنصيرهم .

وقد نجح البروتستانت في إقامة معبد أنكليكاني على جبل صهيون بعد أن كانوا تملكوا قطعة أرض لهذا الغرض لتمكين المهاجرين اليهود من السكن عليها وذلك في ٢٣ كانون الثاني ١٨٣٧[٢٦] .

وقد استطاعت النشاطات التبشيرية المستمرة والمتواصلة أن تدفع بأعداد من الارثوذكسيين إلى التحول إلى الكاثوليكية ، خصوصاً في القرن الثامن عشر الأمر الذي أدّى إلى مشاكل معقّدة بين الطائفة الأم وبين أبنائها الذين تركوها . وأخذ المسؤولون الارثوذكس يحاولون كسب السلطان العثماني إلى جانبهم ضد الكاثوليك ولكن ردة الفعل العثمانية كانت مضطربة وخاضعة للظروف المحلية والدولية . فبعض الفتاوى كانت تعتبر التحول إلى الكاثوليكية مسألة لا تعني المسلمين ولا تخرج المتحولين من الحماية والذمة متجاهلة بذلك أن المسألة ليست في حقيقتها مسألة اقتناع بمذهب ديني ، بقدر ما هي إنشاء جيوش احتياطية للغرب المعادي للأمبراطورية العثمانية الإسلامية التي تتهددها الدول الأوروبية

وتنتظر الفرصة السانحة للخلاص منها والاستيلاء على أقاليمها . وهكذا فقد صدرت فرمانات من السلطان تتخذ موقف المنع والتحريم .

ومن الفتاوى المشار إليها فتوى صادرة سنة ١٧٦٣ عن المفتي سليمان المنصوري الحنفي في رد على سؤال وجه إليه تضمن طلباً للرأي حول موضوع أولئك الذين تركوا طاعة مطارنتهم وبطريركهم، وتعدوا عليه وخالفوه ضد أمر مولانا السلطان واختلطوا بالإفرنج الحربيين ويدينوا في ديانتهم وصلوا في كنايسهم يريدون في ذلك مخالفة أمر مولانا السلطان والاستعلاء على المسلمين».

وكان جواب المفتي : « إن الكفر ملّة واحدة فإن تدين النصراني بما تدين به اليهودي أو تدين اليهودي بما تدين به النصراني أو ما تدين به الإفرنج فلا يكون ذلك ناقضاً بعهدهم »[٢٧] .

غير أن السلطان أكّد في فرمان صادر في شباط ١٨١٨ ، جاء نتيجة لاسترحام بطريرك الروم الأرثوذكس ، موقفاً مخالفاً للفتوى السابقة ، واعتبره موقفاً قديماً مستمراً يقضي بمنع تحول الأرثوذكس إلى كاثوليك «لأن التحول (يجري) إلى مذهب الإفرنج الذين هم أشد عداوة للإسلام » . وكان هذا الموقف حسبما أشار الفرمان ، قد صدر عن الجهات المسؤولة في القدس الشريف ويافا وعكا .

غير أن الدول الأوروبية المعنية والفاتيكان لم تكن لتقنع بتحول الروم الأرثوذكس إلى روم كاثوليك بل هي كانت تسعى بواسطة مرسليها إلى تحويل المسيحيين نهائياً عن الطقس الشرقي فلا يبقى له أثر وذلك لصالح الطقس الغربي اللاتيني . وقد أحس الكاثوليك أنفسهم بخطورة هذه الأمور وراحوا يستغيثون بالبابا ليضع حداً لنشاط المرسلين أو على الأقل ، ليحد من ضرره على كنائسهم الكاثوليكية الشرقية سواء كانت للروم أو للأرمن أو للسريان أو للموارنة ، كما أن الطوائف الكاثوليكية الشرقية كانت من جهة أخرى تطالب بالضغط على السلطة العثمانية لكي تتمكن من تحقيق سياساتها الخاصة لاسيما بعد أن تحولت السلطنة إلى رجل مريض مرضاً عضالاً مزمناً .

٢ ـ كسب بعض النافذين والحكام الى النصرانية :

تفاقم هذا الأمر بشكل خاص في بلاد الشام لا سيّما في جبل لبنان حيث تقيم الأقلية المارونية المحمية جغرافياً نتيجة صعوبة المسالك إلى مواطنها خصوصاً الخلفية منها ، والتي حظيت بالحماية الفرنسية منذ زمن مبكر كما رأينا .

وقد عمدت الكنيسة المارونية خاصة بالتنسيق مع بعض الأمراء والملوك الأوروبيين إلى توفير المستشارين للأمراء الاقطاعيين ومدّهم بالمقاتلين والقادة العسكريين الذين سوف تحميهم الامتيازات الأجنبية ، ثم هم أخذوا ، بالتنسيق مع الغرب أيضاً وبعد ترسيخ الامتيازات المذكورة بالتآمر على بعض أولئك الأمراء من أجل تنصيرهم ، كما أخذوا يوفرون الإغراءات من كل صنف لبعض العائلات الاقطاعية ذات النفوذ كي ترتد عن الإسلام .

وهكذا فقد كان « مدبِّر أمور » الأمير فخر الدين المعني الثاني مارونياً من آل الخازن وكذلك كان قائد جيشه خازنياً وكان الموارنة يشكلون عشرين ألف جندي من جيش الأمير . وكان أبو نوفل نادر الخازن ، وهو الذي عين نائباً لقنصل فرنسا ، مقاطعجياً من قبل الأمير ملحم المعني ووصياً على ابنه محمد . وكان غندور الخوري ، الذي عين هو الأخر قنصلاً لفرنسا في بيروت أميناً لسر الأمير يوسف الشهابي . وكذلك كان « كاخي » (مدبر أمور) الأمير بشير الشهابي الأول مسيحياً يدعى أبا ناصيف[٢٨] .

أما محاولات تنصير الأمراء فقد كان منها ما حصل مع الأمير فخر الدين المعني الثاني الذي قدّم الغرب له الدعم السياسي ضد الدولة العثمانية ثم أخذ يبتزه دينياً . فقد بدأ الغزل مع الأمير برسالة شكر من البابا بولس الخامس في ١٦ كانون الثاني ١٦٠٩ جاء فيها[٢٩] : « يفصح لك حامل الرسالة عن رغبتنا الشديدة في مناصرتك ضد الأتراك الظلمة أعداء الطرفين ، حتى إذا توسعت في تخليص هذه الأماكن من نيرهم القاسي عاد سكانها إلى الدين القويم(!!) .

ثم حاول بعض الموارنة أن يورطوا الأمير المعني في تحالف مع حكام الغرب ، فإذا ما قاموا بحرب صليبية ضد بلاد الشام يسلمهم بموجبه بيت المقدس ويتعهد بأن يمد لهم دائماً يد العون . فقد جاء في رسالة بعث بها

المطران جرجس بن مارون رئيس أساقفة نيقوسيا إلى البابا والى غراندوق توسكانا « إن سعادة أمير صيدا (فخر الدين) قد حمله حبه الشديد للديانة المسيحية وبغضه المغروس ضد الشيعة المحمدية على الرغبة في أن يتحد مع قداستكم وغراندوق توسكانا برباط غير منحل ، (وهو) يعد بالشروط المحررة أدناه :

١ ـ أن يمد الجيش المسيحي بالرجال والمؤن كل مرة ترسل قداستكم وسمو غراندوق توسكانا لأخذ قبرص وبيت المقدس .

٢ ـ

٣ ـ أن يملِّك العسكر المسيحي مدينة القدس ويمد لهم دائماً يد العون والمساعدة وقت مباشرة التعاهد والتسالم» .

ولكن موقف البابا وأوروبا كان الاعتذار كما أسلفنا .

ولما لم تجد الأساليب المختلفة في تنصير الأمير على ما يبدو ، وبعد اضطراره إلى اللجوء إلى توسكانا أخذ الغراندوق يبتزه محاولاً تنصيره بالإكراه المعنوي وحتى المادي .

هذا كما تناولت محاولات التنصير الأمراء الشهابيين واللمعيين وغيرهم فيما بعد . ويشرح الأب بطرس ضو على ذمته ، وبكل زهو ، تنصُّر الشهابيين فيقول : « إن النصرانية دخلت بيت شهاب سنة ١٧١٠ حيث تنصرت سحر الندى أرملة بشير الأول مع أولادها الثلاثة بتأثير الشيخ أبي ناصيف كاخي الأمير وعمّدها كاهن ماروني ، ثم تنصّر الأمير حيدر شهاب بطل عندارة سنة ١٧١١ ثم الأمير علي بن حيدر سنة ١٧٤٤ . ثم تنصر أولاد الأمير ملحم وهم حيدر وسيّد أحمد وقاسم سنة ١٧٥٤ وفي سنة ١٧٦١ تنصر قاسم بن عمر بن حيدر شهاب والد الأمير بشير الثاني ، ولكن تنصر هؤلاء بقي سرياً .

ويؤكد تنصّر بعض الأمراء الشهابيين سرّاً وثيقة عثر عليها في محفوظات الفاتيكان مكتوبة باللغة الايطالية نشرتها مجلة « أوراق لبنانية» جاء فيها[٣٠] : « إن الطائفة المارونية في جبل لبنان تعد سعيدة . . . لأن لها من يعنى لدرجة فائقة بأمورها الروحية ولأن حكامها المدنيين . . . هم الأمراء الموارنة أنفسهم . . والذي يكبر الجميع هو الأمير بشير الشريف . . رجل جد معتبر لصفاته النادرة

والنيات المرموقة التي يجب أن يكنها في نفسه كل حاكم كاثوليكي».

وعن أسباب سرية تنصّر الأمراء الشهابيين تقول الوثيقة: «كما كان يحيط بالأمراء من كل جهة أتراك ودروز وبدو ووثنيون (!) وعرب ومتاولة وهراطقة وسواهم من الشعوب غير المؤمنة، فلكي لا يتعرضوا لأذى، لخطر محتّم على حياتهم وفقدان الإمارة أو لكي يتحاشوا حوادث عاقبتها وخيمة، يمكن أن تصدر عن الأشرار، أقاموا لهم داخل قصورهم معابد خاصة حيث تقام بكل احتشام ووافر الاحترام الحفلات الكنسية المقدسة حسب طقسنا الماروني..[٣١]».

هذا وقد جاء في رسالة عن تنصُّر آل أبي اللمع، وهي مرفوعة من أحد الباشوات إلى المسؤولين «إنه موجود في الجبل طايفة أمرا يقال لهم بيت أبي اللمع. فهذه الطايفة في الزمن القديم كانوا دروزاً وتداخلوا في الطريقة العيسوية رويداً رويداً إلى أن صاروا جميعهم عيسويين..».

على أن التنصر لم يقتصر على من ذكرنا بل هو طال عائلات متعددة من مذاهب مختلفة كآل الحرفوش وآل الهاشم في العاقورة وبعض آل الحسيني وغيرهم.

٣ ـ اندساس فئات من أهل الكتاب في الإسلام لتقويضه من الداخل:

في المناطق الاسلامية التي تحتضن عاصمة السلطنة كان من الصعب تنصير الرعايا لأن عين السلطة الزمنية والدينية كانت ساهرة. ومن هنا فقد لجأ أعداء الإسلام إلى أسلوب مختلف، تمثل بتظاهر بعض أهل الذمة بالإسلام، وهذا ما قام به اليهود المقيمون في سالونيك الذين كانوا قد نزحوا من الأندلس مع المسلمين وأقاموا في كنفهم قرب عاصمة السلطنة. فقد ظهر في هذه الطائفة حاخام اسمه شبتاي صبي أخذ يسلك مسلكاً متميزاً عن مسلك سائر الحاخامات مدّعياً أنه المسيح المخلص الذي مازال اليهود ينتظرونه، ولما ضيّقت عليه السلطة العثمانية تظاهر باعتناق الإسلام وأخذ أتباعه يتظاهرون أيضاً باعتناق الإسلام وذلك بدءاً من الثلث الأخير من القرن السابع عشر، وتكونت من هؤلاء فرقة «الدونمة» التي أخذت تمارس شعائر الإسلام في العلن بينما تمارس في

السر الشعائر اليهودية كما حوّرها شبتاي صبي نفسه . ولم يكن هذا السلوك اليهودي جديداً ، فقد لجأ اليهود الأندلسيون، أجداد الدونما وأنسباؤهم الذين سموا بالمرانوس الى سلوك مشابه عندما أجبروا على اعتناق المسيحية منذ القرن الرابع عشر ، فكانوا يمارسون الطقوس المسيحية ظاهراً بينما يمارسون في السر الطقوس اليهودية . وفي سنة ١٩٢٤ أجبر الدونما وغيرهم من الرعايا الأتراك على ترك سالونيك فاستقر أكثرهم في اسطنبول.

وقد كان لفرقة الدونما كما ورد بقلم الدكتور جعفر هادي حسن[٣٢] ، ومنذ أن كانوا في سالونيك ، دور بارز في الحياة السياسية والاقتصادية لتركيا الحديثة . وأهم ما مارسوه مشاركتهم الفعالة في جمعية «الاتحاد والترقي» التي قادت الانقلاب على السلطان عبد الحميد الثاني في بداية هذا القرن . وقد ورد في احدى الوثائق البريطانية[٣٣] ، أن عنصر التخطيط الرئيسي لجمعية الاتحاد والترقي في سالونيك كان يهودياً ، وأن أعضاء الجمعية القادة كانوا ماسونيين ، وقد زود اليهود الحركة بالأموال مما سهل لهم السيطرة عليها.

هذا ولم يكن مصطفى كمال (أتاتورك) نفسه بعيداً عن الدونمة ، لا بل إن بعض المصادر تعتبره منهم . فقد ورد في دائرة المعارف اليهودية أن الكثيرين من يهود سالونيك أكدوا أن كمال أتاتورك كان أصله من الدونمة .

٤ ـ إقامة جاليات أجنبية وتقوية الأقليات في بعض المناطق الإسلامية :

هذه الخطة هي التي رسمها البروتستانت تحقيقاً لأحلام اليهود التوراتية والتلمودية في الاستيلاء على فلسطين وإقامة دولتهم فيها . فقد تلاقت مصالح اليهود الدينية مع المصالح الإنكليزية الدينية والاقتصادية والاستراتيجية على هذا الصعيد فاهتمت الحكومة الإنكليزية بمسألة هجرة اليهود إلى فلسطين وتعاطف معها بعض المسؤولين الألمان.

أما المصلحة الدينية للبروتستانت فكانت تتمثل بنقل اليهود إلى فلسطين وممارسة التبشير بين ظهرانيهم هناك كي يهتدوا إلى المسيحية فتجد البروتستانتية رافداً لها في الأرض المقدسة التي سيكون احتلال اليهود لها الوسيلة الوحيدة لحل

المسألة الشرقية التي بلغت مرحلة شديدة التعقيد مع احتلال قوات محمد علي باشا بقيادة ابنه إبراهيم لسوريا.

وبقدر ما كان إبراهيم باشا ليبرالياً تجاه الأقليات الدينية ـ بتأثير الفرنسيين ـ بقدر ما خلقت هزيمته قلقاً لدى الأوساط الأوروبية التي ساندت الباب العالي من كون السلطنة ليست على استعداد لانتهاج نفس السياسة.

ومن جهة أخرى فإن هجرة اليهود إلى فلسطين سواء اهتدوا إلى البروتستانتية أم لا فإنها ستحل المشاكل المتعلقة بهم في أوروبا نفسها.

وأما المصلحة الاقتصادية فإنها في شقها المباشر كانت تتمثل بكون اليهود الذين يملكون الرساميل الضخمة سوف ينشّطون الحركة الإقتصادية في هذه البلاد التي ستوفر للدولة الإستعمارية التي ستسيطر عليها سوقاً جيدة لبضائعها ومصدراً للمنتجات الزراعية الضرورية لها.

وأما على الصعيد الاقتصادي غير المباشر وكذلك على الصعيد الاستراتيجي فإن فلسطين تشكل محطة هامة على طريق الهند توفر السيطرة عليها لبريطانيا تأمين خطوط تجارتها . إضافة إلى أن السيطرة عليها تقطع أوصال العالم الإسلامي والعربي وتمنع توحد أياً منهما.

وإذا كانت أفكار الإنكليز ومخططاتهم ، وكذلك أحلام اليهود قد اصطدمت بموقف السلطان العثماني الرافض ، فإنها ستؤتي في القرن العشرين ثمارها كما هو معروف(٣٤).

٥ ـ الحقوق المكتسبة أو الامتيازات وتطور وظيفتها :

منحت السلطات العثمانية لرعايا بعض الدول الأوروبية تباعاً وأخيراً لرعايا الولايات المتحدة الأميركية امتيازات بقصد تشجيع العلاقات التجارية معها ، من مثل السماح لهؤلاء الرعايا بعدم الخضوع للقانون المحلي في بعض الحالات وتطبيق قانونهم الوطني عليهم بواسطة قناصلهم ، والسماح لسفنهم بالتنقل بين موانىء الدولة العثمانية ، وكذلك تخفيض الرسوم الجمركية على بضائعهم.

وكانت الإمتيازات قد بدأت مع الحروب الصليبية في الإتفاقية التي عقدها

سلطان مصر المملوكي مع لويس التاسع ملك فرنسا سنة ١٢٥١ . ثم سار الأتراك العثمانيون على النهج نفسه فمنحوا امتيازات للفرنسيين سنة ١٥٢٨ بموجب اتفاقية مع الملك فرانسوا الأول ثم للإنكليز (١٥٨٠ ـ ١٥٨٣) ثم للهولنديين سنة ١٦١٣ ، فالروس سنة ١٧١٧ فالنمساويين سنة ١٧١٨ فالبروسيين سنة ١٧٤٠ ، ولم ينته القرن الثامن عشر حتى كانت كل البلدان الأوروبية تقريباً تنعم بالإمتيازات التي حصلت عليها الولايات المتحدة الأميركية بدورها سنة ١٨١٨[٣٥].

وقد قضت تلك الإمتيازات بالإعفاء من الخضوع للقوانين المحلية وبتحديد للتعرفة الجمركية بـ٢٪ على قيمة البضائع المستوردة إلى الموانىء العثمانية ، إلا أنها لم تكتفِ بكل ذلك بل هي منحت فرنسا حق حماية الأماكن المسيحية المقدسة وخاصة في فلسطين.

وعندما أخذ الضعف يدبّ في أوصال الدولة العثمانية ، بدأت الدول الأوروبية تبتزها وتدمّر اقتصادها من طريق إغراق أسواقها بالبضائع التي لا تقوى المنتجات المحلية على منافستها في أسواق السلطنة نفسها ، فيما تتشبث الدول الغربية بالتعرفة الجمركية المخفضة التي لم تتمكن الدولة العثمانية من رفعها إلا ببطء شديد وبعد أن ساعدها تراكم الديون التي أخذ إيفاؤها يصبح متعذراً أكثر فأكثر يوماً بعد يوم مما جعل الدائنين يتسامحون ولو بصعوبة في رفع تلك التعرفة.

ولم تفتح الإمتيازات الباب أمام التدخل الأجنبي في اقتصاد وسياسة السلطنة الشائخة وحسب، بل هي أيضاً مكّنت قناصل الدول الأوروبية من منح حمايتهم لرعايا السلطنة من غير المسلمين ، بحيث يستفيدون من الإمتيازات كما يستفيد رعايا الدول التي يمثلها أولئك القناصل . ففرنسا تحمي الكاثوليك (بمن فيهم الموارنة) وبريطانيا البروتستانت ومن ثم الدروز أيضاً وروسيا الأرثوذكس وهكذا . . .

٦ ـ نشر الفكر السياسي الغربي على أنقاض الفكر الإسلامي :

لم تكن الوسائل السابقة كافية للقضاء على الإسلام ، فقد أثبتت التجربة أن تأثيراتها على الصعيد الديني كانت محصورة ، لذلك وجد أرباب الإستعمار

ورثة الصليبية أو الصليبيون الجدد أن الوقت حان للهجوم على الإسلام ، ولكنهم كانوا قد تعلموا أن الهجوم المباشر سيستفز المسلمين كافة ضدهم ، الأمر الذي يحبط مخططاتهم ، لذلك فهم ركّزوا هجومهم على الجانب الفكري السياسي منه ، مقدمين المثال بما حصل بالنسبة إلى المسيحية السياسية في الغرب الذي تبنى بشكل عام مبدأ فصل الكنيسة عن الدولة ، وبهذا حقق الصليبيون الجدد انتصارات كبيرة الأهمية.

لقد قام الفكر الغربي الحديث على أساس لاديني وطرح الديمقراطية كفلسفة للحكم وأرسى ضمانات للأفراد تمثلت في ما سمي حقوق الإنسان.

ولكن هذا لا يعني أن الدين ألغي دوره في العملية السياسية ، وذلك أنه ما زال يشكل على الأقل في جانبه الثقافي التربة التي نمت فيها المفاهيم السياسية الحديثة وهذا ما يؤكده المفكرون الغربيون الذين ما زالوا ينعتون حضارتهم باليهودية ـ المسيحية (Judeo - Chretienne) ، حتى اليوم . كما أنه شكل ، على صعيد التوسع الخارجي سلاحاً هاماً ، إذ أن جهود المبشرين كانت تتضافر مع جهود التجار والعسكريين من أجل السيطرة على البلدان المتخلفة والضعيفة ، وقد استخدم الغرب هذا السلاح على نطاق واسع داخل الدولة العثمانية كما عرفنا ثم واصله في أجزائها التي تناثرت وفي سائر البلدان الإسلامية أيضاً.

ولكن الفكر الديني التبشيري لم يكن يطرح بشكل يجعله متعارضاً مع الفكر العلماني الذي غزا المناطق الإسلامية ، ولم يكن ليلفت النخب «المثقفة» الإسلامية التي انسحقت أمام الفكر الغربي الذي تقف وراءه تلك القوة العسكرية والاقتصادية فلم تتوقف عند كون دعاة هذا الفكر الغربيين لا يتورعون عن استخدام الدين المسيحي لأغراضهم. وبعد أن أرسى الإستعمار الأساس الفكري لمشاريعه عمد مستغلاً هذا الفكر وتأييد بعض الذين أنشأهم عليه من أبناء البلاد إلى فرض ما عرف «بالإصلاحات» ، التي وضعت لصالح الملل غير الإسلامية ، تلك الملل التي لم يكن الغرب في الحقيقة يحرص على حريتها الدينية بل على حرية حركتها تنفيذاً لمشاريعه.

لقد بدأت الإصلاحات أو «التنظيمات» بعد ضغوط متزايدة مارستها الدول الاستعمارية الكبرى ضد السلطنة التي بدأت طريق الإنحدار والإنحلال.

فدشّنت بالخط الهمايوني الصادر في كالخانة في ٣ تشرين الثاني سنة ١٨٣٩ . وكان أهم ما احتواه إقامة المساواة بين كل رعايا السلطنة ، بحيث أصبحوا جميعاً يخضعون للخدمة العسكرية (علماً بأن الطوائف غير الإسلامية منها ما كانت محمية لفرنسا أو لبريطانيا أو لروسيا ألخ . . .) كما أصبحت الضرائب موحدة وعامة وشاملة .

ولما لم يطمئن الغرب لتنفيذ هذه التنظيمات فقد فرضت معاهدة باريس سنة ١٨٥٦ على الدولة العثمانية أن تؤكدها وتوسعها ، فصدر الخط الهمايوني في ١٨ شباط سنة ١٨٥٦ الذي أكدّ ما جاء في خط كالهانة لسنة ١٨٣٩ الذي كان من جملة ما أقره ، ضمانات للطوائف غير الإسلامية بالتمتع بحصاناتها التقليدية ، وبإدارة أملاكها وبممارسة حرية إقامة الشعائر الدينية علناً وكذلك تعيين الكنسيين وتحديد رواتبهم .

كما قضى الخط الهمايوني بأن يصبح جميع رعايا السلطنة لأية ديانة انتموا قادرين على تولي الوظائف العامة كما يقبلون في مدارس الدولة المدنية والعسكرية .

هذا وقد أخذت تصدر القوانين المتأثرة جداً بالشرائع الغربية ، كالمجموعة التجارية سنة ١٨٥٠ وقوانين الأرض سنة ١٨٥٨ ، والتي قضت في بعض أحكامها بتوزيع المواريث خلافاً للشريعة الإسلامية ، وكذلك قانون التجارة البحرية سنتي ١٨٦٣ - ١٨٦٤ .

وأخيراً بدأت منذ ١٨٧٠ تصدر المجموعة المدنية تحت اسم « مجلة الأحكام العدلية » التي اعتمدت المذهب الحنفي ولكنها في مواجهة المسائل العصرية عبّت من قوانين نابليون حتى الإشباع .

أما في المجال القضائي فقد أقيم نظام قضائي جديد إلى جانب القضاء الشرعي لتطبيق القوانين الجديدة . أما القضايا التي يمثل فيها مسلمون مع غير مسلمين فقد أصبحت من صلاحيات المحاكم المختلطة . وهكذا أصبحت الأنظمة القضائية متشابكة من أصلية وهجينة مما شكل فوضى لا مثيل لها في التاريخ .

وحتى يستكمل الاستعماريون إجهازهم على الفكر السياسي الإسلامي

واستبداله بالأفكار الغربية الحديثة وجّهوا ضربتهم إلى مؤسسة الخلافة الإسلامية ، فقد أنهيت تلك المؤسسة في عاصمة دولتها كما كان قطع الطريق على قيام خلافة جديدة في الحجاز . فقد ورد في مذكرات الملك عبد الله ابن الشريف حسين أن السير هنري ماكماهون وعد الشريف بأن « بريطانيا ترحّب بالخلافة إن هي عادت إلى الدوحة الهاشمية مرة أخرى » . فبويع الشريف بالخلافة يوم الإثنين أول محرم سنة ١٣٣٥ هـ إلا أن المسألة طويت بسرعة بسبب استنكار الحكومة الإنكليزية وحلفائها لها[٣٦] .

أما الروّاد في مجال التبشير الفكري السياسي لصالح الغرب من رعايا الدولة العثمانية فقد كانوا أساساً من غير المسلمين وذلك بعد أن كلّف بعضهم بالقيام بهذه المهمة وتطوّع البعض الآخر تطوعاً ، فلعبوا دورهم على صعيد نقل الفلسفة السياسية والترويج لها من جهة وعلى صعيد تفتيت الجبهة الإسلامية ثم الأرض العربية فيما بعد من جهة أخرى.

فعلى الصعيد الأول أسس مسيحيون من بلاد الشام الصحف بأموال أجنبية ووطنية من أجل الدعوة للفكر الغربي وذلك في باريس وفي مصر ووصلت نشاطاتهم إلى المغرب العربي وحتى إلى بعض البلدان الإسلامية غير العربية وراحوا يدعون إلى أفكار «الديمقراطية» و «الحرية» في نفس الوقت الذي كانوا يطالبون فيه الغرب باحتلال أقطارهم .

وأخذ الكتاب المسيحيون الشاميون في مصر خاصة ، مثل ندره المطران وجورج سمنة وفارس نمر وشكري غانم وغيرهم بمحاولات حثيثة لإقناع العرب بضرورة التدخل الأجنبي وخاصة الفرنسي من أجل «ترقية الأمة بالعلوم والمعارف » مطمئنين المتخوفين بأن لا خطر من الإحتلال خصوصاً « إذا حاسنّا المحتلين واستعنّا بهم على إصلاح أحوالنا واكتسبنا ثقتهم » . ويتحمس فارس نمر في مجلة « المقتطف » لهذا الأمر فيعلن « أنا احتلالي على رؤوس الأشهاد »[٣٧].

كما أخذ الأقباط المصريون يطالبون أيضاً بمثل تلك المطالب وكانوا الأداة الطيِّعة في أيدي الانكليز والمروجين لاحتلالهم وذلك في صحفهم «الوطن» «مصر» وغيرهما . وكانوا أحياناً لا يكتفون بما يؤمِّن لهم الانكليز فيهددون

« بالالتجاء الى دولة قوية تكون عضداً لهم في المستقبل » أو «بالالتجاء الى عموم الدول الأوروبية» وقد وقفوا في وجه التعليم العمومي (الرسمي) لأن من شأنه «إيغار صدور العامة ضد الحكم الملكي وضد المحتلين وضد النصارى»[٣٨].

أما على الصعيد الثاني فقد نفّذ المسيحيون المرتبطون بالغرب بالتعاون مع الدوائر الاستعمارية استراتيجية بعيدة المدى وعلى مراحل تركزت في سوريا نظراً لأهمية موقعها . فهم في البداية طالبوا بانسلاخ الأقطار العربية عن الدولة العثمانية ، ولما اقترب موعد تنفيذ هذا الهدف تبين أن ما يقصدون بالعرب هو المشرق العربي وحده . ثم هم عمدوا إلى رفض قيادة الأمير فيصل بن الحسين سلفاً ، ولما احتلت الجيوش الأجنبية البلاد إذا بهم يطالبون بسلخ وطن لهم من جسم سوريا ليسمى « لبنان الكبير » يضعونه في خدمة الغرب كرأس جسر للتدخل في شؤون المشرق العربي .

في هذه الفترة التي حم فيها التدخل الغربي ضد بلاد الإسلام والعرب ، وبعد توطد المصالح الاستعمارية في الهند وبروز ضرورة حماية الطريق البحرية اليها برزت الوهابية كحركة إسلامية ثورية فما كانت أهدافها وما كانت الدوافع وراء قيامها؟ .

هذا ما سنعالجه في الفقرة التالية .

رابعاً : ظهور الوهابية

نشأت الوهابية في أواسط القرن الثامن عشر الميلادي ، الثاني عشر الهجري في بلاد نجد التي ذمها الرسول وتوقع ظهور الفتن منها[٣٩] . وكان مؤسس الحركة محمد بن عبد الوهاب ، وكانت حركة ثورية هاجمت المفاهيم السائدة في العالم الإسلامي وشنت حرباً لا هوادة فيها على مسلمي المناطق المجاورة على أساس أنهم مشركون تحلّ دماؤهم وأموالهم.

فما هي المقدمات التي سبقت اعلان الحركة الجديدة ؟

كان الإسلام في أدنى درجة من التقهقر الفكري في معظم المناطق بعد قفل

باب الاجتهاد لدى فريق واسع من المسلمين ، فساد التقليد في بلاد واسعة وتوقف الفكر عن الانتاج الفعلي مكتفياً بشرح كتابات السلف والتعليق عليها.

وكانت بوادر التحرك الاستعماري بعد اكتشاف أميركا تكديس الثروات في أوروبا نتيجة لذلك ، وبعد اكتشاف طريق الهند البحري الذي يدور حول رأس الرجاء الصالح على أيدي البرتغاليين الذين نافسهم الانكليز في ما بعد وتغلبوا عليهم.

ومن أجل تأمين تلك الطريق ، وتمهيداً للتغلغل الصليبي الجديد في البلاد الإسلامية ، نشط الأسطول البريطاني وكذلك عملاء المخابرات في خطين متوازيين ، الأول في البحر لضرب من سموا بالقراصنة وإقامة القواعد في المناطق الاستراتيجية لحماية طرق ملاحته ، والآخر من أجل استكشاف امكانيات القيام بمحاولات للسيطرة على البلدان المحاذية للمحيط الهندي من أجل تحقيق الأهداف التي عجزت عنها الحروب الصليبية.

في هذا الجو ولد محمد بن عبد الوهاب وترعرع في « العيينة » من أعمال نجد ، ودرس الفقه على المذهب الحنبلي على أبيه الشيخ عبد الوهاب بن سليمان بن محمد. وكان منذ صغره يفوه بكلمات لا يعرفها المسلمون وينكر عليهم أكثر الذي اتفقوا على فعله ، الأمر الذي جعل أباه وأخاه الشيخ سليمان يتفرّسان فيه الإلحاد فأخذا ينهيانه عن ذلك ، ولكن دون جدوى.

ثم انتقل محمد إلى مكة فإلى المدينة حيث أخذ عن الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف وكذلك عن الشيخين محمد بن سليمان الكردي ومحمد حياة السندي ، وكان يشدد النكير على الاستغاثة بالنبي عند قبره الشريف(٤٠). وكان أساتذته ولا سيما الكردي والسندي يقولون : « سيضل الله تعالى هذا ويضل به من أشقاه من عباده»(٤١).

ثم انتقل محمد بن عبد الوهاب الى البصرة فدرس على الشيخ محمد المجموعي ، وكان ينكر على الناس الكثير مما يمارسونه من الشعائر الدينية.

وأخيراً عاد إلى الاحساء فإلى حريملاء حيث كان أبوه انتقل إليها سنة

١١٣٩هـ ، فأعلن دعوته سنة ١٧٤٩م/١١٥٢هـ ، فلاقت معارضة شديدة وجرّت عليه محاولات القتل.

فر الشيخ من حريملاء الى العيينة مسقط رأسه حيث استقبله حاكمها عثمان ابن معمر. ولكن عثمان هذا كان خاضعاً لحكام الاحساء من الخوالد، فضغط عليه الحاكم سليمان بن محمد الخالدي ، ليتخلص من ابن عبد الوهاب فلم يستطع المواجهة بالرفض ، لأنه إنما كان يريد بمناصرته « الشيخ » أن يتغلب عقائدياً على الزعماء الآخرين لا أن يقاتل من أجل دعوة جديدة من لا طاقة له بحربهم . فطلب عثمان من ابن عبد الوهاب مغادرة العيينة ، فغادرها الى الدرعية وقيل إن مرافقيه كانوا تلقوا الأمر بقتله ولكنهم عزفوا عن ذلك لأمر ما.

واستقر الشيخ في الدرعية حيث عقد اتفاقاً مع أميرها محمد بن سعود ، على أن يتولى ابن عبد الوهاب الدعوة الى الفكرة الجديدة ويقود ابن سعود القتال والحكم على أساسها.

ومن الدرعية استؤنفت الدعوة فعلاً ، وأخذت في الانتشار بواسطة حروب لم تهدأ حتى الثلث الأول من القرن العشرين، وقد مرّت بمنعطفات ومتعرجات كثيرة في طريقها الطويل ، من نصر الى هزيمة فإلى نصر فإلى هزيمة فإلى نصر ، ومن توسع الى ضمور فإلى توسع ، ومن تعاون مع الانكليز الى عودة الى العثمانيين الى تعاون مع الانكليز فإلى تحالف مع الأميركان.

وبعد كل هذا ، فلنا أن نسأل : هل كانت الوهابية في معزل عن نشاط الانكليز الذين كانوا أسياد البحار من حول الجزيرة العربية ، في الوقت الذي كانت فيه جهود المستعمرين الصليبيين الجدد حثيثة في كل أصقاع العالم الإسلامي كما رأينا في الفصل السابق ؟.

على هذا السؤال ، ربما كانت الاجابة في كراس يحمل عنوان « مذكرات المستر همفر » الذي يدعي كاتبها أنه ساهم في تكوين فكر ابن عبد الوهاب ، وأن وزارة المستعمرات البريطانية وضعت له الخطط وسهلت له سبيل الدعوة وساهمت في حمايته من المؤامرات والمكائد وأفشلت محاولات لقتله ، كل ذلك على طريق القضاء على مقاومة الإسلام للدخول الصليبي الجديد الى بلادهم.

يقول المستر همفر إنه بعد أن أعد للعمل في السلطنة العثمانية كعميل للمخابرات ، وبعد أن أصبح على شيء من الإلمام باللغتين العربية والتركية والقرآن ، أوفد للخدمة في البصرة ، فالتقى فيها محمد بن عبد الوهاب ، بعد أن كان انتحل اسم محمد .

ونحن لا نستغرب أن لا يكون لون بشرته قد دل على أنه من غير رعايا السلطنة ، لأن السلطنة نفسها كانت تضم شعوباً أوروبية ذات بشرة بيضاء كبشرته . كما لا نستغرب أن لا يكون قد اكتشف أمره بسبب لكنته لأن شعوب السلطنة المختلفة اللغات واللهجات كان فيها من يتعلم لغات غير لغته ويتلفظ بها بالضرورة بلكنة غربية . .

وقد توطدت العلاقة بين العميل البريطاني والشيخ بعدما لمس الأول حالة القلق التي كان يعيشها ابن عبد الوهاب المتطلع الى دور يلعبه والجرأة التي كان يبديها تجاه العقائد الاسلامية الثابتة الموروثة ، فأخذ يغذي فيه مطامحه ويشجعه على إعادة النظر في الفكر الإسلامي وفي تقييم السلف الصالح ويقنعه بضرورة التخلص من كل ما يمت الى ماضي الاسلام بصلة من رموز كالقباب والقبور ، بما فيها قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكذلك بضرورة هدم الكعبة نفسها[٤٢] على أساس أنها من المظاهر الوثنية .

وكي يتمكن «محمد» البريطاني من السيطرة الدائمة على الشيخ راح يورطه في الفضائح ، فأقنعه بحلية شرب الخمر إذا مزج بالماء ، كما استطاع اقناعه بالاستعاضة عن الصلاة بالذكر ، بعد أن كان أقنعه بحلية المتعة وسهل له نكاح فتاة مسيحية في البصرة من عميلات وزارة المستعمرات على أساس أنها مسلمة[٤٣] .

وتطويقاً للشيخ أقنعه عندما عزم السفر الى الآستانة بأن يصرف النظر عن هذه الرحلة تحت حجة أنه سيتعرض بسبب أفكاره الى العقوبات ، علماً بأن السبب كان عدم السماح له بالإطلاع الكافي الذي يمكن أن يدفعه إلى تغيير مواقفه .

ومن أجل تثبيت «الشيخ» على أفكاره ونهجه لفق له «محمد» رؤيا ادعى أنه

شاهد فيها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وقد باركه وشجعه[٤٤].

وهكذا تكاملت أسباب السيطرة على ابن عبد الوهاب ، استعداد شخصي ودهاء بريطاني . ويصف مستر همفر ذلك بقوله : « لقد وجدت في محمد الوهاب ضالتي المنشودة »[٤٥] فقد كان يقلد نفسه في فهم القرآن والسنة ويضرب بآراء المشايخ وكذلك الأئمة الأربعة وحتى بآراء الخلفاء الأربعة عرض الحائط[٤٦] ، وكان يزدري أبا حنيفة أيما ازدراء «ويقول إن نصف كتاب البخاري باطل».

لم تترك وزارة المستعمرات الشيخ في عهدة همفر وحده بل هي كلفت آخرين بـ«رعايته». وبعد مصارحة عملاء المخابرات لضحيتهم تعهدوا له بحمايته من الحكومات وعلماء الدين وبتزويده بالمال الكافي والسلاح إذا اقتضى الأمر وبإقامة إمارة صغيرة له في أطراف بلاد نجد[٤٧].

وقد وضعت وزارة المستعمرات خطة للشيخ كي ينفذها محتوية الأهداف التالية[٤٨] :

١ ـ تكفير جميع المسلمين وإباحة قتلهم وسلب أموالهم وهتك أعراضهم وبيعهم في أسواق النخاسة وحلية جعلهم عبيداً وإماء .

٢ ـ هدم الكعبة « باسم أنها وثنية » ومنع الناس من الحج وإغراء القبائل بسلب الحجاج وقتلهم ، ولكن الشيخ استبعد القدرة على هدم الكعبة حتى عند الاستيلاء عليها خوفاً من ردة فعل عارمة من قبل المسلمين.

٣ ـ السعي لخلع طاعة الخليفة والإغراء بمحاربته وتجهيز الجيوش لذلك وكذلك محاربة أشراف الحجاز بكل الوسائل الممكنة «والتقليل من نفوذهم».

٤ ـ هدم القباب والأضرحة والأماكن المقدسة عند المسلمين في مكة والمدينة وسائر البلاد التي يمكن ذلك فيها « باسم أنها وثنية وشرك » والاستهانة بشخصية النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وخلفائه ورجال الإسلام بما تيسر.

٥ ـ نشر الفوضى والإرهاب في البلاد و «حسب ما يمكن ذلك» .

٦ ـ نشر قرآن فيه التعديل الذي ثبت في الأحاديث من زيادة أو نقصان (!)

وهذا أمر لم يتجرأ ابن عبد الوهاب على اعلانه .

ولما عاد ابن عبد الوهاب الى نجد عملت المخابرات البريطانية على حمايته وأفشلت خطط اغتياله عن طريق إحاطته بأحد عشر ضابطاً من عملائها وفدوا إليه متظاهرين بأنهم أرقاء اشتروا من أسواق النخاسة .

وبعد إيراد هذه المعلومات التي لنا أن نتحفظ عليها مؤقتاً ، كما قد يتحفظ أي باحث ، نظراً الى أن كتاب المذكرات يمكن أن يكون ملفقاً مثلاً ، سنحاول تلمس ما إذا كان التاريخ الوهابي سيحمل تصديقاً أو تكذيباً .

ونحن فيما يلي سنتناول الوهابية فكراً وتاريخاً سياسياً كما سنتطرق الى الممارسات الأخلاقية للحاكمين باسمها وذلك في أربعة فصول :



هوامش الفصل التمهيدي

(١) راجع بشأن هذا القسم المؤلفات التقليدية في التاريخ الإسلامي .

(٢) محمد بن محمود النجار « الدرة الثمينة في تاريخ المدينة » القاهرة ١٩٥٦ ص ٢٢٧ وما بعدها .

(٣) كلمة רענן العبرية (رعنن) تعني متعش ممتلىء نشاطاً والرعونة بالعربية تعني كثرة الحركة .

(٤) البلاذري ، فتوح البلدان ، نشرة المنجد القاهرة ١٩٥٧ قسم ١ ، ص ١٥٠ .

(٥) الزركلي ، الأعلام ، مادة ميسون . فيليب حتي « تاريخ لبنان» دار الثقافة ط ٣ ـ ١٩٧٨ ص ٣١٣ .

(٦) جورجي زيدان «تاريخ التمدن الاسلامي» ج ٤ ص ٧٧ .

(٧) Lammens, «La Syrie» P 131-132.

(٨) «أمير الاستيلاء» هو الذي يغتصب الامارة ثم يضطر الخليفة مرغماً أن يعترف به .

(٩) R. Grousset, «Histoire des croisades» T.2 Paris 1935 P 65 et suiv.

(١٠) بطرس ضو ، تاريخ الموارنة ، ج ٣ ص ٤٥٧ .

(١١) ويستلهوبر ، « تقاليد فرنسا في لبنان » ص ٤٨ و ٧٣ .

(١٢) الحريري ، «تاريخ الحروب الصليبية» وسائر المؤلفات المهتمة بهذه الحروب

(١٣) .R. Grousset, Op. Cit.

(١٤) Op. Cit P 285.

(١٥) أخبار الأعيان ص ٢٠٦ .

(١٦) صالح بن علي ، تاريخ بيروت ، تحقيق هورس وصليبي ، بيروت ١٩٦٨ ص ٢٧ ـ ٢٩ .

(١٧) Memoires de la Société Nationale des antiquaires de France. 5 série T.8.Paris. 1887 PP 23-30, 813.

(١٨) الدويهي ، الشرح المختصر في أصل الموارنة ، نشر الأباتي فهد ، جونيه ١٩٧٤ ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٤٤١ .

(١٩) ضو مذكور سابقاً ج ٣ ص ٥٥

(٢٠) الخوري بطرس غالب « صديقة ومحامية» بيروت ١٩٢٤ ص ٢٢٢ و ٢٢٣ .

(٢١) ترجمة عن:

J.C. Hurwitz, Diplomacy in the Near and Middle East, London March 1958 Vol 1P 241.

(٢٢) A. Rabbath, Documents inédits pour servir à l'histoire du christianisme en Orient T.2 P.616.

(٢٣) عيسى اسكندر المعلوف ، تاريخ الأمير فخر الدين ص ٢٨٠ .

(٢٤) بولس قرألي ، الأمير بشير ، بيت شباب ١٩٣٢ ج ٢ ص ٣٥٠ ـ ٣٥٣ .

(٢٥) نفس المصدر ص ٢٧١ ، ٢٧٢ .

(٢٦) جوزف حجار ، « أوروبا ومصير الشرق العربي » المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٦ ص ٢٢٧ وما بعدها .

(٢٧) حيدر الشهابي ، لبنان في عهد الأمراء الشهابيين ، بيروت القسم الأول ص ٥٧ ـ ٥٩ .

(٢٨) ضو ، مذكور سابقاً ج٢ ص ٢٥٤ .

(٢٩) قرأ لي ، الأمير فخر الدين المعني الثاني ودولة توسكانا ، ج ٢ ص ١٧٤ و ١٧٥ .

(٣٠) نفس المصدر ص ٥٦٦ ـ ٥٦٨ .

(٣١) ضو ، مذكور سابقاً ج ٢ ص ٣٦٠ .

(٣٢) فرقة الدونمة بين اليهودية والإسلام ، مؤسسة الفجر ، بيروت ط٣ ـ ١٩٨٨ .

(٣٣) نفس المرجع ص ١٣٤ .

(٣٤) جوزف حجار مذكور سابقاً .

(٣٥) ستوكويل دويك ، تركيا والمضائق ، التاريخ الموجز ، نيويورك ماكميلان ١٩٤٠ ص ١٢ و١٣ .

(٣٦) مذكرات الملك عبد الله ص ١٢٥ .

(٣٧) راجع «المقتطف» مجلد ٣٦ ص ٢٦٠ وما بعدها .

(٣٨) راجع اعداد صحيفتي : « مصر » و «الوطن » خصوصاً آذار ١٩١٠ .

(٣٩) «اذ نعتها بأن الفتنة فيها ومنها يخرج قرن الشيطان ، راجع الصحاح ومنها الترمذي ، السنن ، مناقب ص ٧٤ ، مسلم ، صحيح ج ٨ ص ١٨٠ ـ ١٨١ .

(٤٠) نقلاً عن الألوسي ، مرتضى الرضوي ، صفحة عن آل سعود الوهابيين ، ص ١٦ .

(٤١) عن الفجر الصادق طبعة مصر عام ١٣٢٣ ص ١٦ نقله مرتضى الرضوي نفس المرجع .

(٤٢) مستر همفر ، المذكرات ، نقله الى العربية الدكتور ج. ح ـ ١٩٧٣ ص ١٧ ـ ١٩ .

(٤٣) نفس المرجع ص ٣٦ .

(٤٤) نفس المرجع ص ٤٤ .

(٤٥) نفس المرجع ص ٣٤ .

(٤٦) نفس المرجع ص ٣٢ ، ٣٤ .

(٤٧) نفس المرجع ص ٨٠ .

(٤٨) نفس المرجع ص ٨٤ .

الفصل الأول

الفكر الديني الوهابي

ينتمي الوهابيون أساساً إلى المذهب الحنبلي ، ولكنهم يختلفون عن سائر الحنابلة وسائر المسلمين في أمور خاصة بهم ، سمحوا لأنفسهم على أساسها أن يكفِّروا المسلمين ويشرّكوهم ويستحلوا دماءهم وأموالهم وذراريهم.

ولعل ما يلفت النظر مبدئياً ، تلك النظرة الجزئية الإنتقائية لآيات القرآن وللسنة النبوية ، التي تضرب عرض الحائط بكل ما يخالفها ، فهي تختار الآيات وتعطيها معاني خاصة لا يلبث أن يظهر اضطرابها عندما تصطدم بمعاني الآيات الأخرى ، كما أنهم يختارون بعض الأحاديث ويفسرونها بمعزل عن القرآن الكريم أوعن غيرها من الأحاديث . ومن أجل قطع الطريق على إمكانية مناقشتهم في هذا المجال فهم يلجأون إلى أسلوب التهويل فيستخدمون تعبير «اجمع العلماء» وينفون مخالفة أحد لما ذهبوا إليه ، وعند الاضطرار الشديد يرمون رواة الأحاديث التي تخالف ما يدلون به بالوضع والضعف والكذب.

كما أنهم يعلنون عدم اعتدادهم بما ساد ودرج بعد المئة الثالثة من التاريخ الإسلامي معتبرين أن هذا الذي درج وساد بِدَعٌ مذمومة يجب القضاء عليها . ولكن هذا الذي يعتبرونه بدعاً ويكفرون بموجبه ويشركون المسلمين ، لا يلبث أن ينكشف أنه كان استمراراً لسنن كانت قائمة إبان القرون الثلاثة التي لا يعترفون إلا بما كان يجري فيها.

ومن هنا تبين أن مؤسسي الحركة ، كأنهم وضعوا لأنفسهم غايات محددة يعملون على تحقيقها بكل الوسائل ، فيسخّرون آي القرآن والأحاديث وسائر مصادر التشريع لخدمة مفاهيم مكونة سلفاً ، أسلوب من يضع العقيدة ثم يبحث عن وسائل إثباتها .

وهكذا فهم يفهمون القرآن والسنة وسيرة السلف الصالح على ضوء ما وضعوه من أفكار وخطط بدلاً من أن يستمدوا أفكارهم وخططهم من مصادر الإسلام الأساسية وهذا ما يعطي صدقية ما إلى مذكرات المستر همفر التي تقول إن ابن عبد الوهاب كان يستخف بالخلفاء والأئمة ، وأنه تولى مهمة تكفير المسلمين ومن ثم تحليل قتلهم واسترقاقهم وبيعهم في أسواق النخاسة .

كل هذا سيظهر جلياً من خلال عرضنا للأمور التي يأخذها الوهابيون على المسلمين دون أن نرانا بحاجة إلى تناول ما يتفقون معهم عليه .

وفيما يلي وبناءً على ما قدمنا سوف نتناول موقف الوهابية من تنزيه الله عز وجل ، ثم نتناول موقفهم من المسلمين ، مرجئين مواقفهم من الكفار إلى الفصول اللاحقة .

الموقف الوهابي تجاه الألوهية : التجسيم والتحيز :

يعلن الوهابيون أن حركتهم قامت أصلاً لإثبات التوحيد لله عز وجل ومقاومة الشرك والكفر وتخصيص الألوهية والعبادة بالله تعالى ، فقضت على كل ما اعتبرته إشراكاً لغير الله في الألوهية والمعبودية. ولكن الوهابيين ينظرون إلى الله تعالى نظرة تتعارض جذرياً مع إعلانهم هذا فيجسّمون الله ويحيّزونه وينسبون إليه التحرك من مكان إلى مكان ويثبتون له تغير الأحوال النفسية ، كما يؤمنون بأنه يمكن للناس رؤيته بالعين يوم القيامة ، وكل هذا يتعارض مع تنزيهه ووجوده في كل مكان ونفي شبهه بمخلوقاته .

لقد أثبتوا له تعالى الاستواء والجهة والجسمية والمجيء والرحمة والغضب بمعانيها الحقيقية لا المجازية ، وأوضح ذلك الشيخ محمد بن عبد اللطيف ، الحفيد الثالث لابن عبد الوهاب في الرسالة الخامسة الواردة في كتاب الهدية السنية[1] بقوله : « . . . ونؤمن بأسماء الله تعالى وصفاته ونثبت ذلك على ما يليق بجلاله وعظمته إثباتاً بلا تمثيل وننزه الله عما لا يليق بجلاله تنزيهاً بلا تعطيل ، ونعتقد أن الله سبحانه وتعالى مستوٍ على عرشه عالٍ على خلقه ، وعرشه فوق السماوات وهو بائن عن مخلوقاته ولا يخلو مكان من علمه . . . فنؤمن باللفظ

ونثبت حقيقة الاستواء ولا نكيف ولا نمثل لأنه لا يعلم كيف هو إلا هو . . . وكذلك اعتقادنا في جميع أسماء الرب وصفاته من الإيمان باللفظ وإثبات الحقيقة ، ونفي علم الكيفية ».

وهكذا فهم يؤمنون بحقيقة اللفظ أي بمعناه الحقيقي ويقرون بجهل الكيف ، ومن هنا وبسبب تمسكهم بظاهر اللفظ فهم مجسمة بشكل ما وإن نفوا هذه الصفة عنهم ، لأن الألفاظ المشار إليها لا تخلو من التشبيه بالحركات والصفات الإنسانية إلا إذا أخذت معانيها المجازية . أما إذا أخذت معانيها اللفظية فهي تحتمل بالضرورة شبهاً بالحركات الإنسانية اللهم إلا إذا أمكن تصور أن تتخذ معاني غير المعاني المعروفة لغوياً ، فيكون خطاب الباري عز وجل غير مفهوم ، وهذا ما يتناقض مع التأكيد الإلهي القائل : ﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾[٢].

على أن الاعتراف بجهل الكيفية ليس موقفاً ثابتاً على ما يبدو فعبد العزيز بن محمد آل سعود ، عندما يشير إلى عقائد « أهل السنة » التي توافق عليها الوهابية يؤكد أنهم « يقولون أن الله تعالى يرى بالأبصار يوم القيامة كما يرى القمر ليلة البدر ، ويراه المؤمنون ولا يراه الكافرون ».

ويضيف الشيخ المذكور قوله : « ونؤمن بما ورد من أن الله تعالى ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا حيث يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : « هل من سائل فأعطيه سؤله ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من تائب فأتوب عليه ؟ . . . »[٣].

أما مؤسس المذهب محمد بن عبد الوهاب فكان متجاوزاً لكل التحفظات، فهو يثبت في كتابه «التوحيد»[٤] كل ما ذكر، ويأخذ على الأشعرية إنكارها للرحمة والرضا والغضب ثم يمعن في إثبات الجسمية لله سحبانه وتعالى حيث يروي في باب ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ أن حبراً من أحبار اليهود أتى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال له : إنا نجد أن الله يجعل السماء في إصبع والأرضين في إصبع والشجر على إصبع والماء على إصبع والثرى على إصبع وسائر الخلق على إصبع فيقول : أنا الملك . ثم ينسب الموافقة إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على هذا الحديث بقوله : «فضحك الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر ثم قرأ :

﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة . . . ﴾ .

وهكذا فإن الوهابية تنسب إلى الله ما لا يليق به وهي تقتفي في هذا أثر ابن تيمية الذي خالف آراء عامة علماء المسلمين في عصره ، الأمر الذي أدى إلى سجنه حيث تاب ثم تراجع عن التوبة وبقي مسجوناً حتى توفي[٥] .

وإذا كان هذا الموقف يستند في ما يستند إليه إلى حديث حبر من أحبار اليهود لم يوافق عليه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كما يدعي ابن الوهاب بل دحضه مستشهداً بالآية الكريمة : ﴿ وما قدروا الله حق قدره . . . ﴾ فإنه يتفق مع موقف اليهود الذين ينسبون إلى يهوه الصفات الإنسانية ويشبهونه بمخلوقاته سواء في الشكل والحركة أو في الانفعالات النفسية ، وهذا يتناقض تناقضاً مطلقاً مع الموقف الإسلامي الذي يتخذه عامة المتكلمين والفلاسفة والعلماء والذي يظهر بأجلى مظاهره عند الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) في عدد من خطبه حيث ينفي لا إمكانية رؤيته عز وجل فحسب ، بل وكذلك إمكانية أي نوع من أنواع إدراكه بالحس إذ يقول عنه تعالى : « الرادع أناسي الأبصار عن أن تناله أو تدركه »[٦] ، ويقول : « لا ينظر بعين . . . ولا يدرك بالحواس ولا يقاس بالناس »[٧] . كما ينفي (عليه السلام) عنه تعالى الجسمية والأعضاء فيقول : « فاعل لا بمعنى الحركات والآلة »[٨] وينفي عنه تعالى الحيّز والجهة فيقول : « من أشار إليه فقد حدّه ومن حدّه فقد عدّه ومن قال : فيم ، فقد ضمنه ومن قال : علام ، فقد أخلى منه »[٩] . وهو لا يتحرك من سماء إلى سماء لأنه « ما كان في مكان فيجوز عليه الانتقال »[١٠] .

وأخيراً ينفي الإمام قدرة الناس على إدراك الله ويدعوهم إلى التخلي عن وصفه فيرى أن « التوحيد أن لا تتوهمه »[١١] إذ « لا تقع الأوهام له على صفة ولا تعقد القلوب منه على كيفية . . . ولا تحيط به الأبصار والقلوب »[١٢] ذلك أنه « ليس لصفته حد محدود ولا نعت موجود »[١٣] فـ « كمال الإخلاص له نفي الصفات عنه لشهادة كل صفة بأنها غير الموصوف وشهادة كل موصوف بأنه غير الصفة »[١٤] .

وهكذا فإن الوهابية تحارب تأويل الآيات المطلوب تأويلها لتأتي منسجمة مع آيات التنزيه وأحاديث التنزيه في مجال صفات الله ، وتعتبر

تنزيه الله هذا تعطيلاً، متناسية اشارات الله تعالى إلى التأويل كقوله تعالى: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم﴾ [آل عمران /٧] وقوله تعالى: ﴿يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ [الأعراف /٥٣]، ومتناسين كذلك اشارات الأحاديث النبوية الشريفة إلى هذا الموضوع كقوله (ص) في دعائه لابن عباس: «اللهم علمه الحكمة وتأويل الكتاب».

على أن الوهابية في هذا الأمر يتنكرون حتى لإمام الحنبلية التي ينتسبون إليها، أحمد بن حنبل الذي أخذ بالتأويل كغيره من أئمة المذاهب ومفسري المسلمين وذلك في تفسيره لآية: ﴿وجاء ربك...﴾ بقوله أي جاءت قدرته كما رواه البيهقي أي أثر من آثار قدرته.

وإذا أردنا استنفاد كل ما حمله أئمة المسلمين من تأويل لآيات القرآن لضاقت هذه الصفحات عن ذلك، وكل هذا لتأتي الآيات المتشابهات منسجمة مع الآيات المحكمات النافية للجسمية كقوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾. وقوله: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾.

وهكذا فقد اجتهدوا في تأويل الاستواء على العرش والعلو والكون في السماء. فاعتبروا الاستواء بمعنى الاستيلاء. والعلو بمعنى علو القدر[١٥].

وهكذا فإن الوهابيين الذين يرمون المسلمين بالشرك والكفر يقعون في الكفر عن طريق التنكر لتنزيه الله تعالى، لأن المشبه مساو لله بخلقه. يقول علي بن أبي طالب (ع)[١٦]: «وأشهد أن من ساواك بشيء من خلقك قد عدل بك، والعادل بك كافر بما تنزلت به محكمات آياتك ونطقت عنه شواهد حجج بيناتك، وأنك أنت الذي لم تتناه في العقول فتكون في مهب فكرها مكيفاً ولا في روايات خواطرها محدوداً مصرفاً».

موقف الوهابية من المسلمين :

يعتبر الوهابيون سائر المسلمين مشركين يحل قتالهم إذا ما دعوا إلى الإسلام (الوهابية) ولم يؤمنوا به . وقد ورد ذلك على ألسنة علمائهم والمدافعين عنهم بشكل لا مواربة فيه ولا تحفظ . وقد اعتبر مؤسس مذهبهم محمد بن عبد الوهاب أن هذا الشرك أغلظ من شرك عبدة الأصنام ، لأن عبدة الأصنام « الأولين كانوا يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة (بينما) مشركو زماننا شركهم دائم في الرخاء والشدة » ويؤكد بعضهم كالصنعاني مثلاً أن كفر المسلمين (من غير الوهابيين) كفر أصلي لا كفر ردة ، وذلك ، كما يقول محمد بن عبد الوهاب منذ ستماية سنة . لذلك فهم كانوا يلزمون من كان حج ثم تبعهم ، بالحج ثانية ، كما يطلبون ممن ينتمي إليهم أن يشهد على نفسه أنه كان كافراً وكذلك على والديه وعلى عدد من «أكابر» العلماء الماضين.

أما كيف يكون المسلمون جميعاً مشركين حلال دمهم ومالهم وجائز سبي ذراريهم ، فذلك يقيمه الوهابيون حسب مفهوم خاص للكفر والشرك ، إن ميز بين درجاتهما فهو لا يميز بين مفاعيلها ، وذلك سيراً على خطى ابن تيمية ، وإن حصل بعض الخلاف في المضامين . فقد جاء في رسالة بقلم عبد العزيز بن محمد بن سعود أن التوحيد هو « ترك كل معبود مع الله وإخلاص الالهية له تعالى وحده وأن العبادة بأفعالهم مما أمرهم به كتابه وعلى لسان رسوله ، إذا جعلت لغيره تعالى صار ذلك الغير آلهاً مع الله وإن لم يعتقد الفاعل ذلك ، فالمشرك مشرك شاء أم أبى » ومن هنا كان التوحيد نوعين : الأول توحيد الربوبية بالاعتراف « بأفعاله تقدس كخلقه السماوات والأرض والليل والنهار ورزق العباد وتدبير أمورهم ، لأن هذا يسمى توحيد الربوبية الذي أقرّ به الكفار الأولون . . . » أما النوع الثاني من التوحيد فهو الذل والخضوع من قبل المؤمنين في أفعالهم « وأقوالهم المختصة بجلال الله وعظمته كدعائه بما لا يقدر عليه إلا هو ورجائه فيه والتوكل عليه وذبح النذر والنسك . . . والإنابة والخضوع . . . وكالسجود والتسبيح والتهليل . . . ».

ثم تؤكد الرسالة نفسها أنه « لا يغني أحد التوحيدين عن الآخر ، بل صحة

أحدهما مرتبطة بوجود الآخر » وبناءً على هذا المفهوم كان الشرك لا في توحيد الربوبية وحدها بل وفي العبودية[١٧] . وهكذا فإن من يشهد الشهادتين يبقى كافراً إذا ما لجأ إلى أي عمل مما يعتبره الوهابيون ، على خلاف جميع المسلمين ، شركاً وكفراً ، وذلك لأن « الكفر نوعان : مطلق ومقيد، فالمطلق أن يكفر بجميع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، والمقيد أن يكفر ببعض ما جاء به الرسول »[١٨] وفي كلا الحالين يعامل المتهم بالكفر معاملة الكافرين.

أما جدول المكفرات الذي يتبناه آباء الوهابية فقد جاء حاوياً الشفاعة والتوسل والدعاء والقسم والنحر والذبح والنذر وبناء القبور وزيارتها والصلاة عندها والسفر إليها مما سنبينه في الفقرات اللاحقة.

الشفاعة :

« الشفاعة هي أن يساند صاحب جاه وحظوة (الشفيع) عند من يستطيع تلبية حاجة ما (المشفوع لديه) محتاجاً (المستشفع) تنقصه الوسيلة الكافية أو يظن أنها تنقصه، في طلب حاجته . وقد جاء في تفسير «الميزان» أن الشفاعة « من الشفع مقابل الوتر ، كأن الشفيع ينضم إلى الوسيلة الناقصة التي مع المستشفع فيصير به زوجاً بعد أن كان فرداً فيقوى على نيل ما يريده لو لم يكن يناله وحده لنقص وسيلته وضعفها وقصورها »[١٩] .

والشفاعة إلى الله تتم بأن يساند الرسول صلى الله عليه وآله وسلم طالب الشفاعة فيدعو له الله كي يصفح عن سيئاته أو يزيد في حسناته.

أما في طريقة ممارستها فهي الدعاء والإستغفار للمؤمنين إذ ورد عن النيسابوري في تفسير الآية : ﴿ **من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها . . .** ﴾ [النساء/٨٥] عن مقاتل أنه قال : الشفاعة إلى الله إنما هي الدعوة لمسلم . إذ روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب استجيب له وقال له الملك : ولك مثل ذلك.

أما الوهابية فترى أنه لا يجوز طلب الشفاعة من النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا من غيره « فلا يقال : يا رسول الله ، أو يا ولي الله أسألك الشفاعة أو غيرها

كأدركني أو أغثني أو اشفني أو انصرني على عدوي ونحو ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله تعالى »[٢٠] . وكذلك لا يقال : يا الله أتوسل إليك بنبيك محمد أن ترحمني لأنه بذلك يكون قد سلك مسلك المشركين واعتقد ما اعتقدوا[٢١] .

وطلب الشفاعة هذا إذا حصل بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يكون شركاً لأنه لا نص عليه ولا أثر من السلف الصالح في النص على تحريمه . « فإذا طلبت ذلك مما ذكر في أيام البرزخ (من الوفاة إلى البعث) كان من أقسام الشرك إذ لم يرد بذلك نص من كتاب أو سنة ولا أثر من السلف الصالح على ذلك ، بل ورد الكتاب والسنة وإجماع السلف أن ذلك شرك أكبر قاتل عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [٢٢] .

كما جاء في الرسائل العملية أن على المسلم « أن لا يطلب الشفاعة من النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأن الله وإن أعطاها محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وغيره من الأنبياء ولكنه نهى عن طلبها منهم . ومن يطلب الشفاعة من محمد صلى الله عليه وآله وسلم كان كمن يطلبها من الأصنام سواء بسواء »[٢٣] .

ولم يبق من مجال للشفاعة إلا يوم القيامة حيث لا يستطيع الوهابيون إنكارها ، للرسول ولسائر الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم وكذلك الملائكة والأولياء والأطفال . ولكنهم يرون أنها لا تطلب منهم بل من الله كأن تقول : « اللهم شفّع نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فينا يوم القيامة ، أو اللهم شفّع فينا عبادك الصالحين أو ملائكتك أو نحو ذلك »[٢٤] .

ويستند الوهابيون في موقفهم هذا إلى بعض الآيات القرآنية كالآية الشريفة : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ [البقرة/٢٥٥] ﴿ أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء ﴾ [الكهف/١٠٢] ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾ [الأنبياء/٢٨] .

وهذا الموقف كان ابن تيمية قد نادى به حيث ورد في رسالته حول زيارة القبور[٢٥] : إن سؤال النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو الولي الشفاعة يستند إلى كونه أقرب إلى الله من السائل ، فهذا من أفعال الذين يتخذون من أحبارهم ورهبانهم شفعاء يستشفعون بهم في مطلبهم ، والمشركين الذين أخبر الله عنهم أنهم قالوا :

﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ [الزمر/٣] **﴿ أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ﴾** [الزمر/٤٣] **﴿ قل لله الشفاعة جميعاً ﴾** [الزمر/٤٤] **﴿ ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع ﴾** [السجدة/٤].

ولكننا في الحقيقة لو راجعنا هذه الآيات لوجدناها تقر الشفاعة من حيث المبدأ ، وهذه مسألة تعترف بها الوهابية ، ولكنها لاتشترط ما يدعونه تحريم طلب التشفيع إلا من الله تعالى ومن ربط ذلك الطلب بيوم القيامة.

فلجهة تحريم طلب التشفيع من غير الله واعتبار ذلك من الشرك ومن باب اتخاذ الأولياء من دون الله، فهو بمثابة سحب الموقف الإلهي من الوثنيين الذين لم يسلموا على المسلمين . فالوثنيون والمشركون يعبر استشفاعهم عن الشرك لأنهم يؤمنون بقدرة ومنزلة أوثان أو مخلوقات لا تملك القدرة ولم يمنحها الله تعالى تلك المنزلة.

ثم إنهم لا يكتفون بطلب الشفاعة منها بل هم يتعبدون لها على أساس ذلك الاعتقاد . أما المسلمون فهم يطلبون الشفاعة من الأنبياء والصالحين ، لا على أنهم يملكون القدرة من دون الله ، ولا على أساس منزلة خاصة بهم لم يمنحها لهم الله ، بل على أساس كونهم أقرب إلى الله تعالى منهم وأن كرامتهم مستمدة من إخلاصهم لله وحده.

وهكذا فيكون طلبهم الشفاعة تعبيراً عن إيمانهم بأن الله منح هؤلاء ميزة معينة من عنده فكانت مؤدية إلى الإذن لهم بالشفاعة ، وليس في الأمر أي نوع من أنواع العبادة لهؤلاء الأشخاص ، لأن المسلم موحّد فلا يجوز حمل أفعاله على الشرك استناداً إلى الظن كما سنرى .

ومن جهة أخرى فإنه تعالى قد صرح بمنح الشفاعة ، فحدد الذين يحق لهم القيام بها وذلك في العديد من الآيات الكريمة كالذين اتخذوا عند الرحمن عهداً **﴿ لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾** [مريم/٨٧] والشهود بالحق **﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾** [الزخرف/٨٦] كما أنه تعالى تحدث عنها في مواضع أخرى فأثبت شفاعة الملائكة الذين يحملون العرش بقوله : **﴿ ويستغفرون للذين آمنوا ربنا**

وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم* ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم* وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم﴾ [غافر/٧ - ٩] .

كما أنه تعالى تكلم على الاستغفار للآخرين ، وهو بمعنى الشفاعة لهم فحكى عن نوح إذ قال : **﴿ ربي اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا ﴾** [نوح/٢٨] إلى جانب عدد كبير من الآيات : **﴿ قال ربي اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك ﴾** [الأعراف/١٥١] **﴿ اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾** [إبراهيم/٤١] **﴿ واغفر لأبي إنه كان من الضالين ﴾** [الشعراء/٨٦] **﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ﴾** [الحشر/١٠] **﴿ وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ﴾** [المنافقون/٥] **﴿ قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم ﴾** [يوسف/٩٨] **﴿ والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ﴾** [الشورى/٥] **﴿ قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفياً ﴾** [مريم/٤٧] **﴿ ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾ ﴾** [النساء/٦٤] .

وأخيراً يستخدم تعالى لفظ الدعاء للآخرين بمعنى الشفاعة فيقول مخبراً عن المصريين : **﴿ ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى أدعُ لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل ﴾** [الأعراف/١٣٤] ففعل موسى (عليه السلام) فانكشف عنهم الرجز.

فهل في هذه الآيات ما يمنع طلب الشفاعة أو يشير إلى وجوب طلب التشفيع من الله كما تدّعي الوهابية؟.

إن الإشكال الذي تستند اليه الوهابية والناجم عن الآيات الشريفة التي تحصر الإذن بالشفاعة بالله عز وجل ينتهي بتفسير آيات القرآن بعضها ببعض ، بأن نعتبر أن الشفاعة لا تمنح إلا لمن أذن له الله وبما أن بعض الأنبياء ، حسب ما يؤكد القرآن الكريم ، قد شفعوا للآخرين ، فهذا يعني أن الله قد أذن لهم بهذه الشفاعة فمارسوها وحضوا أتباعهم على طلبها . وقد وردت الأحاديث العديدة

المتواترة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تؤكد شفاعته لأمته ، وإيصاءه للمسلمين بطلب الشفاعة منه صلى الله عليه وآله وسلم عند الله عز وجل . وقد أشارت الأحاديث أحياناً إلى الشفاعة بشكل صريح ، كما أشارت أحياناً إليها بألفاظ أخرى ، فمن الأحاديث التي استخدمت لفظ الشفاعة صريحاً ما يلي :

« من سأل الله لي الوسيلة حلت له شفاعتي يوم القيامة» رواه : مسلم، صلاة ١١١ ، البخاري أذان ـ ٨ ، أبو داود صلاة ٣٦ ، ٣٧ ، ابن حنبل ٢ ـ ١٦٨ ، ٣ ـ ٣٤٥، ٣٥٤ ، ٣٨٣. . .

«أعطيت خمساً (منها) الشفاعة، أنا أول شافع وأول مشفّع» رواه : البخاري تيمم ١ ـ مسلم مساجد ٣ ـ النسائي غسل ٢٦ ـ الدارمي صلاة ١١١ ـ ابن حنبل ١ ـ ٣٠١ .

«خيرني ربي بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة» رواه : الترمذي قيامة ١٣ ـ ابن ماجة زهد ٣٧ ـ ابن حنبل ٢ ـ ٧٥ . .

« يدخل (الجنة) بشفاعتي رجال من أمتي أكثر من بني تميم (أو من مضر) » رواه : مسلم زهد ٣٨ ، ابن حنبل ٤ ـ ٢١٢. . . .

«إني سألت ربي وشفعت لأمتي» رواه : أبو داود جهاد ١٦٢ . . .

«. . . فقولوا إنا نشفع برسول الله» رواه : ابن حنبل ٢ ـ ١٨٤ . . .

هذا ويؤكد الرسول صلى الله عليه وسلم الشفاعة لغيره أيضاً فيقول :

«ادعوا الشهداء فيشفعوا لمن أرادوا» رواه ابن حنبل ١ ـ ٥ .

ومن الأحاديث التي استخدمت طلب المغفرة وهو شفاعة في حقيقته:

«اللهم اغفر لآل ياسر» رواه: ابن حنبل ١ ـ ٦٢ . . .

«اللهم اغفر للأنصار» رواه : مسلم ، فضائل الصحابة ١٧٢ . . .

«اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد» رواه : مسلم جنائز ١٠٢ ـ النسائي جنائز ١٠٣ . . .

وبعد هذه النصوص الواضحة التي يتجاهلها الوهابيون ، ولو حاولنا أن نناقش ما ذهبوا إليه على ضوء العقل السليم فإن تهافت مذهبهم بهذا الصدد سرعان ما ينكشف.

فلنا مثلاً أن نسأل : هل « الشرك» المنسوب الى المسلمين يكمن في ايمهانهم بقدرة الشفيع على الشفاعة أم في مجرد طلب الشفاعة؟ .

فإذا كان يكمن في الإيمان بقدرتهم على الشفاعة لدى الله ، فهل طلب الإذن من الله لهم يمحو الشركية؟

إن هذا غير مقبول عقلاً وهو شبيه بقولنا : إذا كان طلب مرضاة «هبل» شركاً فإن الطلب من الله أن يرضي عنا «هبل» يحول ذلك الشرك إلى التوحيد.

وأما إذا كان الشرك يكمن في مجرد طلب الشفاعة قبل الإذن بها من الله ، فإن هذا المذهب يقرر حكماً شرعياً يقضي باعتبار طلب تحقق كل ما هو معلق على إذن الله تعالى قبل حصول هذا الإذن ، شركاً.

فإذا أخذنا الآية الكريمة : ﴿ أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ [الحج/٣٩] وطبقنا في موضوعها هذا الحكم ، لحصل معنا أنه إذا كان قد طلب من هؤلاء أن يدعوا الله كي ينصرهم على أعدائهم ، أو طلب من الله أن ينصرهم ، قبل الإذن من الله بذلك ، لكان هذا الطلب بالحالتين شركاً باعتباره طلباً ممن لا يقدر على التصرف وهو الداعي ، أي المؤمنون الذين ظلموا أو من يدعو لهم مباشرة.

ثم لنا أيضاً أن نسأل : إذا كان طلب الشفاعة جائزاً من المستشفع به على ضوء ما رأينا ، فهل هو محرّم إن لم يتعلق بحساب يوم القيامة؟ .

إن الذي يحق له أن يشفع يوم الحساب الأكبر ، لابد أنه يحق له ذلك في غير ذلك اليوم ، كي يخفف الله العقاب العاجل الدنيوي ، أو يقرر تخفيف العذاب الأخروي عنه . وقد حملت الآثار تأكيد ذلك اذ تواتر جواز طلب الشفاعة والدعاء للمسلم والحض عليها بشكل لم يعد يحتمل أي ذرة من الشك.

وإذا كانت الشفاعة ثابتة على هذا النحو ، فهل صحيح أن طلبها من الميت شرك ؟

إن هذا الحكم يفتقد إلى الدليل من القرآن أو السنة أو سيرة « السلف الصالح » وكذلك من العقل . فإذا كان الميت أصبح في حالة العدم المؤقت ،

فإن طلب الشفاعة منه يصبح طلباً للمستحيل ، وليس طلب المستحيل شركاً ولا كفراً بحد ذاته ، بل الشرك والكفر أن تؤمن بأن ذلك المعدوم يمتلك الأمر والتدبير الى جانب الله عز وجل وهذا ما لا يقره أي مسلم من المسلمين.

أما إذا كان الميت في الحياة البرزخية ، حيث لا تموت روحه ، فإن طلب الشفاعة منه إذ لا يحتمل الشرك إذا صدر عن مسلم موحد ، فهو لا يكون طلباً للمستحيل من الوجهة النظرية.

وأما إذا كانت الشفاعة تطلب عادة من الأنبياء والصالحين ، فهي غالباً تطلب من أحياء لا أموات ، إذ أن الله اعتبر الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ، ولما كان الأنبياء أعظم درجة من الشهداء ، فهم من باب أولى أحياء أيضاً عند ربهم يرزقون.

وأما على الصعيد العملي فقد حصل أن توجه العديد من المسلمين الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته طالبين منه الشفاعة بعد أن كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد أوصاهم بقوله في حديث عن ابن مسعود: « حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم فإذا أنا مِتُّ كانت وفاتي خيراً لكم ، تعرض علي أعمالكم فإن رأيت خيراً حمدت الله تعالى وإن رأيت غير ذلك استغفرت لكم »[٢٦].

وقد طلب الصحابة الشفاعة من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بعد موته بشكل متكرر لا يحتمل أي التباس.

فقد روي عن ابن عباس أن عليًّ بن أبي طالب (عليه السلام) خاطب النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد غسله قائلاً: «بأبي أنت وأمي طبت حياً وطبت ميتاً .. اذكرنا عند ربك »[٢٧].

كما روى العتبي وهو من مشايخ الإمام الشافعي أنه بينما كان جالساً عند قبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فجاء أعرابي فقال: « السلام عليك يا رسول الله ». إن الله أنزل عليك كتاباً صادقاً قال فيه: ﴿ **ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيما** ﴾

[النساء/٦٤] وقد جئتك مستغفراً من ذنبي مستشفعاً بك إلى ربي . ثم بكى وأنشأ يقول :

يا خير من دُفنت بالقاع أعظمه ... فطاب من طيبهن القاع والأكمُ
روحي الفداءُ لقبر أنت ساكنه ... فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم استغفر وانصرف[٢٨] .

ولم يؤثر عن أحد من الصحابة أنه استنكر فعل الأعرابي هذا.

كما روى ابن حجر في الجوهر المنظم عن علي (عليه السلام) أنه بعد دفن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بثلاثة أيام جاء أعرابي فرمى بنفسه على القبر الشريف وحثا ترابه على رأسه وقال : يا رسول الله ، قلت فسمعنا قولك ووعيت من الله ما وعينا عنك ، وكان في ما نزله الله عليك قوله تعالى : ﴿ **ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك** ﴾ الآية «وقد ظلمت نفسي وجئتك لتستغفر لي إلى ربي . . .».

ولم يستنكر علي (عليه السلام) فعل هذا الأعرابي أيضاً[٢٨] .

وقد جاء أيضاً في المواهب اللدنية أن أعرابياً وقف على قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال : « اللهم إنك أمرت بعتق العبيد وهذا حبيبك وأنا عبدك فأعتقني من النار على قبر حبيبك . . ».

وهنا أيضاً لم يستنكر أحد من الصحابة فعل هذا الأعرابي[٢٨م] .

دعاء غير الله والاستغاثة :

تحتمل عبارة «الدعاء» معاني متعددة ، أما المعنى الذي يتوقف عنده الوهابيون ويبنون عليه تكفير المسلمين هو التوجه إلى ميت لطلب قضاء الحاجات.

يقول الشيخ أحمد النجدي في «مناظرته» علماء الحرم الشريف[٢٩] أن المشركين (اقرأ : سائر المسلمين) « بدّلوا الدعاء له (للميت) بدعائه والشفاعة له بالاستشفاع به ».

ويضيف « نحن نعلم بالضرورة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يشرع

لأمته أن يدعوا أحداً من الأموات ، لا الأنبياء ، ولا الصالحين ولا غيرهم بلفظ الاستغاثة ولا بغيرها ، بل نعلم أنه نهى عن كل هذه الأمور وأن ذلك من الشرك الأكبر الذي يحرمه الله ورسوله . قال تعالى : ﴿ وإن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ وقال تعالى : ﴿ ومن أضلُّ ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . . . ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولا تدع مع الله آلهاً آخر فتكون من المعذبين ﴾ وقال تعالى : ﴿ له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء . . . ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين ﴾ وقال تعالى : ﴿ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير * إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم. . . ﴾ وقال تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً * أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً ﴾ .

ثم يفسر الشيخ المذكور الوسيلة ، عن ابن عباس بأنها «عزير» و «المسيح» والشمس والقمر . وعن ابن مسعود : أن الوسيلة كانت نفراً من الجن.

ويتابع قائلاً : « فإن الآية ﴿ يبتغون الوسيلة . . . ﴾ تعمُّ كل من كان معبوده عابداً لله سواء كان من الملائكة أو من الجن أو من البشر . . . فكل من دعا ميتاً أو غائباً من الأنبياء والصالحين فقد تناولته هذه الآية . ومعلوم أن المشركين يسألون الصالحين بمعنى أنهم وسائط بينهم وبين الله ، ومع هذا فقد نهى الله عن دعائهم .

وهكذا يعود الوهابيون إلى تناسي النية والقصد في التصرفات ولا يقيمون لها وزناً ، فهم يخلطون بين من يدعون من لا كرامة لهم عند الله تعالى وبين من يتمتعون بالجاه والمنزلة ، كما يخلطون في دعاء هؤلاء بين قصد أن يقضي هؤلاء الحاجات بأنفسهم أو أن يشفعوا للطالب عند الله لقضائها ، وهكذا يمسي الجميع كفاراً ومشركين.

إلّا أن هناك تفصيلاً يبدو ذا دلالة وهو أن بعض مشايخ الوهابيين يعتبر أن

عبادة الأصنام قد « نتج عن العكوف الطويل عند قبور الصالحين كما حصل بالنسبة إلى تماثيل «ود» و«سواع» و«يغوث» و«نسر» الذين ورد ذكرهم في سورة نوح الآية ٢٣ ». فقد ورد في رسالة «زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور»[٣٠] عن وثيمة وغيره أن وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً أسماء قوم صالحين من قوم نوح . فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم طال عليهم الأمد فاتخذوا تماثيلهم أصناماً وكان العكوف على القبور والتمسح بها وتقبيلها والدعاء عندها أصل الشرك وعبادة الأوثان ، وقد كرّر هذا القول عبد العزيز بن محمد بن سعود في رسالة له[٣١] يقول فيها : « فإن النفوس قد أشركت بتماثيل القوم الصالحين كود وسواع ويغوث وتماثيل طلاسم الكواكب ».

ولعل الشرك هنا مستفاد من التعبّد للتماثيل لا من الاستغاثة بالصالحين بدليل السنة التقريرية التي ترسخت جراء مشاهدة الصحابة لعدد كبير من الناس يأتون إلى قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم يدعونه ويتوسلون به دون أن يستنكروا ذلك .

إضافة إلى أن الاستغاثة والتوسل هما من الاستشفاع وما صدق في الشفاعة يصدق فيهما، ومن أهم ما حملته الآثار من أمثلة على الدعاء والاستغاثة والتوسل بغير الله ليكونوا الوسائط لديه تعالى ما يلي : جاء في « وفاء الوفا في أخبار دار المصطفى » للسمهودي[٣٢] عن مالك خازن عمر قال : « أصاب الناس قحط في زمن عمر بن الخطاب فجاء رجل إلى قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله استق لأمتك فإنهم قد هلكوا . فأتاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المنام فقال : إئت عمر وأخبره أنهم مسقون ».

ولم يرو أي مصدر أن عمر الذي أخبر بالأمر استنكر ما فعل الرجل أو أن أياً من الصحابة قد عابه على ذلك . وجاء في كتاب «مصباح الظلام» للإمام محمد بن موسى بن النعمان : قال محمد بن المنكدر إنّ أباه كان قد تصرّف بوديعة من ثمانين ديناراً لأحد أصحابه ، فلما طلبها منه ولم يكن يستطيع إعادتها استمهله إلى الغد فبات في المسجد يلوذ بالقبر الشريف مرة وبالمنبر أخرى حتى كاد أن يصبح فانقضت حاجته .

وجاء أيضاً : قال الإمام أبو بكر بن المقري : كنت أنا والطبراني وأبو الشيخ

في حرم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأثّر فينا الجوع ، فلما كان وقت العشاء حضرت قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقلت يا رسـول الله الجوع . . . فـدقّ الباب علوي معه غلامان معهما طعام .

وجاء في كتاب «الوفا» لابن الجوزي : قال ابن الجلاد : دخلت المدينة وبي فـاقة فتقـدمت إلى القبر وقلت : ضيفـك فغفـوت فـرأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأعطاني رغيفاً .

وروى عبـد الله بن أبي زرعة إنـه وأباه وعبـد الله بن حنيف أصابتهم فـاقـة فدخلوا المدينة ، وأتى أبوه الحظيرة ، وقال : يا رسـول الله ، ضيفك الليلة ، فرأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فوضع في يده دراهم .

ووجه الدلالة في هذه الموارد ، ليس استجابة الطلب ، بل اللجوء إلى الدعاء من قبل البعض وعدم انتقاد الآخرين لهم .

وليس الدعاء المرغوب مختصاً برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحده فقد ذكر أئمة الحديث في كتبهم حديثاً عن رسول الله أورده سليمان بن عبد الوهاب ، أخو محمد بن عبـد الوهـاب في كتاب «الصـواعق»[٣٣] ، قال : قـال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فليناد يا عبـاد الله احبسوا يا عباد الله احبسوا ثلاثاً فإن لله حاضراً سيحبسها» .

وقال : روى الطبراني : « إن أراد غوثاً فليقل يا عباد الله أعينوني » .

الـتـوسـل :

هـو اتخاذ الـوسيلة لبلوغ هـدف معين ، وفي مجـالنـا هـو اللجـوء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو أحـد الأنبيـاء أو الصـالحين ليكـون واسـطة بين المتوسِّل وبين الله ، لما لهذا المتوسَّل به من مكانة عنده تعالى .

ولقد حرّم الوهابيون توسل الإنسان بالمخلوق وبغير أعماله الصالحة ، لأن التوسل بالمخلوق يعتبر شركاً . وقد ذهب إلى ذلك ابن تيمية في رسالة « زيارة القبور » وغيرهـا وتبعه محمـد بن عبد الـوهاب في كتـاب «التوحيـد» وكذلـك الصنعاني في « تطهير الاعتقاد » .

وقد أوضح عبد العزيز بن محمد بن سعود هذا الأمر في الرسالة الأولى من

الهدية السنية[٣٤] التي جاء فيها : « إن الوسيلة ليست إلاّ أن ينادي العبد غير الله ويطلب حاجته التي لا يقدر على وجودها (إيجادها) إلا الرب تبارك وتعالى ممن لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً . . . ».

وقد فسّر قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة ﴾ معتبراً أن الوسيلة التي يتقرب بها إلى الله وتقرب فاعلها منه هي الأعمال الصالحة ، واستند إلى الحديث المروي في صحيح البخاري أنه صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله : (من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه . . .).

ورأى على هذا الأساس أن «الوسيلة بمخلوق ينبغي ليحصل واسطة بين الله وبين خلقه يشفع لهم ويتقربون إليه لأن هذا عين ما نهى الله عنه في الآيات وأنزل بقبحه الكتب وأرسل الرسل وهو ما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ إجعل لنا آلهاً كما لهم آلهة ﴾ لأن قصدهم : يتقربون بها» .

ورداً على من يعتقد أن دعوة غير الله وسيلة ، على أساس ما أورده الترمذي وابن ماجه عن عمر بن حصين عن عثمان بن حنيف « أن رجلاً ضريراً أتى إلى النبي فسأله أن يدعو له الله ليعافيه فعلّمه هذا الدعاء : « اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد صلى الله عليه وآله وسلم نبي الرحمة ، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي لتقضى اللهم شفّعه فيّ »[٣٥] . رداً على هذا جاء في الرسالة المذكورة :

أولاً : ليس في هذا القول سؤال النبي صلى الله عليه وآله وسلم نفسه وإنما هو سؤال الله وحده أن يشفّع فيه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم

ثانياً : أما سؤال : يا حبيبنا محمد إنّا نتوسل بك إلى الله فاشفع لنا ؟ فهذا خطاب لحاضر ، كقولنا في صلاتنا : « السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، وكاستحضار الإنسان محبه أو مبغضه في قلبه فيخاطبه بما يهواه لسانه . . . وهذا متفق على جوازه من الحي إذ الحي يطلب منه سائر ما يقدر عليه وأما الغائب والميت فلا يستغاث به ولا يطلب منه ما لا يقدر عليه ».

وتستشهد الرسالة على صحة دعواها بأن عمر استسقى بالعباس بعد وفاة

النبي صلى الله عليه وآله وسلم وليس بالنبي .

ثالثاً : استخدم القول كدليل على جواز التوسل إلى الله بغير محمد صلى الله عليه وآله وسلم قياساً وهو قياس لا يجوز لأنه قياس مع فارق .

ورداً على ما حملته الرسالة في موضوع القول المذكور نرى :

أولاً : أن الزعم بأن ليس في هذا القول سؤال النبي صلى الله عليه وآله وسلم تفسير ليس صحيحاً لأن الحديث يقول حرفياً : « . . . يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي لتقضى » وورود هذا الكلام مع سابقه ولاحقه في القول : « اللهمَّ إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد صلى الله عليه وآله وسلم نبي الرحمة . . . واللهم شفّعه فيّ » لا يلغي وجوده الخاص ولا معناه الخاص .

ثانياً : إذا كان التوجه بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم هو خطاب لحاضر وأنه لا يقاس عليه سؤال الغائب أو الميت فهذا يتنافى مع قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الشريف الذي أوردناه سابقاً والذي جاء فيه : « فإذا أنا متّ كانت وفاتي خيراً لكم تعرض عليّ أعمالكم فإن رأيت خيراً حمدت الله تعالى وإن رأيت غير ذلك استغفرت لكم » ، والذي يدلّ على أن الرسول بوفاته لم يعتزل الاهتمام بشؤون أمته ، وأنه يستجيب للدعوة ويستطيع التوسط لمن يتوسل به فهو ليس غائباً بالمعنى الحقيقي ولا معدوماً في حال موته ، وهذا ما سنبينه لاحقاً .

أما تفسير الوهابية للوسيلة بأنها الأعمال الصالحة فقط فليس تفسيراً كافياً لا سيما وأن الحديث الذي استندوا إليه في صحيح البخاري والقائل : « . . . وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه . . . » لا ينفي التقرب بغير الأعمال الصالحة . فحتى لو فرضنا أن جملة « ما افترضت عليه » تعني الأعمال الصالحة حصراً فإن الحديث لم يحصر التقرب إلى الله بها وحدها بدليل أنه اعتبرها «أحب» ما يتقرب به العبد إلى ربه ، والشيء الذي يكون أحب الأشياء ، لا يلغي محبة تلك الأشياء بل يؤكدها ولو بدرجة أقل من درجته . وهكذا فإذا كان ما افترضه الله على العبد هو أحب الأشياء التي يتقرب بها فإن هذا يعني أن هناك أشياء محبوبة بدرجة أقل من محبة الأعمال المفترضة ، وهي ما يمكن التقرب به إلى الله أيضاً .

على أن ما ذهب إليه الوهابية في هذا الخصوص ليس متهافتاً بحد ذاته وحسب ، بل هو مخالف لآيات القرآن الكريم والسنة المطهرة .

فمن جهة أولى نعتقد أن للوسيلة مجالاً مشتركاً مع الشفاعة ، أي أن هناك مصاديق تنتمي إلى كل من المفهومين وربما كان هناك ما يفرقهما . وما قلناه عن الشفاعة ينطبق على ما هو مشترك مع التوسل ، وبالإضافة إليه هناك ما ينطبق بشكل أوضح على الوسيلة .

ومن الجهة الثانية فإن السنة تؤكد جواز التوسل بل وهي تزكيه وتحث عليه . ومن أهم ما نقل على هذا الصعيد :

ما ورد في أدعية الصباح والمساء عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من التوسل بالمخلوقين كقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « أسألك بنور وجهك الذي أشرقت به السماوات والأرض وبكل حق هو لك وبحق السائلين عليك أن تقيلني في هذه الغداة (أو في هذه العشية) وأن تجيرني من النار بقدرتك »[٣٦] . فواضح أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إذ يسأل الله بحق السائلين عليه هو توسل بالمخلوق وحقه .

ما ورد في دعاء للرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان يرفعه عند الخروج إلى الصلاة حيث يقول : « اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وأسألك بحق ممشاي هذا إليك فإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة . . . »[٣٧] .

ما ورد من أنه لما توفيت فاطمة بنت أسد (أم علي بن أبي طالب) (عليهما السلام) وبعد أن حفر قبرها ، حفر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اللحد بيده وأخرج ترابه . فلما فرغ دخل صلى الله عليه وآله وسلم فاضطجع فيه ثم قال : « الله الذي يحيي ويميت وهو حي لا يموت إغفر لأمّي فاطمة بنت أسد ووسّع عليها بحق نبيك والأنبياء الذين قبلي »[٣٨] . وهكذا يتوسل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بحقه شخصياً وبحق سائر الأنبياء صلى الله عليهم وسلم إلى الله .

ما جاء في «وفاء الوفا»[٣٩] أن المنصور العباسي سأل مالك بن أنس عن كيفية الدعاء عند قبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بقوله : « يا أبا عبد الله ، أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فقال مالك في

جوابه : « لِمَ تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى يوم القيامة ؟ بل استقبله واستشفع به فيشفعك الله » .

ما رواه البيهقي وابن أبي شيبة من « أن الناس أصابهم قحط في خلافة عمر فجاء بلال بن الحارث إلى قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال : يا رسول الله ، استق لأمتك فإنهم هلكوا . فأتاه الرسول في المنام وأخبره بأنهم يسقون » . ووجه الاستدلال هنا ليست الرؤيا ، ولكن طلب الاستسقاء من الرسول وهو ميت[٤٠] .

ما رواه الخطيب البغدادي بسنده عن الحسن بن إبراهيم الخلال من قوله : ما همني أمر فقصدت قبر موسى بن جعفر (الكاظم) رضي الله عنه فتوسلت به إلاّ سهّل الله سبحانه لي ما أحب . وما قاله الإمام الشافعي من أن « قبر موسى الكاظم ترياق مجرب »[٤١] .

ما جاء في كتاب الصواعق المحرقة لابن حجر أن الإمام الشافعي كان يتوسل بأهل البيت النبوي حيث يقول :

آل النبي ذريعتي وهم إليه وسيلتي
أرجو بهم أعطى غداً بيدي اليمين صحيفتي

ما رواه العلامة السيد طاهر بن محمد بن هاشم باعلوي في كتابه «مجمع الأحباب» في ترجمة الإمام أبي عيسى الترمذي صاحب السنن من أنه رأى في المنام رب العزة سبحانه وتعالى فسأله عما يحفظ عليه الإيمان حتى يتوفاه عليه فقال له على ما ذكره : « قل بعد صلاة ركعتي الفجر قبل صلاة فرض الصبح : إلهي بحرمة الحسن وأخيه وجده وبنيه وأمه وأبيه نجّني من الغم الذي أنا فيه يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام أسألك أن تحيي قلبي بنور معرفتك يا ألله يا ألله يا ألله يا أرحم الراحمين » . فكان الإمام الترمذي دائماً بعد صلاة سنة الصبح يأمر أصحابه به ويحثهم على فعله والمواظبة عليه[٤١] .

وهكذا يتبين أن ما ذهب إليه الوهابيون في هذا المجال باطل وقائم مرة أخرى على قياس مواقف المسلمين في التوسل بأولياء الله إليه ، على مواقف الكفار والمشركين الذين عرفتهم جاهلية العرب والشعوب غير المسلمة الذين كانوا ينسون الله فيعبدون الوسيلة أو هم يشركونها في العبادة مع الله .

القسم بمخلوق على الله :

القسم بمخلوق على الله تعالى هو أن نسأل الله بحق فلان مثلاً وهو نوع من التوسل بالمقسم به إلى الله عز وجل ، ولكن الوهابيين أفرزوا له حيزاً خاصاً مما اقتضى معالجته منفرداً .

وكما تعامل الوهابيون مع الشفاعة تعاملوا مع هذا الأمر فحرّموه هو الآخر ، إذ جاء في «الهدية السنية»[٤٢] : « وأما الإقسام على الله بمخلوق فهو منهي عنه باتفاق العلماء . وهل هو منهي عنه نهي تنزيه أو تحريم على قولين أصحهما أنه كراهة تحريم . . . قال أبو حنيفة : لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به وأكره أن تقول بمعاقد العز من عرشك أو بحق خلقك . . . وقال أبو يوسف : بمعاقد العز من عرشك هو الله فلا أكره هذا وأكره بحق فلان أو بحق أنبيائك ورسلك وبحق البيت والمشعر الحرام . . . قال القدوري : . . . لا حق للمخلوق على الخالق » .

وجاء في الهدية السنية[٤٣] : « اتفق علماء الإسلام على أن القسم على الله بالمخلوق ، أو بحق المخلوق حرام » . وجاء أيضاً : « أن المسألة بحق المخلوقين لا تجوز لأنه لا حق للمخلوق على الخالق » .

إلا أن تهافت مذهب الوهابيين في هذه المسألة أمر واضح ، فما روي عن أبي حنيفة أو أبي يوسف إن صح فهو الكراهة لا التحريم .

أما التعليل الذي يوردونه والقائل : أنه لا حق للمخلوقين على الله فهو أيضاً غير صحيح لتناقضه مع صريح القرآن الكريم وسيرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والسلف الصالح .

ففي الذكر الحكيم : ما جاء في الآية ١١١ من سورة التوبة حيث يؤكد الله تعالى حق المؤمنين الذين يقدمون أنفسهم وأموالهم في سبيل الله بأن تكون لهم الجنة ، تقول الآية الشريفة : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم** ﴾ .

وما جاء في الآيتين ١٠٢ و١٠٣ من سورة يونس من حق على الله بنجاة المؤمنين من العذاب الذي يتهدد الذين لا يؤمنون حيث يقول تعالى : ﴿ فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين * ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا ننجِ المؤمنين ﴾ .

وما جاء في الآية ٤٧ من سورة الروم من تأكيد حق المؤمنين على الله بالنص ، إذ تقول الآية : ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاؤهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾ .

وأما في السنة المطهرة فإننا نجد عدداً غير قليل من الأحاديث منها :

حديث : « إغفر لأمي فاطمة بنت أسد ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين قبلي » وقد سبق ذكره ، وحديث : « أسألك بحق السائلين عليك وأسألك بحق ممشاي هذا إليك » وقد سبق ذكره أيضاً .

وحديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنه تعالى : « حق على الله عون من نكح التماس العفاف مما حرّم الله »[٤٤] . وحديث : « ثلاثة حق على الله عونهم : الغازي في سبيل الله والمكاتب الذي يريد الأداء والناكح الذي يريد العفاف »[٤٥] .

وحديث حق الله على العباد وحق العباد على الله عن معاذ بن جبل عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي يقول : « هل تدري ما حق الله على العباد ، قال (معاذ) : قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . . . ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم : . . . هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : أن لا يعذبهم »[٤٦] .

وهكذا وبكل بساطة يكذب القرآن والحديث الشريف دعوى الوهابيين في انتفاء حق المخلوقين على الله ، وإن زعم زاعم أن المقصود بهذا الحق هو غير سنخ حق المخلوق على المخلوق فإن ردنا هو أن المقسمين من المسلمين بحق بعض العباد على الله إنما يجب افتراض أنهم يقصدون هذا «الحق» الذي قد يكون مختلفاً عن الحقوق المعروفة للآدميين عند غير الله .

القسم بغير الله :

حرّمت الوهابية القسم بغير الله واصفة إياه بأنه شرك ، ولكن منهم من جعله شركاً أصغر ومنهم من جعله شركاً أكبر ، ومن هذا الفريق الأخير الصنعاني الذي يقول في تطهير الاعتقاد(٤٧) عن « القبوريين » الذين حذوا حذو المشركين حذو القذة بالقذة إنهم يقسمون بأسمائهم بل إذا حلف من عليه حق باسم الله تعالى لم يقبل منه فإذا حلف باسم ولي من أوليائهم قبلوه وصدقوه وهكذا كانت عبادة الأصنام ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ﴾ وفي الحديث الصحيح : « من حلف فليحلف بالله أو ليصمت » .

كما جاء في كتاب فتح المجيد ١٩٥٧ ص ٤١٤ : « قال ابن مسعود : لئن أحلف بالله كاذباً أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقاً ، لأن الحلف بالله كاذباً كبيرة من الكبائر ولكن الشرك بالحلف بغير الله أكبر من الكبائر» .

أما في الهدية السنية(٤٨) فقد كان عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب أكثر تساهلاً إذ يقول : « فإن قلت : ما تقول في الحلف بغير الله والتوسل به ؟ قلت : ننظر إلى حال المقسم إن قصد به التعظيم كتعظيم الله أو أشد كما يقع لبعض غلاة المشركين من أهل زماننا . . . فهو كافر من أقبح المشركين وأجهلهم إجماعاً . وإن لم يقصد التعظيم بل سبق لسانه إليه فهذا ليس بشرك أكبر فينهى عنه ويزجر ويؤمر صاحبه بالاستغفار من تلك الهفوة .

وهكذا يرى ابن محمد عبد الوهاب أن مسلماً يمكن أن يعظم مخلوقاً كتعظيم الله أو أكثر فيكون من أقبح المشركين . ونحن نوافقه على ذلك إذا تأكد منه ولم يفترضه افتراضاً .

وفي الحالة الأخرى ، أي عندما يحلف الإنسان بغير الله دون أن تراوده المقارنة مع الله ، كما يفعل جميع المؤمنين ، فإنه ليس هناك أي مانع من ذلك بدليل ما ورد من آيات تحمل قسم الله تعالى بمخلوقاته إذ يقول مثلاً :

﴿ والعصر * إن الانسان لفي خسر ﴾ .

﴿ والعاديات ضبحاً* فالموريات قدحاً* فالمغيرات صبحاً ﴾ .

﴿ والنازعات غرقاً* والناشطات نشطاً* والسابحات سبحاً* فالسابقات سبقاً* فالمدبرات أمرا ﴾ .

﴿ والمرسلات عرفاً* فالعاصفات عصفاً* والناشرات نشراً* فالفارقات فرقاً* فالملقيات ذكراً ﴾ .

﴿ والذاريات ذرواً* فالحاملات وقراً* فالجاريات يسراً* فالمقسمات أمراً ﴾ .

﴿ والصافات صفاً* فالزاجرات زجراً* فالتاليات ذكراً ﴾ .

﴿ والتين والزيتون* وطور سينين* وهذا البلد الأمين ﴾ .

﴿ والضحى* والليل إذا سجى ﴾ .

﴿ والليل إذا يغشى* والنهار إذا تجلى ﴾ .

﴿ والشمس وضحاها* والقمر إذا تلاها* والنهار إذا جلاها* والليل إذا يغشاها* والسماء وما بناها* والأرض وما طحاها* ونفس وما سواها ﴾ .

﴿ والسماء ذات الرجع* والأرض ذات الصدع ﴾ .

﴿ والسماء ذات الحبك ﴾ .

﴿ والسماء ذات البروج* واليوم الموعود* وشاهد ومشهود ﴾ .

﴿ والسماء والطارق ﴾ .

﴿ والنجم إذا هوى ﴾ .

﴿ والفجر* وليال عشر* والشفع والوتر* والليل إذا يسر* هل في ذلك قسم لذي حجر ﴾ .

﴿ ن والقلم وما يسطرون ﴾ .

﴿ والطور* وكتاب مسطور* في رق منشور* والبيت المعمور* والسقف المرفوع* والبحر المسجور ﴾ .

وهكذا فإن الحق تعالى يقسم بغير نفسه :

بالأزمنة والأوقات ، بالفجر والعصر والضحى والليل والنهار واليوم الموعود ،

وبالأجرام السماوية : بالشمس والقمر والأرض والنجم والبحر ،

وبـالمخلوقات التي تجـري بأمـر الله : المغيرات صبحـاً ، والنـازعـات والسابحات والمرسلات والعاصفات والذاريات والصافات ،

وبـالمقدسـات : طـور سينين ، والبلد الأمين والبيت المعمـور والسقف المرفوع والكتاب والقلم وبالنفس. . .

فكيف يكون الحلف بغير الله شركاً أو مكروهاً ؟

فإذا كان الجواب مثلاً إنّ الوهابية تعتبر أن لله الحق أن يقسم بما يشاء دون أن يقاس على ذلك ، فإننا نقول إن الله لا يفعل القبيح من تعظيم مـا لا يجب تعظيمه ، بل إن تعظيمه لمخلوق دليل على ما منحه تعالى إياه من أهمية تجعله محلاً للقسم عند من يتورع عن ذكر اسم الله إلاّ في الحالات الشديدة الضرورة والأهمية ، كحالات الصلاة والدعاء والذكر وما إليها.

وإذا أصرّ معاند على أن ما فعله الله لهذا النحو لا يقلّد فما هو موقفه من قسم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة الصالحين بغير الله وهو ما حملت منه الآثار على أوسع نطاق ومنه مثلاً :

ما جاء في صحيح مسلم : « جاء رجـل الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يارسول الله ، أي الصدقة أعظم أجراً ؟ فقال : أما وأبيك لتنبأنه إن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل البقاء[٤٩].

وما جاء فيه أيضاً : عن النجـدي الذي جـاء يسأل عن الإسـلام من أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أقسم بأبي هذا النجدي بقوله : « أفلح وأبيه إن صدق (أو قال) دخل الجنة وأبيه ان صدق »[٥٠].

وما جاء في مسند أحمد بن حنبـل إذ يقسم صلى الله عليه وآله وسلم بعمـره فيقول : « فلعمري لأن تكلم بمعروف ونهى عن منكر خير من أن يسكت»[٥١] .

وما ورد عن أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي كـان النبي يحب أن يسترجع أشعاره أحياناً وهي التي كان ينشـدها في الـرسول صلى الله عليه وآله وسلم كالذي يقول فيه مقسماً ببيت الله :

كـذبتم وبيت الله نبـزي محمـداً ولـمـا نـطاعن دونـه ونـنـاضـل

وما ورد عن علي (عليه السلام) إلى معاوية مقسماً بعمره كقوله : « لعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني أبرأ الناس من دم عثمان» .

وما ورد عن علي بن الحسين (عليه السلام) من قسم بـ «عمرك» في قوله :

لعمرك إنني لأحب داراً تحل بها سكينة والرباب

وما ورد عن علي الأكبر بن الحسين (عليه السلام) من قسم ببيت الله بقوله:

أنا علي بن الحسين بن علي نحن ـ وبيت الله ـ أولى بالنبي

ومن هنا يسقط المعنى الذي أعطي الى الحديث الموجه الى عمر من تحريم القسم بغير الله ، والقائل : « إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سمع عمر وهو يقول وأبي ، فقال له : إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ومن كان حالفاً فليحلف بالله أو يسكت»(٥٢) .

فالمعنى الذي اعتمدته الوهابية متعارض مع القرآن والسنة ، فالحديث إما مختلق وإما أنه يمنع القسم بالآباء من الجاهليين أو بغيرهم ممن لا منزلة لهم عند الله ، لا بأولياء الله .

استعمال كلمة السيد أو المولى وإضافة كلمة عبد الى الاسم :

يذهب محمد بن عبد الوهاب إلى أن قول أحدهم لآخر : مولانا أو سيدنا هو كفر كقول عبد اللاة والعزى . وقد جاء في الرسالة الأولى من الهدية السنية بقلم عبد العزيز بن محمد بن سعود في ما يأخذه على المشركين (أي المسلمين) أنهم : « يعبّدون لهم أنفسهم كعبد فلان وعبد فلان»(٥٣) .

ولكن هذا المذهب متهافت للأسباب التالية :

فأما كلمة مولى فلها معانٍ متعددة جمع الكثير منها «لسان العرب» وهي تعني الرب والمالك والسيد والمنعم والمعتِق والناصر والمحب والتابع والجار وابن العم والحليف والعقيد والصهر والعبد والمعتَق والمنعَم عليه وقد استخدمت في القرآن الكريم بمعانٍ متعددة أيضاً ، منها بمعنى الرب الذي هو الله سبحانه وتعالى ومنها بمعان أخرى مختلفة تمكن نسبتها إلى الآدميين كقوله :

﴿ يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ﴾ [الدخان/٤١] .
﴿ وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كلٌ على مولاه ﴾ [النحل/٧٦] .
﴿ ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان والأقربون ﴾ [النساء/٣٣] .
﴿ وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً ﴾ [مريم/٥] .
﴿ فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم ﴾ [الأحزاب/٥] .

أما في الحديث الشريف فقد وردت كلمة المولى على نطاق واسع وذلك بمعنى الخادم والتابع والمملوك وإليك بعضها :

«الله ورسوله مولى من لا مولى له» أبو داود فرائض ٨ ، ابن حنبل ج ١ ص ٢٨ ، ٤٦ ، ج٤ ص١٢٢ .

«المولى أخ في الدين ونعمة» الدارمي ، فرائض ٣١ .
«أيما عبد تزوج بغير إذن مواليه فهو زان» الدارمي نكاح ١٦ ، ٤٠ ، ابن حنبل ٣٠١/٣ .
«من كنت مولاه فعلي مولاه» الترمذي مناقب ١٩ ، ابن ماجة مقدمة ١١ ، ابن حنبل ج ١ ص ٨٤ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٥٢ ، ٣٢١ ، البخاري علم ٣١ .

وأما كلمة سيد فهي الأخرى استخدمت في القرآن بحق يحيى (عليه السلام) : ﴿ مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ﴾ [آل عمران/٣٩] . .

كما استعملها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عندما قال عن الحسن بن علي (عليه السلام) : « ابني هذا سيد » البخاري صلح ٩ فضائل أصحاب النبي ٢٢ .

وعندما قال للخزرج : « قولوا لسيدكم » يعني سعد بن معاذ .
وكذلك عندما قال : « لا يقل أحدكم أطعم ربك ، ارضِ ربك إسقِ ربك وليقل سيدي ومولاي» .

« إضافة إلى عدد كبير آخر من الأحاديث التي تزخر بها كتب الصحاح .

أما عن صدقية الوهابيين في هذا المجال فيكفي أن تعرف أنهم لا يستنكرون مخاطبة ملوكهم وأمرائهم بها ، كما ورد في تلك القصيدة التي ألقاها الشاعر المتكسب هارون هاشم رشيد بين يدي فيصل آل سعود والتي جاء فيها :

مولاي ما أبهاك يوم تمتعت ... عيني بوجهك ترتجي وتؤمل
مولاي هذي الأرض نبعٌ للعطا ... هيهات ينضب نبعها أو يبخل
مولاي عشت معززاً ومؤيداً ... بالله في صدق تقول وتفعل
مولاي يا أمل العروبة كلها ... القدس ترقب والمصلّى يسأل
المسجد الأقصى يضج ويسأل ... أيان موعدنا المؤمل فيصل

ونحن إذ نركّز على استخدام كلمة مولاي التي يحرمها الوهابيون لا ننسى مكافأة فيصل لهذا الشاعر الفلسطيني المسكين على كل ما حملته قصيدته من كذب وافتراء على الله وعلى القدس.

أما كلمة عبد فلان ، منسوبة إلى النبي أو إلى الولي والصالح فلا محظور فيها وذلك لاستخدام القرآن الكريم والنبي الأعظم هذه الصيغة.

ففي القرآن الحكيم ورد : ﴿ الحر بالحر والعبد بالعبد . . . ﴾ [البقرة/١٧٨] .

﴿ ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ﴾ [النحل/٧٥] .

﴿ وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم ﴾ [النور/٣٢].

أما في السيرة الشريفة فقد ورد عدد كبير جداً من الأحاديث التي تستخدم كلمة عبد فلان ، ويكفي أن نراجع المعجم المفهرس لألفاظ الحديث حتى نقتنع بشيوع هذه الصيغة على لسان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم دون أي حرج أو تردد ، ولو كانت العبودية محرمة فعلام كان يقوم العتق؟ .

ثم إن صدقية الوهابيين هنا تسقط مرة أخرى في الامتحان ، فقادتهم لم يتورعوا عن تعبيد أنفسهم لفلان أو فلان تزلفاً واستجداء . فهذا فيصل بن تركي نجم الدولة السعودية الثانية التي قامت بعد الحملة المصرية على الجزيرة العربية يوقّع رسائله إلى المسؤولين العثمانيين بلفظة «عبدكم». فقد جاء في كتاب وجهه

المذكور بتاريخ ٣ ذي الحجة ١٢٥٤هـ إلى سليم باشا قائد موقع الجديدة «شمال غرب» المدينة ما يلي[٥٤] :

«دولتلو مرحمتلو سعادة أفندينا سليم باشا صاري عسكر الجديدة دام إقباله بعد تقبيل أياديكم الكرام خلد الله عليكم الفضل والإنعام» .

التوقيع

عبدكم

خاتم فيصل بن تركي

كما جاء في رسالة من عبد العزيز آل سعود أبي الأسرة الحاكمة اليوم الى الباب العالي[٥٥] .

«عبوديتي وخدماتي لمقام الخلافة العثمانية معلومة عند أولياء الأمور . . » .

التوقيع : خادم الدولة العلية أمير نجد ورئيس عشائرها عبد العزيز آل سعود .

كما جاء في برقية وجهها عبد العزيز إلى المندوب البريطاني السير يرسي كوكس بمناسبة احتلال الإنكليز للبصرة .

«سيدي يرسي كوكس مندوب بريطانيا العظمى دام عزها .

دخول جيوشكم الإنكليزية العظيمة للعراق نصر مبين للمسلمين وعز مكين لنا .

عبوديتنا وخدماتنا لبريطانيا العظمى وولاؤنا لكم الى الأبد .

خادمكم

أمير نجد وعشائرها

عبد العزيز آل سعود

تكريم مواليد أولياء الله ووفياتهم :

يعتبر عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب من البدع المذمومة « الاجتماع في وقت مخصوص على من يقرأ سيرة المولد الشريف اعتقاداً أنه قربة مخصوصة

مطلوبة دون علم السير فإن ذلك لم يرد »(٥٧).

أما محمد حامد الفقي مؤلف كتاب : « أثر الدعوة الوهابية في الإصلاح الديني والعمراني في جزيرة العرب » وهو من مداح الملوك والأمراء(٥٨) فيقول في كتاب «الفتح المجيد» : « إن الذكريات التي ملأت البلاد باسم الأولياء هي نوع من العبادة لهم وتعظيمهم » . والاحتفالات المشار إليها هي في الحقيقة مهرجانات تكريم لأولئك الذين أدّو الخدمات الجليلة للإسلام ، وهذا التكريم لا يرفعهم إلى درجة الربوبية بأي حال من الأحوال ، إنما هو فقط تعبير عن العرفان لرجال جاهدوا في سبيل الله فكان الله تعالى عنهم راضياً ، وعلى رأسهم رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم الذي قرن الله ذكره بذكره تعالى كما قرن صلى الله عليه وآله وسلم ذكر آله بذكره وذلك في التشهد والصلاة : بالقول : أشهد أن لا آله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وهو المفتاح لدخول باب الإسلام وبالقول اللهم صل على محمد وآل محمد.

أما أولياء الله المؤمنين فقد كرّمهم الله تعالى ومدحهم في العديد العديد من آي الذكر الحكيم.

وأما الكلام على البدعة وفي كون إحياء مولد رسول الله منها فإننا نكتفي هنا بالتوضيح الذي ورد في كتاب «التحفة الذكية» للشيخ عبد القادر الإسكندراني في شأن ابن عبد الوهاب إذ يقول(٥٩) : « واعجباً لمن تلبّس بالبدع في غالب أقواله وأعماله وأحواله من حيث لا يشعر ، كيف يسمي السنة بدعة بدعوى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يعملها مع علمه بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها » الحديث . فهذا الحديث يَعِدُ من سن تكريم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والصالحين بالأجر على عملهم هذا وعلى الأعمال التكريمية التي يقوم بها سائر العباد على نهجه إلى يوم القيامة.

النحر والذبح عند القبور :

يقول الوهابيون : إن المسلمين يشركون بالذبح والنحر عند القبور ، لأنهم بذلك يقربون القرابين لها كما كان يفعل أهل الجاهلية . فقد انطلق محمد بن

عبد الوهاب[٦٠] من الآية الكريمة : ﴿ **فصلِّ لربك وانحر** ﴾ ليقرن النحر بالصلاة ويعتبرهما معاً لله وحده.

كما قال الصنعاني في العديد من رسائله : إن نحر النحائر للأولياء شرك.

ونحن هنا لن ندخل في بحث معنى النحر الوارد في الآية الكريمة. وسنأخذ بالمعنى الظاهر وفي هذه الحالة يمكننا القول : إن النحر لله هو نحر يُتقرب إلى الله تعالى به من طريق التصدق بلحم المنحور على الفقراء والمساكين ، فهو لا يمكن أن يكون غير ذلك ، لأن الله تعالى ليس بحاجة للمنحور ، والعبادة لا تكون بالنحر المجرد دون التوزيع على الفقراء كما كان يفعل اليهود بإحراق الذبيحة بعد رش دمها على أجزاء من الهيكل أو كما كان يفعل الوثنيون.

ومن هنا فإن النحر يجب أن يجري حسب القواعد الشرعية بما فيها ذكر اسم الله ، وبعد هذا الشرط يمكن أن ينحر لأي إنسان تكريماً له أو قرى بدليل أن النبي إبراهيم (عليه السلام) ذبح لأضيافه عجلاً ولم يكن يعرف أنهم من الملائكة وذلك كما جاء في الآية الكريمة : ﴿ **قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ** ﴾ [هود/٦٩].

هذا ولم يمنع النبي صلى الله عليه وآله وسلم النحر والذبح للأضياف أو للفقراء أو للمساكين.

أما أن يجري النحر والذبح عند قبر ولي فهذا يعني أنه يفعل لوجه الله تعالى وقربة إليه واستجابة لأمره كي يتم التصدق باللحم ويهدى الثواب إلى صاحب القبر ، فهل أتى تحريم إهداء الثواب في قرآن أو سنة أو أي مصدر من مصادر التشريع ؟.

إن المعروف هو عكس ذلك ، فإضافة إلى سيرة المسلمين المستمرة على ذلك هناك عدة أحاديث تؤكد جواز النحر عن الغير ، بمعنى إهداء الثواب أو رفع الواجب ومنها :

حديث نحر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أزواجه . [البخاري حج ١١٥ ، مسلم حج ٣٥٧ ، مالك ، الموطأ ١٧٩] .

حديث نحر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آل محمد (عليهم السلام) في حجة الوداع . [أبو داود مناسك ١٣ ، ابن ماجة أضاحي ٥ ، ابن حنبل ٢٤٨/٦] ، إضافة إلى الأحاديث التي تؤكد جواز التصدق عن الغير بمعنى إهداء الثواب ومنها :

حديث الرجل الذي وافق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أن يتصدق عن أمه . [البخاري جنائز ٩٥ ، وصايا ١٩ ، مسلم زكاة ٥١ ، ابن حنبل ٥١/٦] .

أما إذا كان الاعتراض على النحر والذبح بسبب كونه يجري في مكان مخصوص أحياناً ، فإن هذا لا شيء في الشرع يحرمه إلا إذا كان المكان من الأمكنة التي كانت تحتوي على الأوثان والأنصاب قبل الإسلام ، وهو ما تأكد من سماح الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالذبح والنحر في «بوانة» أو غيرها .

فقد جاء عن ثابت بن الضحاك : « نذر رجل على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن ينحر إبلاً ببوانة ، فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : إني نذرت أن أنحر إبلاً ببوانة . فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد ؟» قالوا : لا ، قال : « هل كان فيها عيد من أعيادهم ؟» قالوا : لا . قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أوفِ بنذرك . . . » . [أبو داود ج٣ ص ٢٣٨] .

كما جاء أن امرأة جاءت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت : « إني نذرت أن أذبح بمكان كذا وكذا (مكان كان يذبح فيه بالجاهلية) قال : «لصنم ؟» قالت : لا . قال : «لوثن ؟» قالت : لا . قال : « أوفي بنذرك » . [أبو داود ج٣ ص٢٣٨] .

النذر :

النذر هو أن ينوي الإنسان أداء مال أو القيام بطاعة على شرط تحقق أمر معين ، وهو لا يكون إلا لله ، على أن يستفيد منه حال كونه مادياً ، أناس محددون بذاتهم أو بخاصية يشتركون فيها ، أما ثوابه فيهدى إلى إنسان عادي أو ولي أو نبي .

وقد اعتبرت الوهابية أن من المسلمين من ينذرون لنبي أو ولي فيكونون كالمشركين الذين يذبحون لأوثانهم ، ويمسون بهذا كافرين عابدين لغير الله تعالى .

فقد جاء في كتاب الوهابيين إلى شيخ الركب المغربي أن من جملة أسباب الشرك ، التقرب إلى الموتى بالنذور باعتبار أنه نوع من العبادة ، وصرف شيء من العبادة لغير الله كصرف جميعها .

كما اعتبره الصنعاني شركاً في العبادة(٦١) .

والوهابية في هذا يسيرون على خطى ابن تيمية الذي يقول : « من نذر شيئاً للنبي أو غيره من النبيين والأولياء من أهل القبور ، أو ذبح ذبيحة كان كالمشركين الذين يذبحون لأوثانهم وينذرون لها ، فهو عابد لغير الله فيكون بذلك كافراً » .

غير أن ابن تيمية والوهابيين من بعده ينطلقون في هذا الأمر من مسلّمتهم المعروفة وهي أن المسلمين والمشركين سواء ، وما يصح على الآخرين يصح على الأولين ، وبهذا هم يتجاهلون أن الأعمال إذا حملت شيئاً من التشابه تكون النية هي الفيصل في الحكم الشرعي .

وهكذا فهم يتجاهلون أن المسلم ينذر لله ، وهو أمر مقبول ، وقد حث الله عليه أو تقبله على الأقل . فقد خاطب تعالى مريم (عليها السلام) قائلاً : ﴿ فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً ﴾ [مريم/ ٢٦] .

كما جاء في سورة آل عمران/ ٣٥ ﴿ رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً ﴾ .

بل إنه تعالى مدح الإيفاء بالنذر بقوله في وصف عباده الأبرار : ﴿ يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ﴾ [الإنسان/٧] . وقوله مخاطباً المؤمنين مطمئناً إياهم : ﴿ وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار ﴾ [البقرة/ ٢٧٠] .

ومن جهة أخرى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بإيفاء النذر عمن نذر ثم مات . فعن ابن عباس : « أن امرأة نذرت أن تحج فماتت . فجاء أخوها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسأله عن ذلك فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لو كان عليها دين أكنت قاضيه ؟ قال: نعم . قال : فاقضوا النذر

فالنذر أحق بالوفاء » . [الدارمي ج٢ ص١٨٣] .

وعن ابن عباس أيضاً « أن سعد بن عبادة استفتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في نذر كان على أمه فتوفيت قبل أن تقضيه . قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : فاقضه عنها » . [مسلم ج٥ ص ٧٦].

ولما كان العبد يثاب بالنذر ، فله أن يهدي الثواب إلى من يشاء من الأنبياء والأولياء وغيرهم فيكون النذر لله ويكون ثوابه لشخص معين ويستفاد منه في حال كونه مالاً في أوجه البر والخير.

البكاء على الميت :

يمنع الوهابيون النساء من سنة إلى سنة من دخول البقيع والبكاء على القبور بل ويعاقبون عليه أحياناً ، علماً بأن هذا البكاء مسألة فطرية طبيعية ، إذ أن الإنسان لا يتمالك نفسه من البكاء أحياناً أمام المصائب التي لا يملك لها رداً ، كما أنه يبكي أسفاً على فقدان عظيم يعتقد أنه لا يعوض ، فأي معصية في ذلك ؟ .

لقد أخبرنا القرآن عن يعقوب النبي (عليه السلام) أنه بكى يوسف بعد فقده حتى ﴿ . . . وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم ﴾ [يوسف/٨٤] .

كما أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يبكي على من فقدهم .

فقد بكى عند فقد ابنه إبراهيم[٦٣] وبكى إذ رأى صفية بنت عبد المطلب تبكي عمه حمزة بن عبد المطلب[٦٤] كما تأثر لدى سماعه بكاء نساء الأنصار شهدائهن في أحد فقال: ولكن حمزة لا بواكي له[٦٥]، ثم أنه نعى جعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة وعيناه تذرفان[٦٦] ، وهو أخيراً زار قبر أمه وبكى وأبكى من حوله[٦٧] .

على أن البعض يمكن أن يتذرع بكلام منسوب إلى عمر موجه لصهيب الذي كان يبكي الخليفة بعد طعنه والذي جاء فيه: «إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه» ولكن هذا الحديث لم يثبت صدوره عن الرسول (ص) بدليل ما سبق وبدليل أن ابن عباس ذكره لعائشة فقالت:

والله ما حدث رسول الله (ص) «أن الله ليعذب المؤمن» ولكن «ان الله ليزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه»[٦٨].

كما ذكر ابن عمر ذلك عن رسول الله (ص). فقالت عائشة إنه «وَهِلَ»[٦٩] إنما قال رسول الله (ص): «انه ليعذب بخطيئته أو بذنبه وأن أهله ليبكون عليه»، وقالت ان جنازة يهودي مرت وأهله يبكون فقال (ص): «أنتم تبكون وإنه ليعذب».

بناء القبور وتجصيصها :

تعتبر الوهابية البناء على القبور شركاً وإلحاداً . فقد جاء في كتاب « فتح المجيد شرح كتاب التوحيد » ص ٤٨١ إن تعلية القبور من ذرائع الشرك ووسائله وفي الصفحتين ٣٢ و٣٤٨ أن تجصيص القبور يشبه تعظيم الأصنام.

كما جاء في رسالة « تطهير الاعتقاد من أدران الإلحاد» الصفحة ٤٨ أن المشاهد والقباب على القبور هي أعظم ذريعة للشرك والإلحاد وأكبر وسيلة إلى هدم الاسلام وخراب بنيانه . كما جاء في الصفحة ٣٨ أن « هؤلاء القبوريين سلكوا مسالك المشركين حذو القذة بالقذة».

وجاء أيضاً في الصفحة ٥٢ أن تسمية القبر مشهداً ومن فيه ولياً لا يخرجه عن اسم الصنم والوثن . وفي الصفحة ٣٤ أن الذين يعتقدون بالقبور والأولياء مشركون كالذين يعتقدون بالأصنام فقد « حصل منهم ما حصل من أولئك وساووهم في ذلك بل زادوا في الاعتقاد والانقياد والاستعباد فلا فرق بينهم » .

وأخيراً جاء في الرسالة الرابعة المنشورة في الهدية السنية ، وهي بقلم أحمد بن ناصر بن عثمان المعمري النجدي حين « ناظر » علماء الحرم الشريف في شيء من أمور الدين :

«وأما المسألة الثالثة فقالوا : «هل يجوز البناء على القبور؟» .

فنقول : ثبت في الصحيحين والسنن عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نهي عن البناء على القبور وأمر بهدمه كما رواه مسلم في صحيحه حيث قال :

حدثنا يحيى بن وكيع عن سفيان بن حبيب عن أبي ثابت عن أبي وائل عن أبي الهياج الأسدي قال : قال علي (عليه السلام) : ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أن لا أدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً مشرفاً إلا سويته ».

حدثنا أبو بكر بن شيبة قال حدثنا حفص بن غياث عن ابن جريج عن أبي الزبير عن جابر (رضي الله عنه) قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يجصص القبر وأن يبنى عليه وأن يكتب عليه ، استشهد بحديث هرون بن سعيد الإبلي عن وهب عن عمرو بن الحارث عن تمامة (بن شفي) أنه كان مع فضالة بن عبيد بأرض الروم برودس فتوفي رجل معهم فأمر فضالة بقبره فسوي ثم قال : «سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يأمر بتسويتها .

ثم استشهد بحديث أبي الهياج الأسدي عن طريق محمد بن بشار عن عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان عن حبيب عن أبي ثابت عن وائل . كما استشهد بحديث التجصيص عن طريق زهير بن مروان عن عبد الرزاق عن أيوب عن أبي الزبير . هذا وجاء من جهة ثانية في سؤال ابن بلهيد لعلماء المدينة المنورة : « ما قول علماء المدينة المنورة زادهم الله فهماً وعلماً في البناء على القبور واتخاذها مساجد . هل هو جائز أم لا؟ .

وإذا كان غير جائز بل ممنوع ومنهي عنه نهياً شديداً فهل يجب هدمها ومنع الصلاة عندها أم لا؟ .

وإذا كان البناء في مسبلة (موقوفة في سبيل الله) كالبقيع وهو مانع من الانتفاع بالمقدار المبني عليه . فهل هو غصب يجب رفعه لما فيه من ظلم المستحقين ومنعهم استحقاقهم أم لا؟».

هذا الموقف مستمد من ابن القيم الجوزية ، تلميذ ابن تيمية الذي يقول : « يجب هدم المشاهد التي بنيت على القبور ولا يجوز إبقاؤها بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوماً واحداً».

وبناء على هذا الرأي هدم الوهابيون القبور والقباب في البقيع وغيرها كما

سنرى .

ولعل أول ما يلفت النظر في موقف الوهابيين هذا هو تناقضه مع مواقف المسلمين منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى اليوم . فكيف سها عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والصحابة والتابعين وتابعي التابعين وسائر أجيال المسلمين اللاحقة . فقد كانت القبور المظللة بالبناء قائمة في البلدان التي افتتحت على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفي عهد أبي بكر وعمر وما تلاها . كما أن المسلمين بنوا مثلها ولم يستنكر أحد ذلك . فهل كان أبو الهياج الأسدي وحده مكلفاً بمهمة تهديم القبور ؟ .

وإذا كان الامام علي (عليه السلام) قد أوصى حقيقة أبا الهياج وكان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حقيقة أوصى ، حسب رواية أبي الهياج ، علياً مرة بذلك ، فلماذا لم يكن يوصي دائماً بذلك وهو الذي بعث العديد من القادة فاستولوا سلماً أو حرباً على مواقع المشركين والكفار ، كما أنه غزا بنفسه ولم يؤثر عنه هدم القبور أيضاً . ولما استولى مثلاً على خيبر لم ينقل التاريخ ، رغم كل ما نقله من تعاليم ، هدماً للقبور . كما لم ينقل عنه صلى الله عليه وآله وسلم مثل ذلك عند فتح مكة ، بل كان يهدم أو يأمر بهدم الأصنام والأوثان كما فعل في مكة مثلاً أو كما أمر أبا سفيان والمغيرة بن شعبة اللذين أرسلهما مع وفد ثقيف بعد إسلامهم فأمرهم بهدم اللات والعزى ولم يأمرهما بهدم القبور العالية[٧٠] . وكذلك لم يؤثر عن أبي بكر في وصاياه لقواد المسلمين أنه أمرهم بهدم القبور أو التعرض لها . فقد أوصى المسلمين في بعث اسامة بنفس وصايا الرسول إذ يقول[٧١] : « لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية الطعام فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فأخفقوهم بالسيف خفقاً . . . » فهل نسي أن يوصيهم بهدم القبور إن وجدوها ؟ .

وكذلك عمر فهو لم يوصِ أميراً من أمرائه المتوجهين إلى بلاد الشام أن يهدموا القبور ولا هو بادر إلى ذلك عند سفره إلى بيت المقدس لتسلمه وكان فيها وفي جوارها قبور عدد من الأنبياء كقبر دادو (عليه السلام) في القدس وقبور إبراهيم واسحاق ويعقوب ابنيه ويوسف (عليه السلام).

أما عن البناء على قبور المسلمين فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دفن في حجرة مبنية كما هو معلوم ، وكان يعاد بناؤها حيناً بعد حين . كما أن الأبنية والقباب على القبور عرفت في جميع الأدوار[٧٢].

وكذلك الكتابة على القبور ، فهي معروفة منذ العصر الاسلامي الأول . فقد وجد في دار عقيل بن أبي طالب حجر مكتوب عليه : هذا قبر أم حبيبة بنت صخر بن حرب.

أمّا ما ورد عن قاضي الوهابية ابن بلهيد في سؤاله علماء المدينة المنورة من كون البقيع « مسبلة » أي موقوفة في سبيل الله فإن أياً من الآثار لم يحمل ذلك . ولم يمنع أحد من الحكام البناء على القبور فيها كما لم يفتِ أحد من العلماء بهدم ما زاد من استعمال الأرض حول القبور مما يمنع انتفاع الآخرين ويحد منه . وإذا كان لنا أن نحمل أفعال المسلمين على الصحة كما هو الواجب ، ما لم يأتِ دليل على العكس فإن التعرض لما بني هو المخالفة . لأن ما بني بني على مرأى من المسلمين عامتهم وحكامهم وعلمائهم على مر الدهور وذلك قرينة على جوازه.

هذا مع العلم أن الوهابيين هدموا ليس فقط ما كان في ما اعتبروه الأملاك العامة فقط بل وأيضاً ما كان في أملاك خاصة كدور بعض الصحابة المعروفين[٧٣] الذين ما كان الدفن والبناء في أملاكهم يمكن أن يجري إلا برضاهم ، فمقابر بني هاشم كانت في دار عقيل بن أبي طالب[٧٤] وقبر ابراهيم ابن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان في الزوراء في الدار التي صارت لمحمد بن زيد بن علي وكان على القبر قبة صغيرة.

هذه الوقائع تدفعنا إلى تفحص الأحاديث التي يستند إليها الوهابيون لمعرفة سبب التناقض .

أ ـ حديث أبي الهياج الأسدي : القائل : « ألا تدع تمثالاً إلا طمسته ولا

قبراً مشرفاً إلا سويته» .

الملاحظ أنه ميز بين التعامل مع التمثال والتعامل مع القبر المشرف ، فالأول يطمس والثاني يسوى .

إذاً فالقبر المشرف لا يطمس فما معنى القبر المشرف وما معنى يسوّى؟ .

القبر المُشْرِف : هو القبر العالي والمطل على غيره بحسب المعنى الموجود في المنجد وفي القاموس .

والمُشَرَّف من البيوت هو ذو الشُرَف .

والشرفة ما أشرف من البناء .

أما الشَرَفة فهي واحدة الشَرَفات وهي مثلثات أو مربعات تبنى متقاربة في أعلى سور أو قصر . فإذا بنيت الشرفات على القبر ، وهي تكون أصغر من شرفات الأسوار والقصور بالضرورة، فيكون القبر عند ذلك مشرَّفاً. وهكذا فيكون المقصود تسوية القبر المشرَّف ، أي إزالة شرفاته.

وهكذا نصبح أمام احتمالين بناء على قراءة لفظة «مشرف» .

فإما أن يكون القبر المشرِف واجباً تسويته ، وإما أن تكون التسوية واجبة للقبر المشرَّف.

أما كلمة سوّي: من سوّى الشيء فتعني جعله سوياً كتسوية المعوج ليستوي ، وهي لا تعني تسوية الشيء بالأرض.

ومن هنا يصبح الحديث محتملاً أن يعني : أن لا تدع قبراً عالياً (أي في مكان عال) أو أن لا تدع قبراً ذا شَرَفات إلا جعلته مستوياً .

ولما كان يصعب فهم تسوية القبر العالي إلا إذا كان المعنى تسويته بالتراب وهو مستبعد ، فإنه يبقى أن الاحتمال الآخر هو الأرجح ، أي أنه يجب تسوية القبر ذي الشرف أي جعل سطحه مستوياً.

هذا من جهة مضمون الحديث ، أما لجهة سنده فإنه ورد في صحيح مسلم : « حدثنا يحيى وأبو بكر بن أبي شيبة وزهير بن حرب قال يحيى : أخبرنا ـ وقال الآخر : حدثنا ـ وكيع عن سفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن

أبي وائل عن أبي الهياج الأسدي.

إذاً يرد في السند وكيع ، سفيان الثوري ، حبيب بن أبي ثابت ، أبو وائل الأسدي.

وهؤلاء الأربعة طعن ابن حجر العسقلاني في صحة أحاديثهم.

● فوكيع حسب رأي الإمام أحمد بن حنبل ، إمام المذهب الحنبلي الذي يدّعي الوهابيون الانتماء إليه ، أخطأ في خمسمائة حديث(٧٥) ، وقال المروزي : « إنه كان يحدّث بالمعنى ولم يكن من أهل اللسان »(٧٦).

● وسفيان الثوري ، حسب رأي العسقلاني مدلس(٧٧).

● وحبيب أبي ثابت كان مدلساً أيضاً(٧٨).

● وأبو وائل كان منحرفاً عن علي (عليه السلام) ناصباً له العداء فلا يعتمد على حديثه(٧٩).

وأما حديث ثمامة فهو متعلق بالتسوية بمعنى التسطيح.

وأما حديث جابر فقد ورد بصور مختلفة وحوت سلسلة سنده فيما حوت شخصين هما ابن جريج وأبو الزبير ، وأما صوره فهي التالية :

● ورد في صحيح مسلم ، باب النهي عن تجصيص القبر والبناء عليه : « حدثنا أبو بكر بن شيبة ، حدثنا حفص بن غياث عن ابن جريج عن أبي الزبير عن جابر قال : . . . ».

● وورد أيضاً : « حدثني هرون بن عبد الله ، حدثنا حجاج بن محمد وحدثني محمد بن رافع ، حدثنا عبد الرزاق جميعاً عن ابن جريج قال أخبرني الزبير أنه سمع جابراً بن عبد الله يقول : سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم (مثله) ».

● وورد حدثنا يحيى بن يحيى أخبرنا إسماعيل بن علية عن أيوب عن أبي الزبير عن جابر قال : « نهي عن تقصيص القبور (أي تجصيصها) ».

● وجاء في سنن الترمذي « باب كراهة تجصيص القبور والكتابة عليها » : عبد الرحمن بن الأسود عن محمد بن ربيعة عن ابن جريج عن أبي الزبير عن جابر قال : « نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن تجصيص القبور وأن يكتب عليها وأن يبنى عليها وأن توطأ ».

● وجاء في سنن ابن ماجة في النهي عن البناء على القبور وتجصيصها والكتابة عليها[٨٠] ما يلي :

● أزهر بن مروان ومحمد بن زياد عن عبد الوارث عن أيوب عن أبي الزبير عن جابر : « نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن تجصيص القبور» .

● عبد الله بن سعيد عن حفص عن ابن جريج عن سليمان بن موسى عن جابر : « نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يكتب على القبر شيء » .

وجاء في سنن النسائي في باب البناء على القبور ما يلي[٨١] :

● يوسف بن سعيد عن حجاج عن ابن جريج عن أبي الزبير عن جابر : « نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن تجصيص القبور أو يبنى عليها أو يجلس عليها أحد » .

● عمران بن موسى عن عبد الوارث عن أيوب عن أبي الزبير عن جابر : « نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن تجصيص القبور » .

أما في سنن أبي داود[٨٢] باب البناء على القبر فجاء ما يلي :

● حدثنا أحمد بن حنبل حدثنا عبد الرزاق أخبرنا ابن جريج أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابراً يقول : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نهى أن يقعد على القبور وأن يقصص ويبنى عليه » .

● حدثنا مسدد وعثمان بن أبي شيبة قالا : « ثنا حفص بن غياث عن ابن جريج عن موسى بن موسى وعن أبي الزبير عن جابر بهذا الحديث . قال أبو داود : قال عثمان : « أو يزاد عليه » . وزاد سليمان بن موسى : « أو أن يكتب عليه » ولم يذكر مسدد في حديثه « أو يزاد عليه » . قال أبو داود خفي عليّ من حديث مسدد حرف «وإن» .

وجاء في مسند أحمد بن حنبل[٨٣] :

● عبد الرزاق عن ابن جريج عن أبي الزبير عن جابر : سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ينهى أن يقعد الرجل على القبر وأن يجصص وأن يبنى عليه .

وهكذا فإن هذا الحديث ورد بصور مختلفة غاية الاختلاف حتى لتكاد أحياناً أن لا تجد أية رابطة بين الصورة والأخرى .

فصورة منه نهى عن التجصيص والاعتماد وصورة نهى عن التجصيص وصورة نهى عن التجصيص والكتابة والبناء والوطء وصورة لم يرد فيها التجصيص بل فقط الكتابة وصورة ورد فيها نهي عن القعود والتقصيص والبناء والكتابة ، وصورة ورد فيها نهي عن التجصيص والبناء فقط فأيها الصحيح ؟ الله وحده يعرف ذلك .

وإذا عدنا إلى السند فإننا نجد فيه ابن جريج باستمرار وهو رجل اعتبره ابن حجر العسقلاني في تهذيبه ضعيفاً واعتبره ابن حنبل أنه يأتي بمناكير[٨٤] واعتبره مالك حاطب ليل[٨٥] .

وهكذا يتهافت الحديث وتتلاشى الحجة التي سمح الوهابيون بموجبها لأنفسهم أن يستبيحوا الدماء والأعراض والأموال ويهدموا قبور رجالات الإسلام وأولياء الله وخاصة أهل البيت النبوي الشريف .

وأخيراً وبعد استبعاد هذه الأحاديث بالشكل الذي وردت فيه يبقى أن ننظر في ما إذا كان هناك من مانع عقلي يعارض السنة المتبعة .

بداية لا بد من التأكيد أن التقليد المتبع ليس بحاجة كي يكون سنة إلى أي مؤيد من خارجه لأنه يمثل إجماعاً متواصلاً متوالياً مدة قرون طويلة على مرأى ومسمع من المسلمين علماءً وحكاماً وشعوباً فلم يستنكره إلا ابن تيمية والذين ساروا على نهجه . ونحن إذ نخضعه لحكم العقل فليس من أجل الحكم بجوازه أو عدم جوازه بل من أجل معرفة ما إذا كان يخدم الإسلام أم لا .

إن بناء القبور يؤدي إلى تحديدها ومعرفتها ، فقد علَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم قبر الصحابي عثمان بن مظعون بصخرة وضعها عليه[٨٦] وذلك ليُهتدى إليه . وتعيين القبر يسمح بزيارته وإهدائه الثواب والتبرك ، والوقوف عنده للتأمل وتذكّر صاحبه وما أسداه من خدمات للإسلام ، الأمر الذي قد يدفع إلى الاقتداء بصاحبه . والبناء إلى جانب كونه تكريماً لمن كرّمهم الله وتقرباً إليه تعالى بذلك فهو يسمح للزائرين بالتظلل والصلاة وقراءة القرآن والدعاء ، ويمنع الإندراس كما يمنع من دخول الحيوانات وتنجيسها وما إلى ذلك ، وليس في كل هذا إلا مما يحضّ عليه الدين الحنيف .

ومن جهة أخرى فإن قبور الأنبياء والشهداء اعتبرت من شعائر

الإسلام[٨٧] ، بل من شعـائر الله[٨٨] ﴿ **ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب** ﴾ [الحج/٣٢] .

اتخاذ المساجد على القبور :

يقول ابن تيمية في رسالة «زيارة القبور»[٨٩] : « قال علماؤنا : لا يجوز بناء المسجد على القبور » وأضاف : « إن الآيات والأخبار الواردة في المساجد لم يرد مثلها في المشاهد بل ورد النهي عن اتخاذ القبور مساجد ولعن من يفعل ذلك » .

وقد استند الموقف من اتخاذ المساجد على القبور إلى عدة أحاديث وهي :

ما جاء في صحيح البخاري في باب كراهية اتخاذ المساجد على القبور[٩٠] وفي غيره من الصحاح .

● لما مات الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (عليه السلام) ضربت امرأته القبة على قبره سنة ثم رفعت فسمعوا صالحاً يقول : « ألا هل وجدوا ما فقدوا ؟ » . فأجابه الآخر : « بل يئسوا فانقلبوا » .

● لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مسجداً ، قالت عائشة : لولا ذلك لأبرزوا قبره غير أني أخشى أن يتخذ مسجداً .

وما جاء في صحيح مسلم[٩١] :

● حدثني زهير بن حرب حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا هشام ، أخبرني أبي عن عائشة : « أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأتاها في الحبشة فيها تصاوير لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة » .

إن أول ما يلفت النظر في هذه الأحاديث تناقضها مع صريح الآية الكريمة ، التي تتكلم على أصحاب الكهف الذين اختلف الناس فيما يفعلون تجاههم ، فقال بعضهم : ﴿ **ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم** ﴾ [الكهف/٢١] و ﴿ **قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذنّ عليهم مسجداً** ﴾ [الكهف/٢١] . وهكذا يورد الله موقف الفئة التي غلبت في هذا الأمر والتي رأت أن يتخذ عليهم مسجد ،

دون أن يستنكر هذا الرأي مما يعني جوازه .

وإذا راجعنا موقف المسلمين منذ فجر الإسلام نجد مثلاً أن قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أصبح في وسط المسجد في غرفة بعد أن كان إلى جانبه وكان ذلك منذ خلافة الوليد بن عبد الملك ، كما وسّعه عمر بن عبد العزيز . وجاء في «وفاء الوفا»(٩٢) أن قبر فاطمة بنت أسد أم علي بن أبي طالب (عليه السلام) موجود في موضع المسجد الذي يقال له اليوم قبر فاطمة ، وهذا الخبر عن لسان محمد بن علي بن أبي طالب المتوفى سنة ٨١ هـ . كما كان على قبر حمزة مسجد كما في المصدر ذاته(٩٣) وذلك برواية عبد العزيز بن عمران في المائة الثانية(٩٤) .

ومن هنا فانا نرانا مضطرين إلى إعادة النظر في الأحاديث وحمل ما يصح من أجزائها على المعاني التي لا تتناقض مع القرآن والسنة الفعلية الاجماعية .

فحديث زوجة الحسن بن الحسن (عليه السلام) يدل على صحة اتخاذ القبة لأنها اتخذت سَنَةً ولم يمنعها أحد ذلك فهل يمكن أن يسكت جميع المسلمين على الشرك والالحاد؟ .

أما ما نسب إلى «الصالحين» من شماتة فلا يعتد به كمصدر للتشريع لأن كلام «الصالحين» الذين من هذا النوع ، أي من العالم غير الحسي لا يمكن الركون إليه واستنباط الأحكام على أساسه حتى ولو كانا صالحين فعلاً .

وأما أحاديث اتخاذ المساجد على القبور ، فمنها ما يشير إلى وضع الصور والتماثيل ، وهذا الأمر وخاصة مسألة وضع التماثيل لا خلاف عليه بين المسلمين .

ومنها ما يشير الى اتخاذ المساجد ، ولعل المقصود بها تحريم التوجه في السجود الى القبر ، فالمصلي يجب أن لا يترك القبلة في أي حال من الأحوال ويتوجه إلى أية جهة أخرى . فإذا أخذت الأحاديث بهذا المعنى فهي تنسجم مع القرآن ومع السنة المتبعة عند جميع المسلمين . أما إذا أخذت بالمعنى الذي يتشبث به الوهابيون فهي تصادم القرآن وما درج عليه المسلمون منذ العصر الإسلامي الأول الذي لا يعترض الوهابيون على ما درج أبانه وبعده حتى المئة

الثالثة كما هو معروف .

الإسراج على القبور :

ورد في الرسالة الرابعة المعنونة : « الفواكه العذاب » من « الهدية السنية » بقلم أحمد النجدي : « لعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أسرجها (القبور) ، والذي رأيته في مكة ، شرّفها الله ، في المقبرة أكثر من مئة قنديل ، هذا مع علمكم بأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعن فاعله ، فقد روى ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعن زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج ، رواه أهل السنن » .

والواقع أن الحديث ورد في سنن النسائي عن قتيبة عن عبد الوارث بن سعيد عن محمد بن جحادة عن أبي صالح عن ابن عباس .

أما سند هذا الحديث فمطعون به لاحتوائه على عبد الوارث وأبي صالح ، في سنن النسائي . فعبد الوارث، وهو عبد الوارث بن سعيد بن ذكوان التميمي العنبري التنوري ، جاء عنه في « تهذيب التهذيب » : « قال عنه أبو علي الموصلي . . قلما جلسنا الى حماد بن زيد إلا نهانا عن عبد الوارث وجعفر بن سليمان» .

وأما سنده في سنن ابن ماجة فقد جاء من طريقين : أولهما مطعون به لاحتوائه على عبد الله بن عثمان ، وهو عبد الله بن عثمان بن إسحق بن سعد بن أبي وقّاص الزهري . وقد جاء في « تهذيب التهذيب » بخصوصه ، قال عثمان : قلت لابن معين كيف هو ؟ قال : لا أعرفه . وقال أبو حاتم : شيخ يروي أحاديث مشتبهة . وقال ابن عدي : هو مجهول . وذكره الأزدي في الضعفاء وذكره ابن يونس في الغرباء .

وثانيهما أيضاً مطعون به لاحتوائه على أبي عوانة الوضاح وهو غير معروف .

بقي أن نرجع إلى التقليد القائم على الإسراج ، وهو سنة متبعة ، فهل هناك من الناحية الفعلية من محظور فيه ؟ .

إننا لا نعتقد ذلك البتة ، بل نرى أنه مفيد لأن الاسراج على قبور الأنبياء والصالحين إضافة إلى أنه تكريم لهم فهو أيضاً يتيح إيواء الفقراء والمتعبدين ليلاً كما يسمح بقراءة القرآن والدعاء في مكان مبارك .

الصلاة عند القبر والتوجه إليه عند الدعاء :

تكفّر الوهابية وتشرّك من يقوم بالصلاة عند قبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وقبور الصالحين أو يتوجه إليها بالدعاء ، حيث ورد في كتاب « فتح المجيد » ص ٣٢ أن الصلاة عند القبور تشبه تعظيم الأصنام ، وذلك تأسيساً على موقف ابن تيمية الذي يعلن في رسالة « زيارة القبور »[٩٥] أن الصحابة كانوا إذا جاؤوا قبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم سلّموا ، وإذا أرادوا الدعاء فلم يكونوا يتوجهون إلى القبر الشريف ، بل يتوجهون الى القبلة بعد أن ينحرفوا عن القبر . ويضيف أنه لم يذكر أحد من أئمة السلف أن الصلاة مستحبة عند القبور والمشاهد أو أن الدعاء هناك أفضل منه في غيرها ، بل اتفقوا كلهم على أن الصلاة في المساجد والبيوت أفضل منها عند القبور.

أما عبد العزيز الأول فهو على ما يبدو أكثر تساهلاً في مسألة الصلاة وأكثر تشدداً في الباقي فقد جاء في الهدية السنية[٩٦] : « قال الإمام مالك (رضي الله عنه) في ما ذكره إسماعيل بن إسحق في المبسوط والقاضي عياض في « الشفاء » و « المشارق » وغيرهما من أصحاب مالك عنه : لا أرى أن يقف عند قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولكنه يسلم ويمضي .

وقال أيضاً في المبسوط عن مالك : لا بأس لمن قدم من السفر أو خرج إليه أن يقف عند قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويصلي ويسلّم عليه ويدعو له ولأبي بكر وعمر . فقيل له : إن أناساً من أهل المدينة لا يقدمون من سفر ولا يريدونه ، وهم يفعلون ذلك في اليوم مرة أو أكثر ، يأتون عند القبر فيسلمون ويدعون ساعة ، فقال : لم يبلغني هذا عن أحد من أهل الفقه في بلدنا لا من الصحابة ولا غيرهم ولا يصلح آخر هذه الأمة إلاّ ما أصلح أولها ، ولم يبلغني عن أول هذه الأمة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك يكرّرون المجيء إلى القبر بل كانوا

يكرهون إلاّ لمن جاء من سفر أو أراده »

وجاء في الرسالة الرابعة بقلم أحمد النجدي[٩٧] : « فبدَّل أهل الشرك (اقرأ المسلمون) قولاً غير الذي قيل لهم . بدَّلوا الدعاء له بدعائه والشفاعة له بالاستشفاع به وقصدوا بالزيارة التي شرعها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إحساناً إلى الميت سؤال الميت وتخصيص تلك البقعة بالدعاء ».

ويقول ابن تيمية في الصلاة عند سائر قبور الأنبياء والصالحين ، وذلك في كتابه « اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أهل الجحيم» ص ٣٣٤ : « إذا قصد الرجل الصلاة عند بعض قبور الأنبياء أو بعض الصالحين متبركاً بالصلاة في تلك البقعة ، فهذا عين المحادّة لله ورسوله والمخالفة لدينه وابتداع دين لم يأذن الله به».

ونحن بداية لا بد لنا من التأكيد بسقوط الحجة القائمة على التهويل عند الوهابية والقائمة على القول بأنه لم يذكر أحد كذا أو أن الجميع اتفقوا على كذا ، لأنه لا دليل على كل ذلك ، بل الأدلة على العكس هي المتوفرة.

فقد ثبت أن اتخاذ المساجد بقرب القبور أمر جائز شرعاً بأدلة عديدة وخصوصاً الآية الشريفة : ﴿ لنتخذن عليهم مسجداً ﴾ والمساجد إنما تقام للصلاة ، وإلا فما فائدة قيامها عند القبور إذا كانت الصلاة عند القبور مكروهة أو محرمة.

والقرآن لم يؤكد فقط بصورة غير مباشرة ، جواز الصلاة في بعض البقاع المباركة ، بل هو يأمر أحياناً بالصلاة فيها ، كما تقول الآية الشريفة : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ [البقرة/١٢٥].

أما السنة المطهّرة فقطعت بجواز ، الصلاة بل بأشد من الجواز العادي عند قبور الأنبياء وآثارهم إذ ورد في الإسراء والمعراج أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نزل فصلى في المدينة (يثرب) ثم في طور سيناء ثم في بيت لحم ، لأن الأولى ستكون دار هجرته ، ولأن الثاني كلم الله تعالى موسى (عليه السلام) فيه ، ولأن الثالث ولد فيه عيسى بن مريم ، كما أوضحه جبرائيل (عليه السلام) للرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن جهة أخرى فقد جعلت آثار هاجر أم اسماعيل (عليه السلام) التي صبرت في سبيل الله ، أماكن للعبادة حيث أوجب على حجاج بيت الله الحرام أن يسعوا كما سعت بين جبلي الصفا والمروة ، وهذا ما يعترف به ابن القيم الجوزية تلميذ ابن تيمية الأب الروحي للوهابية ، في كتابه « جلاء الافهام »[٩٩].

وأما بالنسبة إلى قبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فقد أفتى مالك للمنصور العباسي بأفضلية التوجه إليه لا إلى القبلة من أجل الدعاء حيث قال له : « لمَ تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى يوم القيامة ؟ بل استقبله واستشفع به فيشفعك الله »[١٠٠].

وأما مسألة الصلاة عند القبر فهي سنة متبعة . ففاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كانت تزور قبر عمها حمزة كل جمعة فتصلي وتبكي عنده »[١٠١].

وأما عائشة التي دفن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في حجرتها فبقيت مقيمة فيها وتصلي إلى نهاية عمرها .

كل ذلك لأن البقعة تتبارك وتتشرف بمن ينزل فيها أو يترك فيها آثاره وإلا فلماذا كان كبار الصحابة يصرّون على أن يدفنوا قرب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، كما أوصى أبو بكر وعمر ، ثم الحسن بن علي (عليه السلام) .

وبعد هذا ، إذا كانت الصلاة تجوز في كل أرض فلماذا هي تمنع في البقاع المشرفة .

أما إذا كانت شبهة الوهابين قائمة على أن المصلين يصلون للميت ويدعونه من دون الله ، لا ليشفع لهم بل ليقضي هو شخصياً حاجاتهم ، فهذا من سوء ظنهم ، وهو غير وارد عند المسلمين الذين لا يعبدون إلا الله وحده لا شريك له .

تعظيم القبور والتبرك بها وتزيينها وكسوتها :

منع الوهابيون تعظيم القبور والتبرك بها واعتبروه شركاً وكفراً وسموا بسببه المسلمين «قبوريين» ، فقد عد الصنعاني في رسالته الطواف بالقبور والتبرك بها والتمسح من موجبات الشرك لأنه كفعل أهل الجاهلية تجاه أصنامهم وأوثانهم .

وجاء في الهدية السنية ، في الرسالة الرابعة بقلم أحمد النجدي عن المسلمين إذ يمارسون هذه الأمور: «وهم عندي كفار بهذه الأوضاع مثل تعظيم القبور وإكرامها والتزامها بما نهى عنه الشرع من إيقاد النيران وتقبيلها وتخليقها (تطييبها وتعطيرها) . . . وأخذ تربتها تبركاً . . . .».

وهذا الموقف مخالف للقرآن وسيرة السلف الصالح ، فقد قال تعالى : ﴿ ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ﴾ [الحج/٣٢] . كما قال : ﴿ ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه ﴾ [الحج/٣٠].

فإذا كانت ﴿ الصفا والمروة من شعائر الله ﴾ [البقرة/١٥٨] وهي جمادات ، وإذا كانت البدن (الإبل) المخصصة للنحر في الحج ﴿ من شعائر الله ﴾ [الحج/٣٦] فما بال آثار الأنبياء وأولياء الله ، لماذا لا تكون هي الأخرى من شعائر الله ؟ .

أما مسألة التبرك والتمسح فقد ورد في الآثار عدد كبير من الوقائع الدالة على استحبابها.

● ففاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخذت قبضة من تراب قبر أبيها صلى الله عليه وآله وسلم وأخذت تشمها وتبكي وتقول :

ماذا على من شم تربة أحمد   أن لا يشم مدى الزمان غواليا

● وبلال ، بعدما قضى في الشام فترة في عهد عمر ، قصد المدينة فأتى قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخذ يبكي عنده ويمرّغ وجهه عليه[١٠٤].

● وفي «وفاء الوفا» عن أبي خيثمة عن مصعب بن عبد الله عن إسماعيل بن يعقوب التيمي : كان ابن المنكدر يصيبه الصمات فكان يقوم كما هو ، يضع خده على قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فسئل في ذلك فقال : إنه يصيبني خطرة فإذا وجدت ذلك استشفيت بقبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم . وكان يأتي موضعاً من المسجد في الصحن فيتمرغ فيه ويضطجع . فقيل له في ذلك فقال : إني رأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الموضع.

● وجاء في مستدرك الصحيحين للحاكم[١٠٥] : «أقبل مروان يوماً فوجد رجلاً واضعاً وجهه على القبر الشريف فأخذ برقبته ثم قال : هل تدري ما

تصنع ؟ .

فأقبل عليه فإذا هو أبو أيوب الأنصاري فقال : نعم إني لم أتِ الحجر ، إنما جئت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم أتِ الحجر ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «لاتبكوا على الدين إذا وليه أهله ولكن ابكوا على الدين إذا وليه غير أهله » .

● وجاء في سنن ابن ماجة أن أبا بكر قبّل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو ميت .

● وجاء في كفاية الشعبي وغيره من المصادر أن رجلاً جاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله إني حلفت أن أقبّل عتبة باب الجنة وجبهة الحور العين . فأمره أن يقبّل رجل الأم وجبهة الأب . فقال : يا رسول الله ، إن لم يكن أبواي حيين قال : قبّل قبرهما . قال : فإن لم أعرف قبرهما . قال : خط خطين ، إنوِ أحدهما قبر الأم والآخر قبر الأب فقبّلهما فلا تحنث في يمينك.

● وفي شرح الشفاء للقاضي عياض أن ابن عمر رؤي يضع يده على مقعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم من المنبر ثم وضعها على جبهته .

● وجاء في «وفاء الوفا» روى ابن شيبة عن جابر بن عبد الله أنه لما أخبر [النبي صلى الله عليه وآله وسلم بوفاة فاطمة بنت أسد] نزع قميصه فقال : إذا غسلتموها فاشعروها إياه تحت أكفانها ، وأنه تمعك في اللحد فسئل صلى الله عليه وآله وسلم بذلك ، فقال : أما قميصي فأريد أن لا تمسها النار أبداً ، إن شاء الله تعالى ، وأما تمعكي في اللحد فأردت أن يوسع الله عليها في قبرها .

أما لجهة التزيين بالذهب والفضة والكسوة ، فقد رأت الوهابية فيه هدراً للمال على أساس أنه لغو وعبث وأن الميت لا يستفيد منه . فقد جاء في الهدية السنية[١٠٦] : « نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يزاد على (القبور) غير ترابها وأنتم تزيدون عليها غير التراب ، التابوت ولباس الجوخ . . . » .

ولهذا فهم نهبوا ذخائر الحجرة الشريفة وجواهرها عندما اجتاحوا المدينة سنة ١٢٢١ كما سنرى . وقد برّر الجبرتي في تاريخه هذا العمل على أساس أن ضعفاء العقول من الأغنياء والملوك الأعاجم وغيرهم هم الذين

أهدوا ذلك . وذهب إلى أنها لا يجوز أن تكون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم لأنه بعث ليكون نبياً لا ملكاً ، ولأنه كان زاهداً في متاع الحياة الدنيا ، وأن الصدقة محرّمة عليه وعلى آله ، وعلى أساس أن لا فائدة من الجواهر والذخائر إذا بقيت على حالها فالأفضل إذاً صرفها على المحاويج(١٠٧) .

والجواب على دعوى الوهابية أنه ثبت عدم دقة الأحاديث التي يستشهدون بها إن لم نقل عدم صحتها لجهة المتن وارتباكها لجهة السند ، فبقي أن نرد على حجتهم العقلية ثم نتفحّص السنة إذا كانت تؤيدنا أم تؤيد دعواهم .

فمن الناحية العقلية ، يدعي الوهابيون والمدافعون عن تصرفاتهم أن الذخائر والجواهر لا ينتفع بها إذا وضعت أو علّقت في الحجرة النبوية مثلاً وأن صرفها على المحتاجين أفضل .

ولكن هذا المذهب يتجاهل أن تعظيم الأماكن المقدسة مسألة في غاية الأهمية من الناحية المعنوية لأنها تدفع إلى مزيد من الاحترام عند عامة المسلمين ، كما أنها تكبت أعداءهم وتزرع الرهبة في قلوبهم . وأما مسألة الصرف على «المحاويج» فإن هناك أموالاً تبذر وتنفق بإسراف لا نظير له ، في بلد الوهابيين وفي غيره من بلاد المسلمين ، والأولى أن تخصص هذه الأموال أولاً لمحاويج المسلمين من دون «محاويج» بل «محتاجات» أميركا وبريطانيا والعدو الصهيوني .

وأخيراً فإن هذه الأموال لم تنتزع من أحد لتهدى إلى قبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وحجرته ، بل إنّ الذين أهدوها أهدوها من أموالهم الخاصة ، ولكل إنسان أن يتصرف بأمواله كما يشاء على أن لا يخالف الشرع الحنيف . فإذا خصص مسلم ماله في جهة من جهات الإنفاق فلا يستطيع مسلم آخر أن يستولي على هذا المال لنفسه على أساس أن صاحبه مبذر أو مسرف أو ضعيف العقل .

وإذا نظرنا إلى السنة الشريفة نجد أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم ينفق أموال الكعبة رغم حاجته عندما قال له علي بن أبي طالب (عليه السلام) : يا رسول الله لو استعنت بهذا المال على حربك، فلم يفعل، وكان سؤال علي بقصد السماح للرسول صلى الله عليه وآله وسلم بسن حكم شرعي ، ولم يكن نابعاً من وجهة نظر مخالفة لرأي الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، علماً بأن ذخائر الكعبة

لم تكن شيئاً زهيداً ، فقد كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد وجد حين فتح مكة كمية وافرة منها كأسياف الذهب والغزالين الذهبيين إضافة إلى سبعين ألف أوقية من الذهب ، واستمر تدفق الجواهر والمعادن الثمينة على الكعبة(١٠٨) . فبعد فتح مدائن كسرى كان من جملة ما أهداها عمر هلالان . كما أن السفاح بعث إلى الكعبة بالصفحة الخضراء ، والمأمون بالياقوتة الحمراء وبعث المتوكل بشمسية من ذهب مكللة بالدر الفاخر والياقوت الرفيع والزبرجد إلخ . . . كل هذا بالإضافة إلى الكسوة المتعارف عليها منذ عهد عمر بن الخطاب.

أما الحجرة الشريفة ، فقد جاء في «وفاء الوفا» أنها أُزِّرت بالرخام وصنعت لها الشبابيك من خشب الصندل في أعلى جدارها كما علقت فيها في عهد المستضيء العباسي ستارة أرسلها الحسين بن أبي الهيجا صهر الملك الصالح وكانت من « الدبيقي الأبيض وعليها الطروز والجامات المرموقة بالإبريسم الأصفر والأحمر وأدار عليها زناراً من الحرير الأحمر مكتوباً عليه سورة يس . . . ».

وبعد كل هذا ينهى الوهابيون عن الزيادة على القبور وينهبون موجودات الحجرة الشريفة.

في اتخاذ الخدم والسدنة والأعياد :

ذكر ابن تيمية في رسالة « زيارة القبور »(١٠٩) : «وفي السنن عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : لا تتخذوا قبري عيداً وصلوا عليّ حيثما كنتم فإن صلاتكم تبلغني ، وقد تكرر ذلك في الهدية السنية أيضاً »(١١٠) . وهذا الحديث ورد في سنن أبي داود(١١١) بصيغة : « حدثنا أحمد بن صالح ، قرأت على عبد الله بن نافع ، أخبرني ابن أبي ذؤيب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ولا تجعلوا قبري عيداً وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم » كما ورد الحديث نفسه في مسند أحمد بن حنبل(١١٢).

وهذا الحديث يحتمل معاني :

فقد رأى الحافظ المنذري أن المراد بهذا الحديث يحتمل أن يكون الحث

على زيارة قبره صلى الله عليه وآله وسلم وأن لا يهمل حتى يصبح كالعيد الذي لا يتكرر في السنة أكثر من مرة أو مرتين . وهذا ما يؤيده برأيه قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً» ، أي لا تتركوا الصلاة فيها حتى تجعلوها كالقبور التي لا يصلّى فيها .

أما السبكي فرأى أن هذا الحديث يمكن أن يعني « لا تتخذوا لزيارته وقتاً مخصوصاً كالعيد » كما يحتمل أن يعني لا تتخذوه كالعيد في الزينة والاجتماع وغير ذلك ، فلا تأتوه إلا للزيارة والسلام والدعاء .

وروى السمهودي أن علياً بن الحسين (عليه السلام) انتهر رجلاً كان يأتي كل غداة لزيارة قبره صلى الله عليه وآله وسلم والصلاة عليه ، فقال له : ما يحملك على هذا ؟ قال : حب التسليم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم . فقال : أخبرني أبي عن جدي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : لا تجعلوا قبري عيداً (الحديث) ، وهكذا يكون المرفوض الإكثار من الزيارة لا أصل الزيارة .

ونحن نميل إلى هذا الرأي الأخير على أساس تفسير الجزء الثاني من الحديث « لا تتخذوا قبري عيداً » بالجزء الأول كما ورد في السنن : « لاتجعلوا بيوتكم مقابر » . فهذا الجزء ، خلافاً لما ذهب إليه الحافظ المنذري يجب أخذه على ظاهره لعدم رجحان التأويل ، وفي هذه الحالة يكون من شأن اتخاذ البيت مقبرة أنه يجعل أهله في مواجهة قبور خواصهم بشكل مستمر ، فيكون جعل قبر النبي عيداً بمعنى الاحتشاد الدائم حوله .

أما مسألة اتخاذ الخدم والسدنة فإننا لا نرى فيها حرمة بل ولا كراهة وإنما على العكس فلما كان لا مانع من التبرك بقبور الصالحين وتعظيمهم بعد موتهم ، ولما كان لا مانع من البناء على القبور لحفظها وصيانتها وحمايتها ، كان لا مانع من اتخاذ الخدم والسدنة الذين يشرفون على ذلك ويعينون الزائرين والمتعبدين ، ويحرسونها من السرقة وينظفونها .

زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وقبور الصالحين :

تحرّم الوهابية زيارة القبور ، لاسيما إذا اقتضى ذلك السفر وقطع

المسافات . فقد جاء في الهدية السنية[١١٣] : « وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة وأبي سعيد أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « لا تشدوا الرحال إلى مسجد من المساجد إلا لثلاثة مساجد : المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا » وتوضح الرسالة الغرض من شد الرحال إلى هذه المساجد فتقول : إن الحديث المذكور وإن كان معناه لا تشدوا الرحال إلى مسجد من المساجد إلّا إلى الثلاثة التي قد ذكرت ، فالسفر إلى هذه المساجد الثلاثة إنما هو للصلاة فيها والدعاء والذكر وقراءة القرآن والاعتكاف الذي هو من الأعمال الصالحة».

وتستنتج الرسالة أنه إذا كان السفر إلى غير هذه المساجد « ممتنعاً شرعاً» . . فالسفر إلى مجرد القبور أولى بالمنع . . . والأحاديث التي رواها الدارقطني في زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كلها مكذوبة موضوعة باتفاق غالب أهل المعرفة ومنهم ابن الصلاح وابن الجوزي وابن عبد البر وأبو القاسم السهيلي وشيخه ابن العربي المالكي والشيخ تقي الدين (ابن تيمية) وغيرهم . . . ولم يجعلها في درجة الضعيف إلا القليل وكذلك انفرد الدارقطني عن بقية أهل السنن ، والأئمة كلهم يروون بخلافه ، وأجل حديث روي في هذا الباب حديث أبي بكر البزاز ومحمد ابن عساكر ، حكاه أهل المعرفة بمصطلح الحديث كالقشيري والشيخ تقي الدين (ابن تيمية) وغيرهما . وإنما رخّص صلى الله عليه وآله وسلم في زيارة القبور مطلقاً بعد أن نهى عنها كما ثبت في الصحيح لكن بلا شد رحال وسفر إليها للأحاديث الواردة في النهي عن ذلك».

وفي مكان آخر تورد «الهدية السنية»[١١٤] : «روى ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعن زائرات القبور. . .».

وكان ابن تيمية عبّر عن نفس الموقف إذ يقول في كتاب «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أهل الجحيم» ص ٤٥٧ : « قد زيّن الشيطان لكثير من الناس سوء عملهم واستزلهم عن اخلاص الدين لربهم إلى أنواع من الشرك فيقصدون بالسفر والزيارة رضاً غير رضا الله والرغبة إلى غيره ويشدون الرحال إلى قبر نبي أو صاحب أو صالح أو من يظنون أنه كذلك».

وهكذا فالوهابية لا تمانع في زيارة القبور للترحم والدعاء للأموات ، ولكنها تتوقف عند حديث «زوارات القبور » وحديث «شد الرحال».

فحديث «لعن الله» زائرات «القبور» ورد على شكل «لعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم » «زوّارات القبور» . وهناك فرق بين الزائرات والزوّارات . لأن الزوّارات ، جمع زوّارة ، وهي صيغة مبالغة ، لا يقصد بها من تقوم بالزيارة في الشكل العادي المتعارف عليه ، بل المعتادة على الزيارات المتكررة لأن في فعلها عدداً من المساوىء أهمها اثنتان :

أولاً : الاعتياد ، أو الإدمان ، الذي يجعل الزيارة أمراً مألوفاً لا يحرك المشاعر ، كما يؤكد علماء النفس الذين يقولون إن الاعتياد يبلِّد الانتباه ويقظة الوجدان.

ثانياً : أن هناك نساء يتخصصن في الزيارة والنواح حتى يصبحن محترفات ممتهنات لهذا العمل للتعيش أو لغيره.

ويؤكد ما ذهبنا إليه أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لعن الإناث في هذا الخصوص ولم يلعن الرجال لأن ليس فيهم من يمارس ذلك كممارسة النساء.

أما زائرات القبور فإنهن مأجورات من الله بدليل زيارات الزهراء (عليها السلام) المتكررة لعمها حمزة وبكائها عليه ، وزيارة عائشة لشهداء البقيع مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

أما حديث شد الرحال فهو إذا صح مختص بالمساجد ولا تقاس القبور عليها حتى ولو كان الغرض أحياناً واحداً . وقد بين هذا الحديث فضل بعض المساجد على البعض الأخر فاعتبرها تستحق شد الرحال إليها ، لتفوقها على غيرها في ما تؤمنه الصلاة فيها من الثواب المضاعف ، بينما لا تستحق المساجد الأخرى شد الرحال لتساويها بغيرها بحيث تكون الصلاة في أي منها كالصلاة في المسجد الأقرب إلى الشخص المصلي ، ومن هنا فإن الحديث لم يأت بصيغة النهي كما أوردته « الهدية السنية » إذ قالت : « لا تشدوا الرحال . . . » بل هو جاء في صيغة الإعلام أو التقويم : « لا تُشَدُّ الرحال» ودليل عدم كونه نهياً عن السفر للصلاة في المساجد الأخرى أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان يذهب

كل يوم سبت إلى مسجد «قباء» للصلاة فيه[115] .

وتأكيداً لاستحباب شد الرحال إلى قبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فقد ورد فيه عدد من الآيات القرآنية وآخر من الأحاديث الشريفة وتؤكده السنة المتواترة المستمرة التي تنبىء عن الحضّ على شد الرحال في سبيل ذلك لا عن المنع ففي القرآن الكريم ورد :

● ﴿ **ولـو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جـاؤوك فاستغفـروا الله واستغفر لهم الرسول لـوجدوا الله تـواباً رحيمـا** ﴾ [النساء/٦٤] **والمجيء لـلاستغفار يقتضي الزيارة ، فهل قصد به الزيارة من مكان قـريب لا يقتضي شد الـرحال إن هـذا الافتراض لا يؤيده أي دليل .**

●﴿ **ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً**﴾ [النساء/١٠٠] .

ألا تحتمل الهجرة الى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم زيارته فيما تحتمل ؟ بل تحتمل شد الرحال لا إلى المساجد الثلاثة فقط بل هي هنا تحض على السفر لأمور مختلفة ، منها الجهاد مثلاً .

● عن المنافقين : ﴿ **ولا تصلِ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون** ﴾ [التوبة/٨٤] .

وقد رأى الشيخ جعفر السبحاني[116] أن القيام الوارد في الآية ليس القيام وقت الدفن فقط بل وفي أوقات أخرى وذلك لورود الظرف أبداً الذي لا يتعلق بصلاة تقام مرة واحدة بل في غيرها مما يتكرر وما يتكرر هو القيام على القبر في الزيارات المتتالية للقبور ، كما كان يفعله الرسول صلى الله عليه وآله وسلم المرة تلو المرة فيزور قبور الشهداء وخاصة في البقيع[117] .

أما السنة المطهرة فقد أكّدت استحباب زيارة القبور عموماً وقبره الشريف صلى الله عليه وآله وسلم خصوصاً :

● فقـد زار الرسـول صلى الله عليه وآله وسلم قبـر أمه آمنـة بنت وهب بعد الاستئذان في ذلك كما تروي الصحاح[118] .

● وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكر بالآخرة »[١١٩] . وهذا يعني أنه صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن زيارة القبور عندما كان الناس حديثي عهد بالجاهلية . أما بعد ترسخ الإسلام النسبي فإنه سمح بذلك.

● وعلَّم رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم أصحـابه آداب زيـارة المقابـر فأمرهم أن يقولوا[١٢٠] : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا وإياكم متواعدون غداً ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون . اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد » .

أما عن زيارته صلى الله عليه وآله وسلم في قبره ، فقد ورد عدد من الأحاديث الشريفة شكك الوهابيون في صحتها كما رأينا ، إلا أن هذا التشكيك بالجملة ، لا يقوم لأن إسناد بعضها لا يرقى إليهـا الضعف ، كما ورد في « وفـاء الوفـا » للسمهودي الذي ناقشها باستفاضة[١٢١] ، ومنها :

● « فعن عبد الله بن عمر : من زار قبري وجبت له شفاعتي » .
● «من حج فزارني بعد وفاتي كان كمن زارني في حياتي» .
● «من زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي» .
● «من وجد سعة ولم يفد إلي مرة فقد جفاني» أو «من حج فلم يزرني فقد جـفاني» أو «ما من أحد من أمتي له سعة لم يزرني فليس له عذر» .

● «من جاءني زائراً لا تعمله إلاّ زيارتي كان حقاً علي أن أكون له شفيعاً» .
● «من حج إلى مكة ثم قصدني في مسجدي كتبت له حجتان مبرورتان» .

هذا وقد درج السلف الصالح على هذا النهج منذ وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وما زال المسلمون عليه حتى اليوم وقد مر بنا حديث الأعرابي وكذلك حديث بلال في السابق ولا داعي للاستفاضة في هذه النقطة .

التبرك بآثار الأنبياء:

تعتبر الوهابية النبي (ص) كسائر الناس ـ صراحة أو ضمناً، ولهذا فهي تحرم التبرك بآثاره وآثار غيره من الأنبياء (ص) ضاربة عرض الحائط بكل ما قام به الصحابة أيام الرسول (ص) وما يقوم به

المسلمون لا سيما في شعائر الحج مما كان بعضه قائماً منذ بناء البيت المبارك.

وما يتجاهله الوهابيون أولاً: هو تعظيم آثار نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل والسيدة هاجر زوجة النبي إبراهيم (ع). وكذلك آثار نبي الله آدم أبي البشر (ع).

فقد ورد في الكتاب العزيز ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ [البقرة / ١٢٥] وقد فسّر مقام إبراهيم بأنه الحجر الذي أتى به إسماعيل لأبيه ليقف عليه ويتابع البناء بعد أن أصبح البناء مرتفعاً شيئاً ما، إذاً فهذا أمر الله تعالى بالتبرك بموضع قدمي إبراهيم (ع).

كما جاء في الكتاب العزيز: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوّف بهما﴾ [البقرة / ١٥٨] وقد ورد أن هاجر كانت تسعى، حتى أجهدت بعد عطش ابنها اسماعيل تاركة الصفا كيلا تراه يموت ومهرولة نحو المروة لتنظر هل من قادم ثم هي تعود إلى ابنها ثم تعود إلى المروة وهكذا... وذلك سبع مرات. وبهذا أمر الحجيج حتى اليوم[١٢٦].

أما رمي الجمار وهو من مراسم الحج فقد ورد أن جبريل ذهب بإبراهيم إلى جمرة العقبة فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات فساخ ثم أتى الجمرة الوسطى ثم الجمرة القصوى وكل مرة يعرض له الشيطان ويرميه فيسيخ.

أما الفدية التي فدى الله بها إسماعيل عندما هم أبوه أن يذبحه، فقد فرضها الله على الحجيج، كذلك حتى اليوم. وأما ما كان من آثار آدم (ع) فهو أن الله تاب عليه عصر التاسع من ذي الحجة بعرفات ثم أفاض به جبرائيل عند المغيب إلى المشعر الحرام وبات فيه ليلة

العاشر يدعو الله ويشكره على قبول توبته وعتقه من الذنوب، فجعل الله ذلك اليوم عيداً له ولذريته، وجعل ما فعله آدم، من مناسك الحج بقبول توبة الحاج عصر التاسع بعرفات وذكر الله ليلاً في المشعر الحرام وحلق الرؤوس يوم العاشر بمنى.

أما ما يتجاهله الوهابيون ثانياً، فهو التبرك بآثار النبي محمد (ص):

فقد تبرك المسلمون بريق النبي (ص) وذلك عندما دعا علياً يوم خيبر فوجده أرمد فتفل في عينيه ودعا له فشفي على الفور.

كما تبركوا حتى بنخامة النبي (ص)، كما ذكره البخاري عن عروة بن مسعود في صلح الحديبية: «والله ما تنخم رسول الله (ص) نخامة إلاّ وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده[١٢٧].

كما تبركوا بوضوء النبي (ص): فعن إنس عن جابر قال: «قد رأيتني مع النبي (ص) وقد حضرت العصر وليس معنا ماء غير فضلة فجعل في إناء فأتي النبي (ص) به فأدخل فيه يده وفرّج أصابعه ثم قال: «حي على أهل الوضوء البركة من الله». فلقد رأيت الماء يتفجر من بين أصابعه فتوضأ الناس وشربوا، فجعلت لا آلو ما جعلت في بطني منه فعلمت أنه بركة».

كما ورد أنه إذا توضأ كانوا يقتتلون على وضوئه[١٢٨].

أما التبرك بشعر النبي (ص) فكان على أوسع نطاق، هو أيضاً، فقد ورد أنه حلق شعره بمنى وجعل يعطيه الناس. وفي رواية أخرى: أنه دعا الحالق فحلقه فأعطاه أبا طلحة فقال: «أقسمه بين الناس»[١٢٩].

كما ورد أنه كان عند أم سلمة (ر) شيء من شعر النبي (ص)

فإذا أصاب انسان عين أرسلوا إليها قدحاً من الماء تطمس الشعر فيه فيداوى من أصيب[١٣٠].

وفي هذا الباب أيضاً ورد أن خالد بن الوليد أضاع قلنسوة له يوم اليرموك وأصر على طلبها فإذا هي عتيقة فقال خالد: اعتمر رسول الله (ص) فحلق رأسه وابتدر الناس جوانب شعره فسبقتم إلى ناصيته فجعلتها في هذه القلنسوة فلم إشهد قتالاً وهي معي إلا رزقت النصر»[١٣١].

أما عن التبرك بسهم النبي فقد نزل النبي (ص) بجيشه في أقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يتبرضه الناس تبرضاً فلم يلبثه الناس حتى نزحوه وشكوا إلى رسول الله (ص) العطش، فانتزع سهماً من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه فوالله ما يزال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه»[١٣٢].

كما جرى التبرك بموضع كف النبي (ص) فقد ورد عن حنظلة أنه قال: «دنا بي جدّي إلى النبي (ص) فقال: إنّ لي بنين ذوي لحى ودون ذلك وإن ذا أصغرهم، فادع الله له فمسح رأسي وقال: بارك الله فيك أو بورك فيه. قال الراوي: فلقد رأيت حنظلة يؤتى بالانسان الوارم وجهه أو البهيمة الوارمة الضرع فيتفل على يديه ويقول: باسم الله ويضع يده على رأسه ويقول: على موضع كف رسول الله (ص) فيمسحه عليه. وقال الراوي فيذهب الورم[١٣٣].

وأخيراً فقد أوردنا سابقاً أن ابن عمر كان يضع رأسه في موضع جلوس رسول الله (ص) فهل يبقى بعد كل هذا شك في جواز هذا التبرك حتى تعتبره الوهابية شركاً.

ثم أليس أن الأب الروحي للوهابية «شيخ الإسلام» ابن تيمية قد

تعرض للتبرك بآثاره بعد موته؟ فقد ورد في العقود الدرية للحافظ بن عبد الهادي[١٣٤] أنه قد «حضر جمع إلى القلعة (عند وفاة ابن تيمية) فأذن لهم بالدخول وجلس جماعة قبل الغسل وقرأوا القرآن وتبركوا برؤيته وتقبيله ثم انصرفوا.

وحضر جماعة من النساء ففعلن مثل ذلك ثم انصرفن، وألقى الناس على نعشه مناديلهم وعمائمهم للتبرك وشرب جماعة الماء الذي فضل عن غسله واقتسم جماعة بقية السدر الذي غسل به.

وقيل إن الطاقية التي كانت على رأسه دفع فيها خمسماية درهم، وقيل إن الخيط الذي فيه الزئبق الذي كان في عنقه بسبب القمل، دفع فيه ماية وخمسون درهماً.

ويضيف: وتردّد الناس إلى قبره أيّاماً كثيرة ليلاً ونهاراً ورؤيت له منامات كثيرة صالحة. . .».

فهل يستثنى ابن تيمية في نظر أتباعه الجدد أم أنهم يتهمون أتباعه القدامى بالشرك؟ . .

خلاصة موقف الوهابية : التكفير والتبديع :

انطلقت الوهابية من نظرة خاصة للإسلام احتوت على الحد الأقصى من التزمت وضيق الأفق مسيئة الظن بالمسلمين إلى درجة اعتبارهم ، بشكل مسبق ، مشركين وكافرين ، فراحت تفسر تعلقهم برموز الإسلام وتكريم عظماء المسلمين على أنه شرك بالله وعبادة لغير الله ، كما اعتبرت كل ما لم يوافق مواقفها من أشكال التعبد بدعاً يجب القضاء عليها[١٣٥] .

ولو لم تنطلق الوهابية من سوء الظن ومن موقف مسبق يعتبر المسلمين مشركين لما اعتبرت الآيات التي نزلت بالمشركين منطبقة عليهم ، فشبهت أشكال التعبير عن عرفانهم بالجميل لرواد الإسلام وشهدائه الذين مكّنوا لعبادة الله

الحقة ، إشراكاً لهؤلاء الروّاد والشهداء في الألوهية ، علماً بأن المسلمين يعتبرونهم الأدوات التي يسّرت لهم معرفة الله وعبادته[١٣٦] .

ولم يدر في خلد دعاة الوهابية أن للتكفير والتشريك والتبديع شروطاً تعارف عليها المسلمون بعد أن أرسيت بواسطة المصادر التشريعية الأولية بشكل لا مزيد عليه ولهذا السبب لم يجدوا حرجاً في إلقاء التهم والمسارعة إلى سفك الدماء وانتهاك الأعراض واستحلال الأموال والذراري في بلاد المسلمين دون غيرها .

الوهابية والشرك

من خلال استعراضنا لما حمله الوهابيون من معتقدات «تجديدية» للإسلام، رأينا أنهم يرمون المسلمين بالشرك ويستحلون دماءهم وأموالهم بسبب الشفاعة والتوسل والدعاء وبناء القبور وما إليها على أساس أن في ذلك إشراكاً لغير الله في المعبودية. وإذا كنا قد ناقشنا مواقفهم الجزئية في مختلف تلك المجالات وأثبتنا تهافتها وسطحيتها والخفة التي يأخذون بها الأمور فيعمدون إلى سفك الدماء وسبي الذراري والاستيلاء على الممتلكات، فإننا هنا سنحاول بإذن الله، أن نناقش مسألة الشرك بالله لنرى جدية المسوغ الأساسي لدى الوهابية في فعل ما فعلوا من تخضيب لرمال الجزيرة العربية بالدماء الإسلامية، مقابل تعاونهم مع أعداء الإسلام عامة ورهنهم أرض المسلمين وثرواتها لهم.

الشرك: الشرك أصله الاجتماع في الملك[١٣٧]. وجاء في تاج العروس: الشرك والشركة هو مخالطة الشريكين، وجاء في المفردات للراغب الاصفهاني: الشرك والشركة والمشاركة خلط الشريكين، وفي لسان العرب هو أيضاً مخالطة الشريكين.

وفي موضوع الشرك بالله جاء في تاج العروس أشرك بالله: كفر أي جعل له شريكاً في ملكه تعالى. وجاء في لسان العرب: أشرك بالله: جعل له شريكاً في ملكه. والاسم الشرك، والشرك أن يجعل لله شريكاً في ربوبيته. «ولا تشرك بالله» أي لا تعدل به غيره فتجعله شريكاً له. كما جاء في تفسير الميزان ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾ [النور/ ٢٢١] الاشراك بمعنى اتخاذ الشريك لله سبحانه. فالشرك بالله هو اتخاذ الشركاء لله تعالى، واعتبار أن هؤلاء الشركاء يشاركون الله في الخلق أو تدبير الكون فيستحقون العبادة وقد يكون الشركاء المزعومون من الملائكة أو من البشر أو من الجن أو من الحيوانات أو النبات أو الجماد، كما قد يكون الشركاء مما تقدمه الطبيعة خاماً أو مما تعمل به يد الانسان.

وقد قسم العلماء الشرك إلى مراتب، فجاء في مفردات الراغب، أنه ضربان:

أحدهما: الشرك العظيم: وهو إثبات شريك لله تعالى، يقال: أشرك فلان بالله تعالى وذلك أعظم كفر...

والثاني: الشرك الصغير، وهو مراعاة غير الله معه في بعض الأمور، وهو الرياء والنفاق المشار إليه بقوله: ﴿شركاء فيما آتاهما تعالى الله عما يشركون﴾ ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون﴾

كما جاء في تفسير الميزان، في تفسير آية: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾ إن الشرك ذو مراتب مختلفة بحسب الظهور والخفاء نظير الكفر والإيمان. فالقول بتعدد الآلهة واتخاذ الأصنام والشفعاء: شرك ظاهر، وأخفى منه ما عليه أهل الكتاب من الكفر بالنبوة وخاصة أنهم قالوا: عزير ابن الله والمسيح ابن الله وقالوا نحن

آبناء الله وأحباؤه وهو شرك. وأخفى منه القول باستقلال الأسباب والركون إليها وهو شرك إلى أن ينتهي إلى ما لا ينجو منه إلاّ المخلصون وهو الغفلة عن الله والالتفات إلى غير الله عزت ساحته.

هذا وقد أمر الله تعالى بقتال المشركين وذلك في قوله: ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾ [التوبة / ٣٦] كما قال: ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ [التوبة / ٥] فأصبح قتالهم واجباً عند الاستطاعة فمن هم هؤلاء المشركون؟ هل هم كل من ارتكب نوعاً من أنواع الشرك الواردة أعلاه مهما يكن هذا النوع؟

فإذا كان الشرك بضروبه كافة موجباً للقتال لوجب قتال المرائي إلى الغافل عن الله والملتفت إلى غير الله تعالى، وهذا ما لم يأمر به الله ورسوله.

فيبقى موجب القتال قائماً ضد المشرك بالشرك العظيم القائل بتعدد الآلهة أو المتخذ الأصنام والشفعاء ممن يعتبرهم آلهة مما لم يسمح الله لهم بذلك كما بينا سابقاً. فهل يدخل في هذا الشرك كل ما يعتبره الوهابيون شركاً؟.

لو رجعنا إلى السيرة المطهرة لوجدنا أنه (ص) كان يأمر بقتال المشركين حتى يقولوا: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. وفيما خص الكفار إذا أصروا حتى يدفعوا الجزية.

فقد ورد في موطأ الإمام مالك قوله (ص): «قاتلوا الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم وحسابهم على الله»[١٣٨].

وفي جوابه لعلي بن أبي طالب عندما سأله علام يقاتل في خيبر

يقول (ص): حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله (البخاري، مناقب علي،ومسلم،مناقب علي. . .).

على أنه بعد الشهادتين لا بد من القيام بالواجبات المعروفة وهي الصلاة والصوم والحج والزكاة والجهاد، على أساس أن الإسلام بني على خمسة(١٣٩): «شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة والحج وصوم رمضان». وعن ابن عمر أنه (ص) قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاّ بحق الإسلام وحسابهم على الله»(١٤٠).

إن أول شروط الشرك هو الاتخاذ، اتخاذ الشريك لله تعالى، وهذا يعني وجود العنصر الذاتي الواعي، ويعضد ذلك قول رسول الله (ص): «إنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى»(١٤١).

فإذا كانت النية منصرفة إلى التوجه إلى ما دون الله لكي يقوم بالأمر المطلوب من غفران الذنوب أو الشفاء أو ما إلى ذلك فإن في ذلك اعتقاداً بأن هناك إلى جانب الله من يقدر على ذلك بذاته، وهذا شرك بالله. أما إذا كانت النية غير هذا فهل يمكن أن يعد العمل شركاً يجب القتال عليه؟

إننا إن لم نأخذ بالنية فإن خلطاً كبيراً يقع في مسائل ما يجب وما لا يجبُ، فإذا صلّى الانسان بغير نية القربة لله تعالى فصلاته غير جائزة وقد تكون كفراً أو شركاً، وإذا امتنع عن المحارم بغير نية طاعة الله ورسوله فامتناعه لا يؤجر عليه بل قد يكون آثماً. ومن هنا كانت ضرورة النية في العمل.

على أنه لا بد من التنبيه إلى أن هذه النية قد تظهر وقد لا تظهر، فإذا هي لم تظهر فأمرها موكول إلى الله تعالى، أما إذا ظهرت وتأكد منها ولي الأمر فيمكن اجراء المحاسبة على أساسها.

ومن هنا فإن المسلمين الموحدين لله تعالى والمنزهين له، هل يمكن أن يعتقدوا في قرارة أنفسهم بوجود شركاء له؟ ولماذا يعتقدون بذلك؟

هنا يميز الوهابيون بين مستويين من التوحيد.

التوحيد في الربوبية بمعنى الاعتقاد بخالق واحد للكون، وهذا مما لا خلاف عليه، فحتى مشركي عهد الرسالة كانوا يؤمنون بالله وحده. والتوحيد في الألوهية وهو التوحيد في العبادة والذي يقضي بأن لا يعبد سوى الله، وهذا مثار الخلاف، وقد انصب عليه جهد الرسول الكريم (ص).

ومع تحفظنا على المصطلحات فإننا سنناقش المفاهيم والأفكار.

فعلى المستوى الأول، ليس صحيحاً أن من جاهدهم الرسول جميعاً كانوا من المؤمنين بما يسميه الوهابيون «التوحيد الربوبي» وهو يعني هنا التوحيد الخالقي وإلاّ لماذا أكده الله تعالى بعشرات الآيات وأكد عدم قدرة ما يدعو المشركون على خلق أي شيء. فقد ورد في القرآن قوله تعالى: ﴿أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم. قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار﴾ [الرعد / ١٦] وورد أيضاً: ﴿والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون﴾ [النحل / ٢]. وورد: ﴿إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له﴾ [الحج / ٧٣] وورد: ﴿..وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق﴾ [المؤمنون / ٩١].

أما على المستوى الثاني، فإن المشركين كانوا يؤمنون أن من يدعونهم ويستغيثون بهم ويستشفعون، لهم القدرة على الإتيان بهذه الأمور دون الالتفات إلى تمكين الله لهم وعدم تمكينه.

إلاّ أن للوهابيين فهماً آخر فهم يعتبرون أن الاستغاثة والتضرع تنبع من الاعتقاد بسلطة المدعو وهيمنته على قوانين الطبيعة وعلى القوى الخارجة عن دائرة نفوذ قوانين الطبيعة، يقول أبو الأعلى المودودي(١٤٢): «فالذي يتخذ كائناً ما ولياً ونصيراً وكاشفاً عنه السوء وقاضياً لحاجته ومستجيباً لدعائه وقادراً على أنه ينفعه، كل ذلك بالمعاني الخارجة عن نطاق السنن الطبيعية، يكون السبب لاعتقاده ذلك ظنه فيه أن له نوعاً من أنواع السلطة على نظام هذا العالم، وكذلك من يخاف أحداً أو يتقيه يرى أن سخطه يجر عليه الضرر ومرضاته تجلب له المنفعة، لا يكون مصدر اعتقاده وعمله إلاّ ما يكون في ذهنه من تصور أنه له نوعاً من السلطة على هذا الكون، ثم إن الذي يدعو غير الله ويفزع إليه في حاجته، بعد إيمانه بالله العلي الأعلى، فلا يبعثه على ذلك إلاّ اعتقاده فيه أن له شركاً في ناحية من نواحي السلطة الألوهية» وهنا تطرح نقطتان للنقاش: أولاهما مسألة السنن الطبيعية وغير الطبيعية، وثانيتهما صحة استنتاج المودودي وعدمها. أما مسألة السنن الطبيعية فهي سنن خلقها الله ويحاول الإنسان أن يكتشفها، واكتشافاته فيها ليست نهائية أبداً، وإنما هي دائماً قيد المراجعة.

وأما ما هو خارج إطار السنن الطبيعية، فهو إما سنن لم يكتشفها الإنسان، أو هو لم يشرع باكتشافها بعد، أو هو أمور لا يعجز عنها الله وإن كانت خارج إطار ما تعارف عليه البشر أو بعضهم.

فأي فرق أن تطلب الحاجة بواسطة السنن التي عرفها البشر أو

بواسطة وسائل أخرى، من حيث الإيمان بالله وتوحيده أو عدم الإيمان بذلك.

فإذا كنت مؤمناً موحداً فإنك إذا طلبت الحاجة بواسطة السنن الطبيعية تكون مطيعاً لله راجياً أن يحقق لك ما تريد بإعمال السنن التي تتوقع، وإذا طلبتها بوسيلة أخرى تكون راجياً الله أن يحقق لك ذلك أيضاً بما تعهده عنده من قدرة غير محدودة. وإذا لم تكن كذلك واعتقدت باستقلال السنن عن الله وبحرية الأسباب والنتائج فإنك كافر كيفما سلكت. والوسيلة الطبيعية أو غير الطبيعية لا علاقة لها بهذا، لأنه إذا أردت أن تحصل على الكهرباء بغير الطرق الطبيعية ولا حسب السنن الطبيعية، فهل تكون مشركاً؟.

يبقى الإشكال حول التوسل والاستغاثة وما إليهما. وهنا نجد أن المودودي لا يتبع إلاّ الظن، لأن هناك عدداً من الاحتمالات غير الذي استنتجه من الاعتقاد بكون المدعو يمتلك شركاً في ناحية من نواحي السلطة الألوهية، ومن هذه الاحتمالات وهو ما أكدناه سابقاً غير مرة ـ أن يعتبر الداعي أن للمدعو كرامة ومنزلة عند الله تسمح له بطلب الأمر منه تعالى. فأي من الاحتمالات يجب حمل موقف المسلم عليه؟

لقد أمر الرسول (ص) بعدم اساءة الظن بالمسلم وتأويل حديثه بكل الأوجه قبل تكفيره(١٤٣).

فإذاً يجب قبل اللجوء إلى رمي المسلمين بالشرك أن نبحث على ضوء توحيدهم لله على تأويل تصرفاتهم. أما إذ رميناهم بالشرك والكفر فلا يعدو موقفنا الظن، ﴿وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾ [النجم / ٢٨]. وبهذا نكون آثمين على أساس الحديث الشريف القائل أن من يرمِ أخاه المسلم بالكفر يبؤ به هو نفسه إن لم يثبت مدعاه(١٤٤).

هذا وقد بيّنا أن بعضاً مما يعتبره الوهابيون شركاً بالله قد فعله الله أو أمر به من مثل القسم بغير الله أو أمر الملائكة بالسجود لآدم، واستلام الحجر الأسود. لكن ردّ الوهابيين على هذا أنه لما كان بأمر الله فلا يكون شركاً ولا يعد فاعله مشركاً. والسؤال الذي يطرح هو هل أن الله إذا أمر بعمل يتغير جوهر هذا العمل، فهل إذا أمر الله بعبادة هبل، تنفك هذه العبادة عن كونها إشراكاً بالله. والجواب هو أن الله لا يأمر بالاثم والمعصية. وقد قال تعالى: ﴿قل إن الله لا يأمر بالفحشاء، أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾. ومن هنا فإن ما يأمر به الله يكون في جوهره مباحاً بل ومرغوباً به أو واجباً.

الكفر: لما كان البعض يخلط بين الكفر والشرك كان لا بد من إيضاح الأمر. فالكفر عام يشمل من أنكر الألوهية أو النبوة أو أي ضرورة من ضروريات الدين، بينما الشرك خاص يشمل من كفر بالله عن طريق اتخاذ إله آخر. ولما كنا ناقشنا موضوع الشرك بقي أن نلقي نظرة على موضوع الكفر[١٤٥].

فالكفر أساساً هو الستر وإذا كان مقصوداً فهو الإنكار وهو على درجات، فمنه الكفر المطلق المتعلق بالألوهية والنبوة وضروريات الدين. ومنه الكفر النسبي وهو كل فعل مذموم كالفسق كما في قوله تعالى: ﴿ومن يكفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾. وكالسحر كما في قوله تعالى. ﴿وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر﴾ وكأكل الربا كما في قوله تعالى: ﴿والذين يأكلون الربا... (إلى قوله) كل كفار أثيم﴾ وكالتخلف عن الحج كما في قوله تعالى: ﴿ولله على الناس حج البيت... ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾ وكجحود النعمة كما في قوله تعالى: ﴿...إن الانسان لكفور﴾ و ﴿قتل الانسان ما أكفره﴾.

وفي هذه الأحوال المختلفة لا يستحق الإنسان دائماً نفس الجزاء، فليس عقاب من كفر بالله كعقاب من كفر بالرسول والشريعة ومن كفر بالله والرسول وضروريات الدين، ليس كمن ارتكب محرماً من كبيرة أو كمن لم يشكر النعمة أو الخ. . .

وفي هذه الأحوال أيضاً لا يكون الكافر أصلاً كالمرتد.

غير أن الوهابية تخلط بين مراتب الكفر المختلفة وتعتبر الردة ممارسة من كان أسلم هو شخصياً أو أسلم آباؤه، لأي فعل مما حرم الله ومما حرّم شيوخها، وسواء توفرت النية أم لا.

فأما في مجال ما حرّم الله، فإن لكل درجة من درجات الكفر عقوبات بحسب طبيعة الفعل، دنيوية أو أخروية، أو العقوبتين معاً، وليس كل هذه العقوبات هي القتل وسبي الذراري.

ففي مجال الكبائر مثلاً يقول الحديث الشريف[١٤٦]: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا يقتل حين يقتل وهو مؤمن».

وعندما لا يكون مؤمناً فهو يكون كافراً، فهل يستحق في كل هذه الأحوال القتل: على الزنا وعلى السرقة وعلى شرب الخمر وعلى القتل، أو هل هو يستحق القتل على أي نوع من أنواع الفسق أو معاطاة الربا أو ما إليها؟. . .

إن الوهابية كما رأينا تعتبر أن من مارس أي أمر مما تحرمه كافر أو مشرك، لذلك فإن قادتها كانوا يستتيبون من يأتي إليهم طوعاً أو كرهاً ويأمرونه بالإتيان بالشهادتين ثم يطلبون منه أن يشهد على نفسه

أنه كان كافراً وكذلك على والديه كما على بعض كبار علماء الماضي ممن يحدّدونهم له. فإن شهد بذلك قبلوه وإلاّ أمروا بقتله. وإذا كان قد أدّى فريضة الحج سابقاً ثم قبلوه فإنهم يأمرونه بالحج ثانية على أساس أن حجته الأولى قام بها وهو مشرك. وكانوا إلى ذلك يسمون من اتبعهم من الخارج بالمهاجرين ومن كانوا من أهل قراهم يسمونهم بـ «الانصار»[١٤٧].

وبناء عليه فقد اعتبر عبد العزيز في خطاب[١٤٨] القاه في الطائف بحضور «رؤساء البلاد» في ١٦ محرم سنة ١٣٥١ أن «الناس هنا ثلاث: إما محب ومساعد وإما لا محب ولا مساعد وإما معاند فقط. والأول له ما لنا والثاني نسعى جهدنا في إفهامه (كيف) أما الثالث فجزاؤه ما جاء في الآية الشريفة: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ [المائدة / ٣٣].

وهكذا فإن عدم الموافقة على الوهابية يعتبر حرباً على الله ورسوله وفساداً في الأرض.

أما الموافقة والدخول في السلك فهي كفارة لكل الذنوب فقد جاء في فتح المجيد[١٤٩]: «ان التوحيد الخالص الذي لا يشوبه شرك لا يبقى معه ذنب لأنه يتضمن محبة الله وإجلاله وتعظيمه وخوفه ورجاءه وحده ما يوجب غسل الذنوب ولو كانت قراب الأرض».

وهكذا يتبين موقف الوهابية على ضوء تعاليم الله ويظهر استخفافهم بأرواح المسلمين وأموالهم الذي يقابله تعظيمهم لأمرائهم

تعظيماً غير عادي مع «تعبيد» هؤلاء أنفسهم قولاً وعملاً للقوى الكبرى.

ولعل ما نستطيع استنتاجه هنا إن آباء الوهابية كانت تستبد بهم عادة الغزو والسلب والنهب فتبنوا مذهباً يبيحها بل ويأمر بها، الأمر الذي أفضى إلى قتل المسلمين وسبيهم، وهي الخدمة التي لم يكن يحلم بها أعداء الإسلام الذين استطاعوا بواسطة المذهب الوهابي أن يدفعوا النقاش في الإسلام باتجاه الجزئيات البسيطة، ليصرفوا نظر المسلمين عن نهب خيراتهم واستعبادهم واحتلال بلادهم.

وأخيراً لو أن المسلمين استخدموا مواقف الوهابية منهم، ضد الوهابية لاستحلوا أن يقتلوهم خمس مرات: مرة لبغيهم وقتلهم المسلمين، ومرة لاستباحتهم دمائهم، ومرة لسكوتهم عن ولاة أمرهم «المعبّدين» أنفسهم للقوى العظمى، ومرة لكفرهم بتكفير المسلمين ومرة لكفرهم بتشبيه الله وعدم تنزيهه.

البدعـــة :

البدعة في الدين حسب رأي الوهابية هي ما حدثت بعد القرون الثلاثة (الأولى للإسلام) (وهي) مذمومة مطلقاً خلافاً لمن قال: حسنة وقبيحة.

« فمن البدع المذمومة التي تنهى عنها رفع الصوت في مواضع الأذان كالمنبر ، بغير الأذان سواء كان آيات أو صلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو ذكراً أو غير ذلك ، بعد أذان أو في ليلة جمعة أو رمضان أو العيدين ، فكل ذلك بدعة مذمومة ».

ومنها قراءة الحديث عن أبي هريرة بين يدي خطبة الجمعة . . . ومنها الاجتماع في وقت مخصوص على من يقرأ سيرة المولد النبوي الشريف اعتقاداً أنه قربة مخصوصة مطلوبة دون علم السير فإن ذلك لم يرد.

ومنها اتخاذ المسابح فإنها تنهى عن التظاهر باتخاذها .

ومنها الاجتماع على رواتب المشايخ ورفع الصوت وقراءة الفواتح والتوسل بهم في المهمات . . .

ومنها قراءة مولد النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقصائد بألحان تخلط بالصلاة عليه والأذكار والقرآن. . .

ومنها ما اعتيد في بعض البلاد من صلاة الخمسة فروض بعد آخر جمعة من رمضان. . .

ومنها رفع الصوت بالذكر عند حمل الميت وعند رش القبر بالماء وغير ذلك مما لم يرد عن السلف . . .

ومنها تكرار لفظ الجلالة (الله) في أعمال أهل الذكر.

هذا وقد أحرق الوهابية كتب المنطق وبعض الكتب الأخرى كـ« دلائل الخيرات » بدعوى اشتمالها على البدعة أو الشرك . وقد قتل محمد بن عبد الوهاب مؤذناً أعمى كان نهاه عن الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المئذنة بعد الأذان فلم ينته.

ولمناقشة موقف الوهابية هنا ، لا بد من معرفة معنى البدعة أولاً .

ثم مناقشة موقف الوهابية في هذا الموضوع ثانياً.

البدعة في اللغة

يقول الفراهيدي في العين: «البَدع: هو احداث شيء لم يكن له من قبل خلق ولا ذكر ولا معرفة».

ويقول الراغب في معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم كما عد الابداع: «هو انشاء صفة بلا احتذاء ولا اقتداء».

ويقول ابن منظور في لسان العرب: «ابتدع الشيء أي انشاه وبدأه».

ويقول الفيومي: «وأبدع الله الخلق إبداعاً، أي خلقهم لا على مثال سابق، وأبدعت الشيء وابتدعته: أي استخرجته وأحدثته. ومنه قيل للحالة المخالفة: بدعة وهي من الابتداع (المصباح المنير: ج ١ ص ٣٨).

وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿بديع السماوات والأرض﴾ [البقرة / ٧٧] كما جاء: ﴿ورهبانية ابتدعوها﴾ [الحديد / ٢٧]. ومن هنا تكون البدعة كل أمر مستجد صنع دون تمثل صورة سابقة.

البدعة في الاصطلاح

أما في الاصطلاح الشرعي فقد اكتنف مفهوم (البدعة) الكثير من التشويش والغموض في كلمات العلماء والباحثين، فوردت في مقام التعريف به تحديدات عديدة جداً يمكن إرجاعها إلى القول بأن البدعة هي «إدخال ما ليس من الدين فيه»[١٥٠] وهو التعريف الذي أوضحه السيد محسن الأمين في كتابه «كشف الارتياب» بقوله إن: «البدعة إدخال ما ليس من الدين في الدين كإباحة محرم أو تحريم مباح أو إيجاب ما ليس بواجب أو ندبه أو نحو ذلك»[١٥١].

ولما كان الدين قد نزل كاملاً شاملاً فإنه لا مكان للبدعة فيه ولذلك فقد روي تحريمها عن رسول الله (ص) في عدد كبير من الأحاديث الشريفة.

فقد عدها (ص) رفضاً للدين في قوله: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ»[١٥٢] وذلك لأن ما أتى به الرسول (ص) من ربه ليس بحاجة إلى زيادة من أحد كما يتبين من أمره (ص) المسلمين بأن: «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم»[١٥٣].

ومن لا يلتزم بقول الرسول فقد ضل وسيلقى عذابه وهذا ما يؤكده (ص) بقوله: «إياكم والبدع فإن كل بدعة ضلالة وكل ضلالة تسير إلى النار»[١٥٤].

كما إن الرسول (ص) في أحاديث أخرى يعد البدعة غشاً في الدين إذ قال: «من غش من أمتي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين». قالوا: يا رسول الله وما الغش؟ فقال (ص): «إن يبتدع لهم بدعة فيعملوا بها»[١٥٥]. ثم يؤكد الرسول مرة أخرى بأن المبتدع مصيره إلى أسوأ العذاب وذلك في الحديث الشريف الذي يقول: «أصحاب البدع كلاب النار»[١٥٦].

على أن الرسول (ص) وبعد تحذيره كان يدرك أن البدع ستفشو لذلك فهو كان يهيب بالعلماء أن يتصدوا لها وإلا فإنهم سيكونون مقصرين بل آثمين، يقول (ص): «إذا ظهرت البدع في أمتي فليظهر العالم علمه، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله»[١٥٧].

أما إذا احترم صاحب البدعة فإن ذلك يكون على حساب الدين لأن «من وقر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام»[١٥٨]، ومن هنا فإن صاحب البدعة يجب أن يكون مذموماً مرذولاً وهذا واجب على المسلمين. يقول (ص): «من أرعب صاحب بدعة ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً؛ ومن انتهر صاحب بدعة آمنه الله من الفزع الأكبر؛ ومن أهان صاحب بدعة رفعه الله في الجنة درجة، ومن لان له لقيه تبشباً فقد استخف بما أنزل على محمد»[١٥٩].

هذا وقد «احتجر الله توبته عن صاحب كل بدعة»[١٦٠].

تصنيف البدع: غير أن البعض لا يعتبر أن هذه الأحكام مطلقة في شأن البدعة، بل هو يميز في البدع بين المحلل والمحرّم، فقد ورد عن الشافعي أنه ميز بين البدعة الضلالة والبدعة الخير، فهو يقول:

«المحدثات من الأمور ضربان: أحدهما ما أحدث مما يخالف كتاباً أو سنة أو أثراً أو إجماعاً، فهذه البدعة الضلالة. والثاني ما أحدث من الخير، لا خلاف فيه لواحد من العلماء وهذه محدثة غير مذمومة، وقال عمر في قيام شهر رمضان: «نعمت البدعة هذه»(١٦١).

كما ورد عن ابن حزم الأندلسي أنه يرى في البدعة ما يؤجر عليه صاحبه ويعذر بما قصد إليه من الخير، ومنها ما يؤجر عليه صاحبه ويكون حسناً وهو ما كان أصله الإباحة، كما روي عن عمر: «نعمت البدعة هذه»(١٦٢).

ولكن بعض العلماء لم يكتفوا بهذا التصنيف الإجمالي، بل هم راحوا يوزعون البدعة على أبواب الفقه فيرون فيها الواجب والمستحب والمباح والمكروه والمحرم، فقد قال عز الدين بن عبد السلام: «البدعة خمسة أقسام، فالواجبة: كالاشتغال بالنحو الذي يفهم به كلام الله ورسوله، لأن حفظ الشريعة واجب، ولا يتأتى إلا بذلك فيكون من مقدمة الواجب؛ وكذا شرح الغريب وتدوين أصول الفقه، . . والمحرّمة: ما رتبه من خالف السنة من القدرية والمرجئة والمشبهة. والمندوبة: كل إحسان لم يُعهد عينه في العهد النبوي، كالاجتماع على التراويح وبناء المدارس والربط والكلام في التصوف المحمود وعقد مجالس المناظرة، إن أريد بذلك وجه الله. والمباحة: كالمصافحة عقب صلاة الصبح والعصر والتوسع في المستلذات من أكل وشرب وملبس ومسكن. وقد يكون ذلك مكروهاً، أو خلاف الأولى والله أعلم». ١٦٣

هذا ويحدد الغزالي الموقف بشكل إجمالي فيقول: «ليس كل ما أبدع منهياً عنه. بل المنهي عنه بدعة تضاد سنة ثابتة وترفع أمراً من الشرع مع بقاء علته. بل الابداع قد يجب في بعض الأحوال إذا تغيرت الأسباب»(١٦٤).

وهكذا نرى أن التقسيم المتأثر بمقولة عمر عن صلاة التراويح «نعمت البدعة هذه» يحاول أن يوسع مفهوم البدعة لتشمل أموراً لا تضاد الشريعة أو ربما هي تندرج تحت أصل من الأصول، وإلاّ فهي محاولة فاشلة للتبرير، لأن تحريم البدع قد وردت فيه النصوص المتضافرة عن النبي (ص)، كما في بعض آيات القرآن التي فسرها الرسول (ص) نفسه، كتفسير قوله تعالى: ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً﴾ [الانعام / ١٥٩] قال: «هم أصحاب البدع وأصحاب الأهواء، ليس لهم توبة وأنا منهم بريء وهم براء»[١٦٥]. كما أن تحريمها «لا يحتاج... إلى دليل خاص لحكم العقل بعدم جواز الزيادة على أحكام الله تعالى ولا المنتقص منها ولاختصاص ذلك به تعالى وبأنبيائه الذين لا يصدرون إلا عن أمره».

وقد قال علي بن أبي طالب (ع)[١٦٦]: «إن الله بعث رسولاً هادياً بكتاب ناطق وأمر قائم لا يهلك عنه هالك، وأن المبتدعات المشبهات هن المهلكات إلاّ ما حفظ الله منها وان في سلطان الله عصمه لأمركم» كما قال (ع): «اقتصاد في سنة خير من اجتهاد في بدعة» وقال أيضاً: «واعلموا عباد الله أن المؤمن يستحل العام ما استحل عاماً أول ويحرّم العام ما حرّم عاماً أول، وأنه ما أحدث الناس لا يحل لكم شيئاً مما حرم عليكم. وأن الحلال ما أحل الله والحرام ما حرّم الله... وأن الناس رجلان: متبع شرعة ومبتدع بدعة ليس معه من الله سبحانه برهان سنة ولا ضياء حجة».

ومن هنا فإن البدع التي يصح وصفها شرعياً بهذا الوصف هي البدع التي تضيف أحكاماً أو تنقص تحت أي عنوان كان. وهذا ما يراه علماء كالشاطبي الذي يتحدّث عن النصوص الشرعية التي تناولت مفهوم البدعة بالذم والتقريع فيقول: «إنها جاءت مطلقة عامة على

كثرتها لم يقع فيها استثناء البتة ولم يأت فيها مما يقتضي منها ما هو هدى ولا جاء منها كل بدعة ضلالة إلا كذا وكذا. ولا شيء من هذه المعاني. فلو كان هناك محدثة يقتضي النظر الشرعي فيها الاستحسان أو أنها لاحقة بالمشروعات لذكر ذلك في الأحاديث، لكنه لا يوجد، فدل ذلك على أن تلك الأدلّة بأسرها على حقيقة ظاهرها من الكلية التي لا يتخلف عن مقتضاها فرد من الأفراد(١٦٧).

ويضيف الشاطبي حول التقسيم الخماسي للبدعة فيقول: «إن هذا التقسيم أمر مخترع لا يدل عليه دليل شرعي من نصوص الشرع ولا من قواعده، إذ لو كان هناك ما يدلّ من المشرع على وجوب أو ندب أو إباحة لما كان ثمة بدعة ولكان العمل داخلاً في عموم الأعمال المأمور بها أو المخير فيها. فالجمع بين تلك الأشياء بدعاً وبين كون الأدلة تدل على وجوبها أو ندبها أو إباحتها جمع بين متنافيين»(١٦٨).

ولعل كل هذا يدل دلالة واضحة على التناقض المنطقي بين السنة والبدعة، وهو ما أكدته الأحاديث الشريفة، كقوله (ص): «لا يذهب من السنة شيء حتى يظهر من البدعة مثله: حتى تذهب السنة وتظهر البدعة، حتى يستوفي البدعة من لا يعرف السنة، فمن أحيا سنة من سنتي قد أميتت كان له أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً. ومن أبدع بدعة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئاً»(١٦٩).

على أن الكثرة والقلة لا دور لهما في تحديد السنة والبدعة، كما قد يتراءى للبعض. فقد قال (ص): «وأما أهل السنة فالمتمسكون بما سنه الله لهم ورسوله وإن قلوا، وأما أهل البدعة فالمخالفون لأمر الله تعالى وكتابه ولرسله والعاملون برأيهم وأهوائهم وإن كثروا. وقد

مضى منهم الفوج الأول وبقيت أفواج وعلى الله فضها واستئصالها عن جدبة الأرض»[١٧٠].

هذا وقد ورد عن علي بن أبي طالب (ع) كلام يؤكد دخول المبتدع في الكفر حيث يقول: «وأدنى ما يكون به العبد كافراً من زعم أن شيئاً نهى الله عنه، أن الله أمر به ونصبه ديناً يتولى عليه ويزعم أنه يعبد الذي أمر به. وإنما يعبد الشيطان»[١٧١].

على أنه أخيراً لا بد من التنبيه إلى بعض المنزلقات التي قد تدفع إلى الخلط في موضوع السنة[١٧٢]:

١ ـ التفريق بين الشريعة والعادات:

إن مفهوم التبديع لا يتناول، بمعناه الشرعي، العادات والتقاليد وسائر ضروب المعاش المتحوّلة والمتطورّة من عصر إلى عصر كالانتقال من ركوب الدواب إلى ركوب الطائرات ومن القتال بالسيف إلى القتال بالأسلحة المتطورة. . . فالتحريم إنما ينصب على الأمور التي بيّنت فيها الشريعة حكماً، لا ما تركته فيكون مباحاً، ذلك لأن الأصل في ما لم يرد عليه نص من الشرع أو تقرير هو الاباحة، على أساس الآية القائلة: ﴿ما كلف الله نفساً إلا ما آتاها﴾. وهذا ما يراه حتى ابن تيمية الأب الروحي للوهابية الذي يقول: «فالأصل في العبادات لا يشرع فيها إلاّ ما شرعه الله. والأصل بالعادات لا يحظر منها إلا ما حظره الله».

٢ ـ ما ورد فيه حكم عام أو خاص:

إن ما ورد بشأنه حكم في الشريعة خاص فهو على حكمه وما خالف الحكم بغير دليل شرعي، فهو بدعة، ومحادّة لله ولرسوله. أما

ما ورد بشأنه حكم عام، فهو كذلك إلا إذا ورد فيه حكم خاص مخالف.

يبقى أن بعض التفاصيل قد لا تكون أتت ظروفها في عصر النبي (ص) بل فيما بعد. كتشريع صلاة الآيات بمناسبة الزلازل ولكن لم تحصل هذه الزلازل مثلاً، فإذا حصلت بعد النبي فلا يكون الإتيان بتلك الصلاة بدعة.

٣ ـ الوسائل والموضوعات:

إذا كانت البدعة تنصب على إحداث موضوعات جديدة في العبادة لم تكن معروفة أيام الرسول أو منصوصاً عليها، فإن الوسائل التي تمكن من العبادة، والتي قد يكون فيها مقدمات الواجب، إذا لم يرد بشأنها نص خاص فهي مباحة بهذا الوصف، فإذا سافر شخص لصلاة الجمعة بالسيارة مثلاً إلى حيث يوجد مسجد تصلى فيه، فإن هذا السفر ليس بدعة على أساس أنهم في زمن الرسول (ص) كانوا يسافرون على الدواب أو سيراً على الأقدام. وتحت هذا الباب يدخل استخدام مكبرات الصوت لإسماع الأذان، أو الأدعية كما يدخل استخدام مواد البناء والحديثة لبناء المساجد...

٤ ـ القصد:

لكن من يقوم بعمل مباح في الأصل إذ لا دليل على منعه، أو هناك دليل على أصله العام، على أساس أنه من المباحات أو من متفرعات الدليل العام. فهذا الأمر لا يمكن أن يكون بدعة. أما إذا أتاه على أساس أنه مشرع ومقصود من الشرع بذاته، فهذا الأمر يكون بدعة. كأن يأمر الله تعالى مثلاً باستحباب الصيام باستثناء العيدين،

فيأتي بالصيام في يوم معين على أنه هو المقصود من الشارع المقدس.

الوهابية والبدعة

ومن هنا فإن البدعة كلها لون واحد محرم. ولا يخرج من ذلك ما أحدث في القرون الثلاثة الأولى، لأن النصوص عامة وشاملة ولا تحتمل أي استثناء.

وأخيراً

إننا نتفق مع الوهابية حول تحريم البدع - إلا أننا نختلف معهم على مصاديق البدعة، وبالتالي على ما يبدو على مفهومها. وسنناقش «البدع» الوهابية فيما يلي، على ضوء الإيضاحات التي أوردناها أعلاه، متناولين مسائل الأذان وقراءة المولد النبوي الشريف وقراءة الفواتح في الاجتماعات وحمل المسابح.

ففي مسألة الأذان نسأل:

هل إذا ما أتي بالأذان صحيحاً يكون إباحة لمحرم أو تحريم لمباح أن يرحَّم ويذكّر قبله أو بعده؟. وهل الترحيم والتذكير مختصان بوقت دون وقت وبمكان دون مكان؟.

من المعروف أن الأصل في الأمور الإباحة إلى أن تحرم، فيأتي التحريم استثناء على الإباحة. فإذا كانت هذه الأمور تذكيراً وترحيماً فهي ليست فقط مباحة بل مندوب إليها أيضاً، إذ لا حرمة لها في حد ذاتها وهي لم تجعل جزءاً مما هو محدد شرعاً دون أن يكون محتوياً عليها أصلاً، بل هي جعلت قبل الأمر المحدد شرعاً كالأذان مثلاً أو بعده.

أما مسألة رفع الصوت في غير الأذان ، في مواضع الأذان (كالمنبر) بقراءة قرآن أو صلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فما هو المانع ؟ .

إنه مسألة حسنة أن يقرأ القرآن سواء في مواضع الأذان أو غيرها وأن يصلى على النبي في أي مكان .

وأما مسألة قراءة المولد النبوي الشريف ، فهي تعبير عن السرور بمجيء هذا المخلص العظيم والقائد الفذ المختار من الله بأعظم الرسالات السماوية . وفي القصائد التي تعتبر مدائح نبوية تعبير كذلك عن عرفان من جهة وتعظيم من جهة أخرى ، وهذه أمور مستحبة مندوبة سواء كانت القراءة سرداً أو كانت مرتلة بشكل لا يخل بالحشمة والآداب والرصانة .

وأما قراءة الفواتح في الاجتماعات كقراءتها في الخلوات ، وسواء جرت على رواتب المشايخ أم في المساجد أو البيوت ، وسواء أهدي ثوابها للمشايخ أو لغيرهم من أموات المسلمين فهي مسألة مندوبة أيضاً . وأما صلوات الخمس الفروض بعد آخر جمعة من رمضان ، هل تعدو كونها صلوات مستحبة ؟ .

ثم ما هو الحرام الذي أبيح أو الحلال الذي حرّم في الذكر عند حمل الميت أو عند رش الماء على القبر ، وما هو المسيء في تكرار اسم الجلالة وإشباع النفس منه .

وأخيراً من الذي حرم حمل المسابح ، وهل حملها واستخدام حباتها لتعداد ذكر الله أو التسبيح محرّم ؟ .

ونحن نسأل مع الشيخ عبد القادر الإسكندراني(١٧٣) : « **هل من مؤمن في قلبه مثقال ذرة من الإيمان يأمره إيمانه أن يجعل ذكر الله بأسمائه الحسنى بدعة وإلحاداً** وضلالاً كما تزعم الوهابية ، مع قوله تعالى : ﴿ **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون بما كانوا يعملون** ﴾ ، وهل للدعاء معنى في هذه الآية غير الذكر سواء كان ذكر سؤال وتضرع أو مجرد تلذذ وتعظيم وإذكار . . . وكذلك قوله تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما

تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ فكيف تزعم الوهابية أن الذكر بالاسم المفرد لا يفيد القلب أي فائدة ؟ ».

وفي الواقع أن الأمور التي يبدِّعها الوهابيون يدخل معظمها في باب السنن التي يتمشى عليها عامة المسلمين ، وهي سنن حسنة ولمن سنها أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة(١٧٤).

الوهابية والسياسة

لقد نشأت الوهابية في منتصف القرن الثامن عشر وقوى الاستعمار تحاول إيجاد مواطىء أقدام على أطراف الجزيرة العربية، وانتهى بها الأمر إلى احتلال بلاد الإسلام، فلم يستفت علماء الوهابية القرآن ولا السنة حول هذا الأمر، كما أنهم لم يحاولوا أن يعرفوا موقف الشرع الحنيف من واجبات الحاكم وحقوقه ومن واجبات المحكومين وحقوقهم.

في مسألة العلاقة مع القوى الكافرة برسالة محمد، وقفت الوهابية مؤيدة صراحة أحياناً وضمناً أحياناً أخرى للإرتماء في أحضان «الانكليز»، كما قام قادة «جيش الأخوان» في وجه التبعية للانكليز وأفتى علماء الوهابية بخطأهم وضلالهم، وكأن «علماء» الوهابية صدّقوا قادتهم السياسيين عندما كانوا يقولون لهم وبكل بساطة: إن الانكلير أهل كتاب وليس مطلوباً منهم إلا الجزية وهم يدفعونها.

ولقدْ نسي قادة الوهابية الأمر بقتال الكافرين لا سيما عندما يتحرشون ببلاد المسلمين أو يحتلونها، وذلك للدفاع عن حياض الإسلام. كما تناسوا أمر الله تعالى بعدم اتخاذ اليهود والنصارى أولياء من دون المؤمنين. أما تفسير ذلك فإنه على ما يبدو قائم في مذكرات المستر هامفر.

أما على صعيد نظام الحكم، فقد تناسى «فقهاء» الوهابية ـ إذا صدقنا أنهم يعدون ما يحصل كلما تولى ملك، مبايعة وحكم شورى، فقد تناسوا واجبات الحاكم تجاه المحكومين بشكل كلي، علماً بأن الإسلام أقر محاسبة الحاكمين والزمهم بالحفاظ على حقوق الناس وحرياتهم عن طريق عدم الزامهم إلاّ بما ألزمهم الله به.

فعلى الصعيد الأول: رأينا مثلاً أن عمر الذي كان يطوف حول الكعبة، وضايقه طائف فعلاه بالدرة، يعود بعد أن بيّن له الطائف حقه بالطواف، عن موقفه، ويحاول إقناعه بأن يأخذ الدرة ويضربه تكريساً لحق الناس في محاسبة الحاكم.

وعلى صعيد الحريات والحقوق، نجد الإسلام قد أقر بشرعية الجرائم والعقوبات عن طريق تحديده لما يعتبر جرائم دون أي مجال للتوسع والقياس كما حدد العقوبات بشكل حصري لا مزيد عليه.

أما الحريات السياسية فقد احترمها الإسلام إلى أبعد الحدود، فهذا أبو بكر لا يلزم سعد بن عبادة ولا بني هاشم بالمبايعة وهذا علي لا يلزم من تخلف عن بيعته، وهو لم يقاتل الخوارج لتكفيرهم إياه واتخاذهم مواقف سياسية معارضة له، بل هو يعلمهم أنه لا يمنعهم مساجد الله ولا الفيء ولا يقاتلهم ما لم يبدأوه بقتال.

أما الحريات الأخرى المتعارف عليها فقد حفظها الإسلام ورعاها من حق الانسان بالحياة، عن طريق منع ازهاق الأرواح إلا في القتل والفساد في الأرض المحدد بشكل واضح، إلى حق الانسان في أملاكه عن طريق تبيان حدود الله بما لا يدع مجالاً للاستزادة، إلى سلامة الانسان وحرمة المنزل والمراسلات.

فهل درى قادة الوهابية بكل هذا؟ وهل يرون ما يقوم به

زعماؤهم، من إباحة أرض الجزيرة العربية للكافرين إلى تحريم الحريات السياسية وغيرها من الحريات عندما تتعارض مع مصلحة الحاكم الشخصية، إلى انتزاع الأملاك والاعتداء على الحقوق، إلى التحكم بحركة الحجيج الخ. . . تطبيقاً «لأحكام» الإسلام دون «ابتداع أو شرك».

إن هذا على ما يبدو، يخرجه «فقهاء» الوهابية عن دائرة صلاحياتهم وهم يفوّضون ملوكهم بالتصرف فيه كما يشاؤون. ولعل أطرف ما طلع علينا مفتيهم عبد الله بن باز مؤخراً، وبضغط من حكومته الراضخة للإرادة الأميركية، تلك الفتوى التي تحلل الصلح مع العدو الصهيوني والتعامل معه. فهل في كل هذا شيء من السنة؟.

التشريع والقضاء :

ينسحب الموقف الوهابي العام المتميز بالتسرع والسطحية على ممارسة حكامهم للتشريع وقضاتهم للقضاء ، فهم يطبقون الأحكام الإسلامية بطريقة جائرة ظالمة مثيرة الاشمئزاز والاستغراب وتعود على الدين الحنيف بأسوأ الأثر ، فقطع الأيدي والأرجل بل وقطع الرؤوس من الأمور السائدة والمتمادية وهي تجري بناء على أحكام قضاة جهلة وبعد تحقيقات يقوم بها شرطة أميون ، كما تصدر التشريعات أحياناً مجانبة للاسلام نصاً وروحاً .

ففي كل يوم جمعة تجري في مدن المملكة المختلفة عمليات تنفيذ العقوبات بمن لا سند له من الأمراء أو من السفارات الهامة بطريقة تدل على وحشية بالغة تسمح لأعداء الإسلام بوصمه بأشنع النعوت.

فقد روى هارولد ديكسون أنه قابل أحد جلادي ابن جلوي في شباط سنة ١٩٢٠ ، وهو الذي كان قد قطع اثنين وعشرين رأساً بشرياً وعشرات من الأيدي ، فأخبره الجلاد أن قطع اليد لا يؤلم ولكن الذي يدفع المعاقب الى الصراخ هو وضع جذع اليد في الدهن المغلي بعد قطعها لمنع النزيف[١٧٥].

كما روى ناصر السعيد(١٧٦) أن فيصلاً عندما انتزع الملك من أخيه سعود ابن عبد العزيز، افتتح عهده بالإفراج عن المساجين فقتل البعض وقطع أيدي وأرجل بعض آخر . فإذا كان هؤلاء المساكين يستحقون هذه العقوبات فلماذا هي لم توقع بهم في عهد سعود ، وإن كانوا لا يستحقونها لسبب من الأسباب فلم ينفذها بهم فيصل؟ .

أما عن الحصانة التي يتمتع بها الانسان في الجزيرة العربية أمام القضاء الوهابي ، فتكفي للدلالة عليها الحادثة التالية التي نقلها عبد الرحمن ناصر الشمراني عن المميز الوزير المفوض العراقي في السعودية في يومياته بتاريخ ٨ شباط ١٩٥٥ حيث يقول(١٧٧) : إن إحدى المحاكم حكمت بقطع يد أحد المتهمين بالسرقة ونفذت الشرطة الحكم . ولكن ما لبث أن تبين أن التباساً قد حصل بين اسم السارق الحقيقي واسم الشخص الذي قطعت يده ، ولكن الأمر كان قد قضي .

والسؤال المطروح في مواضيع إيقاع العقوبات والحدود بالناس هو : هل يجوز لمن يرتكب كل أصناف الكبائر والصغائر ، كما سوف نرى في الصفحات التالية ، أن ينزل العقوبات وينفذ الحدود بالناس؟ .

وقد بلغت عمليات الإعدام وقطع الأيدي والأرجل حسب تقدير ناصر السعيد مليوناً ونصف المليون ، في طول نجد والحجاز وعسير وعرضها(١٧٨).

ولعل الأكثر غرابة من الأحكام هو بعض التشريعات التي تصدر في المملكة بين الحين والحين كذاك التشريع الذي صدر بتحديد مهور النساء . فقد ذكرت صحيفة الرياض بتاريخ ٢٧ ربيع الأول سنة ١٤٠٥هـ أن الحكومة السعودية اتخذت قراراً بتحديد مهور النساء في منطقة جيزان كما يلي :

- خمسون ألف ريال للمرأة البكر .
- خمسة وثلاثون ألف ريال للثيب بدون أولاد .
- خمسة وعشرون ألف ريال للثيب التي لها أولاد .

ولعل الذين أصدروا هذا التشريع لم يطلعوا على ما دار بين عمر عندما أراد أن يحدد مهور النساء وبين تلك المرأة التي احتجت بالقرآن فاقتنع عمر وأجابها :

أخطأ عمر وأصابت امرأة . الأمر الذي أكد أن مهر المرأة حق من حقوقها هي لا من حقوق الحكام وبالتالي فلا سلطة لهم عليه إطلاقاً.

خلاصـــــة :

من كل ما تقدم يتبين لنا أن الوهابيين لم ينقموا من المسلمين أموراً أساسية ، بل هم جادلوا في مسائل ثانوية وكفّروا المسلمين على أساسها ، إلا أن أفكارهم سرعان ما انكشف تهافتها ووهنها ، ومن هنا نجد أنفسنا حيال هذا الأمر أمام فرضيتين :

أولاهما الجهل والسطحية وهو ما يؤكده العديد ممن التقوا بأئمة الوهابية . فقد روى الشيخ ابراهيم المنصوري(١٧٩) أن ابن عبد الوهاب « كان يمنع أتباعه من مطالعة كتب الفقه والتفسير والحديث ، وقد أحرق كثيراً منها وأذِن لكل من اتبعه أن يفسر القرآن الشريف بحسب فهمه . . . فكان كل واحد منهم يفعل ذلك حتى ولو كان لا يحفظ من القرآن شيئاً» ، وذلك بعد أن أحرق كتاب « دلائل الخيرات » وغيره من كتب الصلاة على النبي وكذلك كتب المنطق».

كما ذكر السيد محمد سليم الكيلاني الاسكندراني(١٨٠) أنّ أحد المفتين الوهابيين ويدعى عبد الله خلف حضر إلى دمشق وطلب منه أن يعطيه كتاباً في علم النحو وشيئاً من فن الصرف فأمره أن يحضر مع صغار الطلبة الذين يدرسون كتاب « قطر الندى » وكتاب « النبأ في الصرف » وكذلك فعل القاضي الشيخ عبد الله مرعي. ويعلق السيد الاسكندراني على مستواهم هذا بقوله: «فإذا كان هذا مبلغ علم قاضيهم ومفتيهم فما بالك في بقية علمائهم » . ويضيف : « إني اجتمعت بكثير من علمائهم فوجدتهم من الجهل بمكان ومن العلم بمعزل».

وحتى أقرب الناس نسباً بمحمد بن عبد الوهاب وأعني به أخاه سليمان نسب إليه القصور العلمي وذلك في قوله(١٨١) : « ابتلي الناس بمن ينتسب إلى الكتاب والسنة ويستنبط من علومهما ولا يبالي من خالفه . وإذا طلبت منه أن تعرض كلامه على أهل العلم لم يفعل بل يوجب على الناس الأخذ بقوله وبمفهومه ومن خالفه فهو عنده كافر . هذا وهو لم يكن فيه خصلة واحدة من

خصال الاجتهاد ولا والله عشر واحدة ومع ذلك راج كلامه على كثير من الجهال» .

ونحن ندعو من يشك في أمر جهل الوهابيين ليس فقط إلى التأمل في أفكارهم وما تنم عنه من معارف جزئية وسطحية ، بل وإلى أساليبهم الكتابية الركيكة الواضحة في كتبهم ورسائلهم ناهيك عن رسائل مؤسس دولتهم الحديثة وبرقياته التي تنم عن أمية واضحة .

على أن هذا الجهل لم يستطع حتى المدافعون عن الوهابية إلا أن يعترفوا به ، فهم يقولون إن الجهل كان سائداً في مناطق نجد بشكل عام . فقد جاء في شرح محمد حامد الفقي لأسباب نجاح الوهابية في حين فشل ابن تيمية وابن القيِّم الجوزية ، قوله : «على نهج شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم سلك شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ، ولكنه كان قد هيىء له من الظروف ما لم يتهيأ للشيخين . فبلاد نجد البدوية (حيث انطلقت دعوة ابن عبد الوهاب) غير مصر والشام (حيث نشط ابن تيمية ثم تلميذه ابن القيم) التي كانت تعج بالملوك والأمراء والجيوش والقواد والمدارس والحضارات وتكايا المتصوفة المختلفة والقضاة والعلماء والمدرسين في جميع المذاهب»[١٨٢] .

وهكذا فإنه من وجهة نظر هذا النصير المتحمس للوهابية الذي كان يتنقل بين قصور أمراء آل سعود ، لعب خلو نجد من الحضارة والعلم والعلماء الدور الأساسي في ظهور دعوة ابن عبد الوهاب وانتشارها على أن هذه البيئة التي يتفشى فيها الجهل لم تنعكس على عامة الناس فقط بل وعلى دعاة الوهابية أيضاً .

ولكن الجهل الوهابي ساندته القوة العسكرية الأمر الذي سمح بفرض العقيدة على من لم يتقبلها بحد السيف . فتظاهر هؤلاء بالقبول أو صُوِّر للوهابيين أنهم قبلوا ، وذلك كما حصل في استفتاء قاضيهم ابن بلهيد لعلماء المدينة المنورة ، كما سنرى .

إلا أن احتمال الجهل لا يقوم لوحده ، إذ لابد للجهل أن ينكشف فلا يمكن أن يسيطر أكثر من قرنين من الزمن على الناس علمائهم وجهالهم .

ومن هنا كان لابد من فرضية أخرى تكون مساعدة للأولى ، والفرضية الظاهرة هي تبني القوى الاستعمارية للحركة الوهابية ومدها بوسائل القوة

العسكرية وحتى خوض المعارك إلى جانبها وهذا واضح من خلال الوقائع التاريخية وضوح الشمس كما سنلاحظ في ما بعد.

فهل كان دور القوى الاستعمارية دور من يستفيد من حركة ثورية ناهضة فيوظفها لحسابه أم أنه دور خلق مثل هذه الحركة ؟ .

فإذا كان دور هذه القوى مقتصراً على الاستفادة من حركة قائمة لتوظيفها ، فإن هذه القوى تهتم بالجانب العملي والسياسي من نشاط الحركة بعد قيامها وترسخها . وهنا يبقى التساؤل : كيف يمكن لشخص مسلم أو جماعة مسلمة أن تقوم بمحاولة شق المسلمين دينياً وعقائدياً ثم سياسياً في ظروف التآمر الاستعماري ، محاولة القضاء على كل شعائر الإسلام ورموزه وسائر ما يربطه بدينه من مظاهر محسوسة تذكره بالشخصيات الكبيرة في تاريخه .

إن هذا يعطي مرة أخرى صدقية نسبية لكراس « مذكرات المستر همفر» ، كما عرضناها في مقدمة هذا القسم لا سيما في الجزء من الخطة التي عرضها لضرب الإسلام الذي يشكل عائقاً في وجه استيلاء المستعمرين على هذه البلاد.

على أننا لا نتهرب من الاعتراف بأن ظروفاً موضوعية سادت العالم الإسلامي تسمحت بتقبل الوهابية عند عدد محدود ممن يتمتعون بشيء من الثقافة ، سواء ممن كانوا يحملون ثقافة دينية سطحية أو من تأثروا بشكل أو بآخر بالفكر الغربي العلماني الجديد كالشيخ رشيد رضا مثلاً.

وقد تمثلت تلك الظروف كما رأينا أولاً بكون باب الاجتهاد في المسائل الدينية كان مقفلاً منذ قرون عند فريق واسع جداً من المسلمين ، الأمر الذي بدا اختراقه لأول وهلة ثورة إصلاحية بصرف النظر عن مضمونها.

وتمثلت تلك الظروف ثانياً باحتلال الطرائق الصوفية حيزاً واسعاً جداً في الحياة الدينية وتحول شيوخها إلى نوع خارق من البشر يستطيع الاستيلاء على عقول الآخرين وإرادتهم.

كما تمثلت أخيراً في ضبابية المفاهيم عند العامة ممن يتوجهون إلى

الصلحاء والأولياء والذين استغلت الوهابية ظواهر تصرفاتهم لتؤسس عليها شرك وكفر المسلمين ، علـى أنه كان يكفيها في هذا المجال أن تلجأ الى حملة توعية ترسّخ بواسطتها ، لو كانت مخلصة للدين ، مسألة التوجه إلى الله وحده دونما حاجة إلى سفك الدماء وانتهاك الحرمات ونهب الأموال .

***

هوامش الفصل الأول

(١) مطبعة المنار بمصر ١٣٤٢ ص ٩٥ ـ ٩٦.
(٢) يوسف/٢ .
(٣) الهدية السنية مذكور سابقاً ص ١٣٨ .
(٤) مطبعة المنار بمصر.
(٥) المنصوري ، سعادة الدارين ص ١٣٧ ـ ١٣٨ .
(٦) النهج ، صبحي الصالح ص ٢٦١ .
(٧) نفس المصدر ص ١٢٤ .
(٨) نفس المصدر .
(٩) نفس المصدر ص ٥٥٨ .
(١٠) نفس المصدر ص ١١٥ .
(١١) نفس المصدر ص ٣٩ .
(١٢) نفس المصدر.
(١٣) الفقي ، أثر الدعوة الوهابية طبع ١٣٥٤هـ ص ١٢ .
(١٤) الهدية السنية ، مذكور سابقاً ص ٥ .
(١٥) راجع الجوهري والراغب وتاج العروس والعسقلاني، فتح الباري ج ٣/ ٢٣ وج ٦/ ١٠٢ وج ١٣/ ٣٠٩، ٣٢٨، ٣٥١، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٧، ٣٦٦، ٣٧٠، ٣٩٩. ٤١٤.
(١٦) نهج البلاغة شرح ابن أبي الحديد ٢/ ١٤٤.
(١٧) راجع الصنعاني ، تطهير الاعتقاد ص ٢ ـ ١٦ .
(١٨) نفس المرجع ص ٣٣.
(١٩) ج١ ص ١٥٧ .
(٢٠) الهدية السنية ، مذكور سابقاً ص ٤٧ .
(٢١) تطهير الاعتقاد ط ١ ص ٣٦ ـ الرسائل العملية ، ١٩٥٧ ص ٤٥ وما بعدها.
(٢٢) الهدية السنية ص ٤٧ .
(٢٣) نفس المصدر ص ١٢٤ .
(٢٤) نفس المصدر ص ١٨ .
(٢٥) ابن تيمية ص ١٥٦ .
(٢٦) ابن سعد الطبقات م ٢٠ القسم ٦ ، ص ٢ رقم ٢٣ ـ ٢٥ .
(٢٧) نهج البلاغة خطبة ٢٣٠ .
(٢٨) الإسكندراني ، النفحة الزكية ص ٢٩ .
(٢٩) الهدية السنية ، مذكور سابقاً ص ٥٧ وما بعدها.
(٣٠) طبع مصر ص ١٦١ لابن تيمية.
(٣١) الهدية السنية ص ١٤ .

(٣٢) ج٢ ص ٤٢ طبع مصر.
(٣٣) الصواعق الآلهية في الرد على الوهابية ـ تحقيق إبراهيم البطاوي ـ دار الإنسان ١٩٨٧ ص ٩٤.
(٣٧) أخرجه الإمام أحمد ج٣ ، ٢١ . ابن ماجة مساجد ١٤ ، ورواه ابن خزيمة عن أبي سعيد الخدري في «التوحيد» والبيهقي في «الدعوات».
(٣٨) رواه الطبراني في الكبير والأوسط وابن حيان والحاكم وصححوه.
(٣٩) ج٢ ص ١٣٧٦ .
(٤٠) إبراهيم السمنودي المنصوري ، سعادة الدارين ، مطبعة جريدة الأهرام ١٣١٩هـ ص ١٨٣.
(٤١) نفس المصدر ص ١٨٧ .
(٤١) مكرر : نفس المصدر.
(٤٢) ص ٢٠.
(٤٣) الأمين ، كشف الارتياب ، مذكور سابقاً ص ٣٢.
(٤٤) السيوطي ، الجامع الصغير ج٢ ص ٣٣.
(٤٥) ابن ماجة ، السنن ج٢ ص ٨٤١ وعتق ٣ ، النسائي : السنن نكاح ٥ .
(٤٦) البخاري الصحيح : توحيد ١ ، مسلم : إيمان ٤٨ . الترمذي إيمان ١٨ ، ابن ماجة زهد ٣٥.
(٤٧) ص ١٤.
(٤٨) ص ٤٨.
(٤٩) صحيح مسلم ج٣ كتاب الزكاة باب أفضل الصدقة ص ٩٤.
(٥٠) نفس المصدر ج١ باب ما هو الإسلام ص ٣٢.
(٥١) ج٥ ص ٢٢٥ .
(٥٢) الهدية السنية ص ١٩ ـ انظر ابن ماجة ج١ ص ٢٢٧ ، الترمذي ج٤ ص ١٠٩ ، مسلم ج١ ، إيمان ص ٢٨ .
(٥٣) ص ٢٦.
(٥٤) ناصر السعيد ، تاريخ آل سعود ص ٤٦٥ .
(٥٥) نفس المصدر ص ٤٧٠ .
(٥٦) نفس المصدر.
(٥٧) الهدية السنية ص ٥٢ .
(٥٨) يقول الفضي في الملك فؤاد الأول ملك مصر وولي عهده فاروق : « . . في ظل نصير العلم والدين ، الناهض بأمته إلى أعلى درجات الإنسان الكاملة صاحب الجلالة ، ملك مصر المفدى ، الملك فؤاد الأول أدام الله نصره وتأييده صالحاً مصلحاً وخادماً للإسلام ـ أميناً واقر عين جلالته بولي عهده صاحب السمو الملكي أمير الصعيد الأمير فاروق ـ راجع « أثر الدعوة الوهابية » ص ٥ .
(٥٩) الهدية السنية الرسالة الثانية ص ١٢ .
(٦٠) رسالة كشف الشبهات .
(٦١) الصنعاني مذكور أعلاه ص ١٢ ـ ١٦ .
(٦٢) انظر العزامي «فرقان الفرقان» ص ١٣٢ .

(٦٣) أبو داود ، السنن ج٣ ص ٥٨ .
(٦٤) المقريزي ، الامتاع ص ١٥٤ .
(٦٥) مجمع الزوائد ج٦ ص ١٢٠ .
(٦٦) البخاري ، المناقب.
(٦٧) البيهقي ، السنن ج٤ ص ٧٠ .
(٦٨) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النبي: يعذب الميت ببكاء أهله عليه ص ٦٤١ ح ٥٢.
(٦٩) صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه ص ٤٣ ح ٢٧ وص ٦٤٢ ح ٢٥ وص ٦٤٣ ح ٢٦.
(٧٠) سيرة ابن هشام ص ١٣٧ .
(٧١) الطبري تاريخ الأمم والملوك ج٢ ص ٤٦٣ .
(٧٢) السمهودي ، وفاء الوفا ج٢ ص ٨٥ وما بعدها.
(٧٣) صحيح مسلم ج٣ كتاب الجنائز ص ٦١ الترمذي ج٢ ص ٢٥٦ باب تسوية القبور . النسائي ج٤ باب تسوية القبور ص ٨٨ .
(٧٤) وفاء الوفا ج٢ ص ٨٥ ـ ١٠٠ .
(٧٥) نفس المصدر.
(٧٦) تهذيب التهذيب ج١١ ص ١٢٥ .
(٧٧) نفس المصدر ج٤ ص ١١٧ .
(٧٨) نفس المصدر ج٣ ص ١٧٩ .
(٧٩) الهيثمي ، مجمع الزوائد ج٩ ص ١٣٣ .
(٨٠) ابن ماجة ج١ كتاب الجنائز ص ٤٧٤ .
(٨١) النسائي ج٤ ص ٨٧ و٨٨.
(٨٢) ج٣ ص ٢١٦ .
(٨٣) ج٣ ص ٢٩٥ و٣٣٢.
(٨٤) المسند ج٦ ص ٤٠٦ .
(٨٥) نفس المصدر ص ٤٠٤ .
(٨٦) وفاء الوفا ج٢ ص ٨٥.
(٨٧) السيد محمد الأمين . مذكور سابقاً ص ٣٨٣ .
(٨٨) الشيخ جعفر السبحاني ، الوهابية في الميزان ، دار المنتظر ـ بيروت ط ٢ ـ ١٩٨٨ ص ٥٨ .
(٨٩) طبع المنار ـ مصر ص ١٠٦ .
(٩٠) كتاب الجنائز ج٢ ص ١١١ ، سنن النسائي ، كتاب الجنائز ج٢ ص ٨٧١.
(٩١) ج٢ ص ٦٦.
(٩٢) ج٨ ص ٨٨.
(٩٣) نفس المصدر ص ١٠٥ .
(٩٤) نفس المصدر ص ١١٥ .

(٩٥) ص ١٥٩ وما بعدها.
(٩٦) ص ٨٨.
(٩٧) الرسالة الأولى ص ١١.
(٩٨) ص ٣٣٤.
(٩٩) السيوطي، الخصائص الكبرى.
(١٠٠) ص ٢٢٨.
(١٠١) السمهودي، وفاء الوفا ج٤ ص ١٣٧٦.
(١٠٢) الحاكم المستدرك، ج١ ص ٣٧٧ ـ البيهقي ج٤ ص ٧٨.
(١٠٣) السمهودي، ج٢ ص ٤٤٤.
(١٠٤) ابن الأثير، اسد الغابة ج١ ص ٢٨.
(١٠٥) ج٤ ص ٥١٥.
(١٠٦) ص ٢.
(١٠٧) ص ١٥٩.
(١٠٨) وفاء الوفا ج٢ ص ٤٢٢.
(١٠٩) ص ١٥٩.
(١١٠) الهدية السنية ص ١١٢.
(١١١) ج٢ حديث رقم ٥٠٤٢.
(١١٢) ٢/٣٦٧.
(١١٣) ص ١٢، ١٣.
(١١٤) ص ٨٨.
(١١٥) صحيح مسلم ج٤ كتاب الحج ص ١٢٦ ـ أبو داود، السنن ج١ كتاب الحج ص ٤٦٩.
النسائي ص ٣٧، ٣٨.
(١١٦) السبحاني، مذكور أعلاه ص ١٢٥ وما بعدها
(١١٧) ابن ماجة، السنن ج١ ص ١١٣.
(١١٨) ج٣ ص ٦٥.
(١١٩) النسائي ج٤ ص ٧٦ و٧٧.
(١٢٠) أبو داود ج٢ ص ١٩٦.
(١٢١) السمهودي ج٤ ص ١٣٣٦ وما بعدها.
(١٢٢) راجع الصحاح والسنن، الدارمي ج١ ص ١٣٠ ـ البخاري ج٨ ص ٦١، وغيرها.
(١٢٣) نفس المصدر السابق.
(١٢٤) نفس المصدر السابق.
(١٢٥) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب يزفون النسلان في المشي ٢/١٥٨ و ١٥٩.
(١٢٦) نفس المرجع ومعجم البلدان مادة زمزم والطبري وابن الأثير حول «اسماعيل» (ع).
(١٢٧) نفس المرجع كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، ٢/ ٨٢ وكتاب الوضوء ١/٣٨.

(١٢٨) نفس المرجع باب استعمال فضل الوضوء ١/٣٣.

(١٢٩) صحيح مسلم كتاب الحج، باب بيان فضل ان السنة يوم النحر ان يرمي ص ٣٢٣ و ٣٢٤.

(١٣٠) صحيح البخاري كتاب اللباس، باب ما يذكر في الشيب ٤/٢٧.

(١٣١) المستدرك للحاكم، كتاب معرفة الصحابة، باب مناقب خالد ٣/٢٩٩ وتاريخ ابن كثير ٧/١١٣.

(١٣٢) صحيح البخاري كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد ٢/٨١ ومغازي الواقدي ص ٢٦٧ وطبقات ابن سعد ٣/١٢٩.

(١٣٣) مسند أحمد ٥/٦٨ والاصابة ترجمة حنظلة بن حزيم التميمي.

(١٣٤) ص ٣٦٩ ـ ٣٧١.

(١٣٥) راجع فقرات السابقة .

(١٣٦) راجع فقرات السابقة .

(١٣٧) الياس كلانتري، «مفردات القرآن في مجمع البيان» ط ١ سنة ١٤٠٧ مادة شرك.

(١٣٨) ص ٣١٠.

(١٣٩) الشيخ المنصوري، التاج الجامع للأصول ج ١ ص ٢٠.

(١٤٠) سنن ابن ماجة ج ٢ الكف عمن قال لا إله إلا الله ص ٤٥٧.

(١٤١) صحيح البخاري الإيمان ٢٣ و ٤١ وصحيح مسلم امارة ١٥٥ وابن حنبل ١/٢٥ و ٤٣.

(١٤٢) المصطلحات الأربعة ص ٢٣.

(١٤٣) صحيح مسلم ج ١ باب الإيمان ص ٣٨ و ٣٩ وأبو داود، السنن ج ٣ جهاد/ ٤٤ والدارمي ٢/٢١٨.

(١٤٤) صحيح البخاري إيمان /٧ مسلم إيمان /١١٢، ابن حنبل ٤/٣٣، ٣٤ و ١٦٦.

(١٤٥) المفردات للراغب مادة كفر.

(١٤٦) النووي في شرح صحيح مسلم ٢/٤١ و ٤٢.

(١٤٧) المنصوري مذكور أعلاه ص ٤٢، الأمين مذكور أعلاه ص ١٥٠.

(١٤٨) الشيخ محمد جواد مغنية، هذي هي الوهابية، دار الجواد ص ١٠٩.

(١٤٩) ص ٥٤.

(١٥٠) البدعة، دار الثقلين، بيروت ١٩٩٥ ح ١٣٥..

(١٥١) راجع الامين، كشف الارتياب ح ٩٨ و ١٤٣..

(١٥٢) مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٩٣ ج ١ ص ٢١٩ ح ١١١.

(١٥٣) ج ١ ص ٢٢١ ح ١١١٢.

(١٥٤) نفس المرجع ح ١١١٣.

(١٥٥) نفس المرجع ص ٢٢٢ ح ١١١٨.

(١٥٦) نفس المرجع ص ٢١٨ ح ١٠٩٤.
(١٥٧) الكليني، الأصول، باب البدع ص ٥٤ ح ٢.
(١٥٨) كنز العمال ج ١ ص ٢١٩ ح ١١٠٢.
(١٥٩) نفس المرجع ج ٢ ص ٨٢ ح ٥٥٩٨.
(١٦٠) نفس المرجع ج ١ ص ٢٢٠ ح ١١٠٥.
(١٦١) العسقلاني، فتح الباري ج ١٣/ ٢٥٣ والنووي، تهذيب الاسماء واللغات، قسم اللغات ج ٢٢٣/١.
(١٦٢) سعيد حوى، الأساس في السنة وفقهها، العقائد الإسلامية، السعودية، دار الإسلام ط ٢ ص ٣٥٩.
(١٦٣) النووي مذكور أعلاه ص ٢٢ و ٢٣ والعسقلاني مذكور أعلاه ج ١٣ ص ٢٥٤.
(١٦٤) الغزالي الإحياء، ج ١٢ آداب الأكل الباب الأول ص ٤ و ٥.
(١٦٥) الهندي مذكور أعلاه ج ١ ص ٢٢٣ ح ١١٨٧.
(١٦٦) نهج البلاغة، شرح ابن أبي الحديد ٢/ ٥ ص ٤٩٢ و ٢/ ١٠ ص ٥١٤.
(١٦٧) الشاطبي، الاعتصام، ج ١ ص ١٤١.
(١٦٨) نفس المصدر ص ١٩١ و ١٩٢.
(١٦٩) كنز العمال، مذكور أعلاه ج ١ ص ٢٢٢ ح ١١١٩.
(١٧٠) نفس المصدر ج ٦ ص ١٨٤ ح ٤٤٢١٦.
(١٧١) الكليني، مذكور أعلاه، ج ٢ باب أدنى ما يكون العبد مؤمناً ص ٤١٤.
(١٧٢) راجع الباقري، البدعة، مذكور أعلاه.
(١٧٣) النفحة الزكية ، الرسالة الثانية ص ١١ .
(١٧٤) نفس المصدر السابق .
(١٧٥) لاسي ، المملكة ص ٧٦ و٧٧ .
(١٧٦) ناصر السعيد ص ٧٧٣ - ٧٧٤.
(١٧٧) ناصر الشمراني مملكة الفضائح ج٢ ص ١٧٥.
(١٧٨) ناصر السعيد مذكور سابقاً ص ٩٣٤ .
(١٧٩) المنصوري ، مذكور سابقاً ص ٥٢.
(١٨١) النفحة الزكية الرسالة الأولى ص ٧.
(١٨٢) سليمان بن عبد الوهاب ، الصواعق الآلهية ص ٢٥ .
(١٨٣) الفقي مذكور سابقاً ص ٢٢.

الفصل الثاني

حروب الوهابية ضد مسلمي الجزيرة العربية

تحرك السعوديون الذين تبنوا الأفكار الوهابية لنشرهـا في طول الجـزيرة العربية وعرضها فشنوا الغارات والحروب وقاموا بعمليات السلب والنهب والسبي وانتهاك الأعراض ، وكل ذلك في مناطق إسلامية صافية لا يشارك المسلمين فيها مشارك إلى أن استطاعوا السيطرة أخيراً على قلب الجزيرة العربية.

لقـد قامت حـركتهم على أساس العنف الـدمـوي وتميـزت بـالشـراسـة والوحشية ، فلم يكونوا يخضعـون لقانـون أخلاقي أو ديني ، فمن قتـل النساء والأطفال إلى قطع رؤوس الأسـرى إلى الغدر ونقض العهـود والمواثيق ، إلى التقلّب في المواقف وموالاة الأمم الغالبة . . .

وهكذا شهدت الجزيرة العربية ثـلاث جولات من الحـروب على أيدي الوهابيين ومرت حركتهم بثلاثة أدوار ، فأقاموا دولتهم الأولى ابتداء من أواسط القرن الثامن عشـر حتى عشرينـات القرن التـاسع عشـر حيث ضربهم الجيش المصري وقضى على خطرهم إلى حين ولكن تآمر القـوى العظمى على هـذا الجيش الذي دخل الحجاز كما دخل بلاد الشام وهدّد عاصمة السلطنة العثمانية ، دفعه إلى الانكفاء ، فانتعشت الوهابية من جديد انتعاشاً مؤقتـاً وراح زعماؤهـا يتزلفون للباب العالي ، كما يتزلفون الى بريطانيا فأقاموا ما سمي بالدولة الثانية الضعيفة في أواسط القرن التاسع عشر.

وأخيراً ومع احتدام المشاكل في الدولة العثمانية وانتقاض ولايات الروملِّلي عليها وما أدّى اليه ذلك من حـروب مع تلك الـولايات المـدعومـة من الغرب المسيحي بدأت الدولة الوهابية الثالثة في الظهور على يدي عبد العزيز الـذي

استفاد من تلك الظروف ومن ظروف الحرب العالمية الأولى ليقيم في نهاية الأمر المملكة العربية السعودية التي تدين بالوهابية وتتسمى باسم العائلة التي تحكمها من دون سائر الأسماء التاريخية والجغرافية.

وإذا حاولنا تلمس دور العقيدة الوهابية في الحروب السعودية، فإننا نجده من الناحية العملية، دوراً بشعاً للغاية، وهذا ما يتبين جلياً من مقارنة سلوك السعوديين الوهابيين بسلوك القبائل العربية الأخرى التي تؤمن بالقيم والخلقيات المتوارثة.

فالقيم المتوارثة سواء ما يعود منها إلى الإسلام أو إلى المؤثرات الأخرى، تقوم على: احترام العهود، وانذار الخصم قبل مهاجمته، كما تقوم على احترام حياة الأسير والتعالي عن قتل النساء والأطفال وسائر الضعفاء وغير المسلحين، والترفع عن التمثيل بالجثث أو بالأحياء، ثم هي في الجانب الآخر تقوم على العفو عند المقدرة والصفح عن الخصم المستجير وما الى ذلك.

وفي المقابل فإن موقف آل سعود يقوم على الغدر ونقض العهود وقتل الأسرى والتمثيل لبث الرعب وقتل النساء والأطفال وقتل المستجيرين، وبكلمة فهو يقوم على كل ما ينافي القيم والمثل المعروفة على طول الخط.

وهذا الموقف الغريب يعود الى الاعتبارات الفكرية الغريبة، وهكذا فكما كانت الوهابية محنة في الجانب الفكري كانت طامة على الصعيد العملي.

الجولة الأولى :

بدأ محمد بن سعود ومحمد بن عبد الوهاب بنشر الوهابية بالسيف، فكان الأمر مناسبة لابن سعود ولأبنائه من بعده، لكي يفرضوا هيمنتهم على القبائل الأخرى وينتزعوا ما يشاؤون من أموالها وممتلكاتها مدعومين بـ «شرعية» دينية مزعومة تسمح لهم بالقتل والسلب والسبي واستعباد المسلمين دون غيرهم من أبناء الديانات الأخرى. ونحن في ما يلي لن نؤرخ لحركة آل سعود بل سنتناول سلوكهم تجاه المسلمين.

مجازر الوهابيين في شرقي الجزيرة العربية :

وكانت باكورة منجزات الوهابية الانتقام من عثمان بن معمر حاكم العيينة الذين أرسلوا من اغتاله فيما كان يؤدي صلاة الجمعة في رجب سنة ١١٦٣هـ (١٧٦٠م) ، وكانت التهمة الموجهة إليه هي تهمة الكفر التي طالت كل المسلمين.

ولكن العيينة ما لبثت أن هبت في وجه الطغيان السعودي الأمر الذي سمح بموجبه السعوديون الوهابيون لأنفسهم أن يسووها بالأرض ويردموا آبارها ويحرقوا أشجارها ويقتلوا ويسبوا[١].

ثم أخذ محمد بن سعود يتحرش بالإحساء سيراً على العادات القبلية في شن الغارات والغزوات . فأرسل إليها حملة بقيادة ابنه عبد العزيز فهاجم المبرِّز سنة ١١٧٦هـ (١٧٦٢م) ولكنه هزم وتراجع . ثم أغار على منطقة «قزلة» في نجد وبعض سكانها من أصول يمنية فتنادى الخوالد والعجمان ، وهم من أبناء «يام» ، واستنجدوا بأبناء عمهم المقيمين في نجران ، فزحف حسن بن هبة الله المكرمي على رأس حملة هامة وصلت إلى مشارف الدرعية ـ عاصمة آل سعود والوهابية ـ وأوقع بمحمد بن سعود هزيمة منكرة ثأراً لأقاربه ، فطلب ابن سعود الصلح ، فأجابه إليه المكرمي وجرى ذلك كله قبل وصول الخوالد بقيادة عريعر (أو عرعر) إلى ساحة المعركة.

وخضع محمد بن سعود لشروط حسن المكرمي وتم الاتفاق على ما يلي :

- يمتنع أهل نجران من دخول الدرعية ويسلموا ما تحت أيديهم من الأسرى السعوديين .
- يتعهد كل من محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود بدفع عشرة آلاف جنيه ذهباً كتعويض لأهالي نجران عن رحلتهم.
- يلتزم محمد بن سعود ومحمد بن عبد الوهاب بأن لا يتعديا حدود الدرعية .
- يتعهدان كذلك بأن لا يرفعا راية الدعوى الوهابية «الباطلة» مرة أخرى .

وبهذا أنقذ محمد بن سعود دعوة شريكه محمد بن عبد الوهاب من الزوال .

ولكن المعارك لم تنتهِ بين السعوديين والخوالد وبقيت الغارات والغزوات تشن من حين الى حين ولم تتوقف بموت محمد بن سعود سنة ١١٧٩هـ (١٧٦٦م) . فقد تولى عبد العزيز بن محمد بن سعود الأمر بعد والده وكان تزوج ابنة محمد بن عبد الوهاب ، فأكمل عمليات القتل والسلب والنهب والسبي ، نشراً للدين الجديد . وفي عهده سقطت الرياض بعد أن اغتال السعوديون حاكمها دهام بن دواس وذلك سنة ١١٨٧هـ (١٧٧٣م) .

ورداً على اعتداءات آل سعود هاجم عرعر الخالدي القصيم واحتل بريدة سنة ١١٨٨هـ ، ولكن عبد العزيز استعادها منه في السنة التالية .

وبعد موت عرعر وتولي ابنه سعدون مكانه ، تجددت عند عبد العزيز فكرة إخضاع الخوالد فتابع شن الغارات عليهم ، وانتهت مرحلة أولى بالصلح بين سعدون الخالدي وعبد العزيز آل سعود . لكن هذا الصلح لم يدم طويلاً ، وعادت الحرب لتكون سجالاً بين الفريقين . ولكن السعوديين لجأوا إلى أسلوب الدس والوقيعة بين شيوخ الخوالد ، فانشقّت الأسرة الحاكمة بعد أن هاجمهم عبد العزيز في « العيون » . وخلع الخوالد سعدون فلجأ لسخرية القدر إلى عبد العزيز الذي أخذ يزوِّده بالمال والسلاح ليشن الغارات على أقاربه الخوالد فيقتل وينهب ويأسر . وكان عبد العزيز يمنُّ على الأسرى بالفكاك .

ثم تحرك السعوديون إلى التحرش بالمنطقة الواقعة الى الشرق ، منطقة الاحساء ، فسيَّر عبد العزيز سنة ١٢٠٢هـ (١٧٨٧م) سرية بقيادة سليمان بن عفيصان إلى تلك المنطقة فوصل إلى الجشة والعقير . كما سيَّر سرية أخرى بقيادة ابنه سعود فوصل إلى المبرِّز ثم عاد مهزوماً .

وفي العام التالي شنَّ ابن عفيصان حملة أخرى على الجشة والعقير وأوغل في قطر . كما شن سعود حملة على قرى الطفّ ثم على المبرّز والفضول[٣] .

ثم سير عبد العزيز إبراهيم بن عفيصان إلى القطيف ولكنه هزم وتراجع وأخذ يغير على أطراف المنطقة يقتل ويسلب ، ثم عاود الكرة فاستولى على قلعة

القطيف « فأمر بالقتل الذريع حتى طلوع الشمس » كما دخل ابن عفيصان تاروت في منطقة القطيف وأعمل السيف في من ظفر به من الخوالد(٤) .

وقد انتهت قوة الخوالد عملياً سنة ١٢٠٤ في موقعة غريميل التي خاضها سعود بن عبد العزيز . أما المنطقة الشرقية ، حيث تقيم الطائفة الشيعية فقد تعرضت إلى الحملات السعودية وحوصر أخيراً «علي بن أحمد صاحب بلاد الشرق » في قلعة صغيرة ، واستطاع الصمود مع جماعته . ولما استولى آل سعود على الإحساء رأى علي بن أحمد أن يطلب منهم ذمةً وأماناً فعاهدوه على ما طلب ، ولما سلّم لهم الأمر سجنوه سبعة أيام ثم بدا لهم أن يضربوا عنقه ، فضرب سعود رقبته بيده(٥) .

أما الخوالد ، وبعد أن تمّ إخضاعهم ، فما لبث أن اضطرب أمرهم بعد أن عين السعوديون حاكماً عليهم زيد بن عرعر كوالٍ على الإحساء ، وذلك بسبب غدره بعبد المحسن السرداح أحد معارضيه الذي أرسل إليه معلناً العفو عنه ، فلما وفد عليه قتله ، فغضب الخوالد ونقضوا ولاءهم لزيد واختاروا بدلاً منه براك بن عبد المحسن السرداح . ولكن عبد العزيز سيَّر إليهم ابنه سعوداً سنة ١٢٠٧هـ (١٧٩٢م) فدخل الإحساء وأرضخهم بالقوة وهدم المشاهد والقباب في تلك المنطقة ووطّأ الأمور لزيد بن عرعر . ولكن زيداً هذا ما عتَّم أن تمرد وعاد إلى المبرِّز . فأخذ سعود ينتقم من الخوالد حتى اضطرهم إلى أن يوفدوا براك بن عبد المحسن إلى الدرعية مجدداً بيعتهم ، فعزل السعودبون زيداً وعينوا بدلاً منه براكاً يعاضده إبراهيم بن سليمان بن عفيصان وانتهى حكم أسرة حميد الخالدية التي ينتمي إليها عرعر في الإحساء(٦) ، وقام حكم أسرة أخرى في ظل آل سعود .

ومن جهة أخرى كان السعوديون بدأوا يتحرشون بقطر إذ سمح عبد العزيز لابن عفيصان بالإغارة على بني عتبة (العتوب) في الزبارة في قطر ، فحاصرها ومنع الناس من الدخول إليها أو الخروج منها للاحتطاب وجلب الماء ورعي المواشي ، واستمرت غاراته حتى سنة ١٢٠٨هـ (١٧٩٣م) .

ولما عجز ابن عفيصان عن الزبارة دخل المناطق الأخرى في قطر حيث تقيم قبائل فريحة والحويلة واليوسفية والرويضة وغيرها . وأخذ يدفع أهلها إلى

شن الغارات براً وبحراً ضد الزبارة فيأسرون وينهبون . وبعد مناوشات مع ابن عفيصان قرر أهل الزبارة الرحيل إلى البحرين هرباً من الجيش السعودي الذي يقوده ابن عفيصان ، على أمل العودة بعد زوال هذه المصيبة وكان ذلك سنة ١٢١٢هـ (١٧٩٧م)[٧] . ولم يعودوا إلّا بعد أن اضطروا في منفاهم للخضوع لابن سعود.

ثم قرر السعوديون «أسلمة» الكويت فأخذوا يوجهون إليها الغارات تنهب وتقتل وتسلب وتسبي ، وكانت الحملة الأولى سنة ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م ، ثم تلتها حملة أخرى سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٨م ، وثالثة سنة ١٢٢٣هـ/١٨٠٨م وكان يقودها سعود الذي وصل إلى الجهراء.

ولم تقتصر الغارات على ما ذكرنا ، بل هي طالت كل الأطراف الشرقية للجزيرة . إذ هاجم إبراهيم بن عفيصان مناطق قطر سنة ١٢٠٩هـ/١٧٩٤م وحمل كمية كبيرة من الأسلاب ، وكذلك هاجم محمد بن معيقل جزيرة العماير سنة ١٢١١هـ/١٧٩٦م وعاد بالسلب أيضاً.

ثم ساح سعود بحملة بعيدة المدى سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٨م يقتل ويسلب ويسبي ، مغيراً على «سوق الشيوخ» وعلى «الأبيض» في بادية السماوة من أرض العراق فقتل خلقاً كثيراً[٨] ثم توجه إلى بوادي شُمَّر وعربان الظفير وآل بعيج وآل زقاريط[٩] .

ثم تمرد العتوب في البحرين والكويت وكانوا قد خضعوا للسعوديين ، وامتنعوا عن دفع «الزكاة» ، فهاجم السعوديون الكويت وأوقعوا فيها خسائر جسيمة[١٠] .

وفي سنة ١٢٠٧هـ/١٧٩٢م كان عبد العزيز ، من أجل التوسع في نشر الوهابية! قد وجه مطلقاً المطيري إلى عُمان الصير غازياً فنهب ، ثم غزاها إبراهيم بن عفيصان موجهاً حملته إلى «بني ياس» ، فأجبرهم على اتباع الوهابية وحمل الزكاة إلى السعوديين[١١] .

ثم تعرضت عشائر نعيم في البريمي لنفس المخطط ، غزو تلاه مبايعة إكراهية ، ثم كلفهم عبد العزيز بإخضاع القواسم في رأس الخيمة ، ولما عجزوا

أمدّهم براشد بن سنان المطيري فأرسل المطيري سرايا غزت حتى بلغت وجه رأس الخيمة ، فحالت بينها وبين نخيلها . وكانت العائلات في البساتين للمصيف ، وقطعت الماء إلى أن استسلموا ، فأمروهم بهدم أحد المشاهد فرفضوا ونقضوا البيعة فقاتلهم المطيري وأجلاهم إلى بلاد فارس(١٢) .

ثم حثَّ المطيري بعض القبائل المقيمة عند أطراف القواسم : زعاب ، أهل الجزيرة الحمراء وطينج ، أهل الرمس على النهب والقرصنة في البحر ، لا ضد الإنكليز وسائر الكافرين ، بل ضد المسلمين (المشركين) ممن لا يقبل طريقتهم(١٣) .

ولما أثبتت تلك القبائل من القواسم جدارة في أعمالها منَّ عليهم عبد العزيز باسم «الموحدة» .

وعاد السعوديون إلى غزو عمان ، فأغاروا على صحار وأطراف بركة وسمائل . كما غزا المطيري بالتعاون مع تركي وناصر آل سعود مطرحاً (من موانىء عمان) فقتلوا ونهبوا ثم توجهوا إلى مسقط ، ولما عجزوا عن اقتحام سورهاأحرقوا البيوت التي خارج السور ، ثم تهادنوا مع إمام عمان لمدة ثلاث سنوات ، الأمر الذي سمح لهم بمد نفوذهم حتى تخوم عمان الغربية(١٤) .

وفي سنة ١٢٢٣هـ/١٨٠٨م وجهت سرية سعودية إلى عمان فلم تحرز نصراً . وفي سنة ١٢٢٥هـ/١٨١٠م حشد مطلق المطيري جموعاً من أهل نجد وبعض العمانيين وأخذوا يغيرون على مناطق الباطن وصحار ثم على مناطق هور وسمايل . ولكن التهديد المصري وضع حداً لهذا النشاط.

وكان السعوديون قد أخذوا يغزون أطراف الشام ، فهاجم عبد الله بن سعود حوران سنة ١٢٢٥هـ/١٨١٠م فأحرق ونهب وسبى بعد أن قتل حتى الأطفال ناهيك عن الكبار وهدم البيوت وعاث فساداً وقدرت قيمة ما ألحقه من أضرار بتلك المنطقة بثلاثة ملايين درهم حينذاك.

وتوسعت غزوات عبد الله فوصلت إلى حلب، وقطع الطريق بين الشام والعراق وكانت سراياه تصل إلى القادسية ، كما غزا أطراف السماوة وسوق الشيوخ وقتل خلقاً كثيراً هو الآخر(١٥).

مجازر الوهابيين في كربلاء :

حشد سعود بن عبد العزيز جيشاً من أعراب نجد قدر بعشرين ألفاً وتوجه إلى العراق حيث حاصر مدينة كربلاء المقدسة واقتحمها ، فقتل قتلاً ذريعاً لم ينج منه حتى الأطفال ونهب خزائن من الذهب والجواهر النفيسة(١٦) وهدم قبر الحسين (عليه السلام) واقتلع الشباك الموضوع عليه ، كما أنه ربط خيله في الصحن ودقّ القهوة فيه .

وقد وصف محمد حامد الفقي ، من المتحمسين لآل سعود ، مجزرة كربلاء مشيداً بدور «جند الإسلام» الوهابي فقال : « توجه سعود في ذي القعدة من سنة ١٢١٦هـ/١٨٠١م بجموع كثيرة وقوة عظيمة إلى العراق والتقى في كربلاء بجموع كثيفة من الأعاجم ورجال الشيعة [وهم الزوار العزل طبعاً] الذين استماتوا في الدفاع عن معاقل عزّهم ومحط آمالهم ، قبة الإمام الشهيد الحسين رضي الله عنه وغيرها من القباب والمشاهد . ولكن جيش التوحيد (!) قد تغلب بقوة إيمانهم (!) وصدق عزيمتهم في الجهاد (!) لهدم كل نصب وطاغوت (!) اتخذ مع الله شريكاً في العبادات وجعل لله نداً في القربات . وشأن مشاهد كربلاء والكاظمية والنجف ومعصومة قوم (قم) وموسى الرضا عند الشيعة وتعظيمهم لها معلوم للقاصي والداني .

فكانت موقعة هائلة وكانت مذبحة عظيمة سالت فيها الدماء أنهاراً ، خرج منها سعود وجيشه ظافرين ودخل كربلاء وهدم القبة العظيمة بل الوثن الأكبر(!) المنصوب على ما يزعمون من قبر الإمام الحسين بن علي رضي الله عنهما . وأقر الله بهدمها عين الإمام الحسين وعيون الموحدين الذين يتبعون شرعة جد الحسين أشرف الخلق محمد صلى الله عليه وآله وسلم ورضي الله عن الحسين وآله الطاهرين(١٧)» .

فعلاً لقد سالت الدماء أنهاراً ، ولكن ليس لتقر عين الحسين وجد الحسين صلى الله عليهما وسلم بل لتمتلىء خزائن آل سعود من الأموال المنهوبة ويرضى أسياد آل سعود الجاهدين لتدمير الإسلام بتدمير رموزه .

ولا ضرورة لمزيد تعليق على كلام هذا الشيخ المتكسب ، كما رأينا ،

النابع من روح وهابية متشفية شامتة.

وفي شهر صفر من سنة ١٢٢١هـ/١٨٠٦م هاجم سعود المذكور النجف الأشرف حتى وصل إلى السور وصعد عليه بعض أصحابه ولكن أهل النجف تصدوا له وردوه على أعقابه بعد أن أكثروا القتل في المهاجمين.

ثم حاول سعود أن يغزو النجف مرة أخرى في جمادى الآخرة من السنة التالية ولكنه وجد أهل النجف مستعدين على السور بالأسلحة فكر راجعاً، فتوجه إلى الحلة فلما رأى أهلها على استعداد تحول عنها إلى كربلاء التي فاجأها نهاراً، ونشبت معركة بينه وبين أهلها، وفشا القتل بين الفريقين فاضطر إلى التراجع وراح ينهب في أنحاء العراق الجنوبي فعطّل الحج ثلاث سنين.

وفي سنة ١٢٢٥هـ/١٨١٠م عاود الوهابي الكرة على النجف وكربلاء فقطع الطريق وأخذ جيشه ينهب الزوار وقتلوا منهم عدداً كبيراً قدر بمائة وخمسين نفسا ما بين الكوفة والنجف.

وهكذا لم يرعَ الوهابيون حرمة لابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فنهبوا مشهده وقتلوا زواره وهدموا قبته وكل ذلك في سبيل نشر «الاسلام الصحيح» والقضاء على «الاسلام الشركي». على أن السعوديين الوهابيين تجاوزوا ذلك وما أثاره من ردود فعل عند كافة المسلمين، وذلك باعتدائهم على قبر جد الحسين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نفسه كما سنرى.

مجازر الوهابيين في الحجاز:

بدأ بداة نجد بغزو الحجاز فأطاعت لهم عُتبة الحجاز وحرب ثم كاتب أهل الطائف السعوديين بعد أن شعروا بالخطر[١٨].

ولما اقترب التهديد بهذا الشكل تحرك الشريف غالب حاكم مكة للوقوف في وجهه فشن ما بين سنتي ١٢٠٥هـ و١٢٢٠/ ١٧٩٠ ـ ١٨٠٥ خمسين غزوة ضد جماعات الوهابيين وجيوشهم[١٩]. ولكن الأمر آل مرحلياً بين عبد العزيز والشريف غالب الذي خذله عمال الدولة العثمانية في الأقطار المجاورة إلى

الصلح في جمادى الأولى سنة ١٧٩٧/١٢١٢ واتفق على تعيين حدود بين الفريقين .

وفي سنة ١٢١٤هـ/١٧٩٩م حج سعود بن عبد العزيز وعاد إلى الحج في السنة التالية وتبادل الهدايا مع الشريف غالب ولكن السعودي لم يلتزم طويلا بشروط الصلح فراح يراسل مشايخ الأعراب كشيخ محايل وشيخ بارق وغيرهما ليفسدوا قبائل الحجاز واليمن ويدعوها إلى الوهابية. فاكتشف الشريف هذه المحاولات فتصدى لها بشن الغارات التأديبية على الخارجين.

ولكن الوهابيين استطاعوا مع ذلك استمالة بعض المشايخ كعثمان بن عبد الرحمن المضايفي زوج أخت الشريف غالب وتمكنوا بعد معارك كر وفرّ أن يستولوا على الطائف ، إذ دخلوها عنوة في ذي القعدة سنة ١٢١٧هـ/١٨٠٢م . فقتلوا الناس بدون تمييز بين رجل وامرأة وطفل حتى أنهم كانوا يذبحون الرضيع على صدر أمه[٢٠] . كما قتلوا من وجدوا في المساجد والبيوت ولاحقوا الفارين من المدينة فقتلوا أكثرهم ، وأعطوا الأمان إلى البعض فلما استسلموا ضربوا أعناق فريق منهم وأخرجوا فريقاً إلى أحد الأودية ، واسمه وادي الوج ، فتركوهم مكشوفي العورة ومعهم النساء.

وأخذت الأعراب تروح وتغدو الى الطائف فتحمل المنهوبات الهائلة التي كانت تخمّن ويرسل خمسها إلى الأمير ويقتسمون ما يبقى . كما عبثوا بالمصاحف والكتب الدينية ورموها بعد أن مزقوها في الأزقة . وعمدوا أخيراً إلى حفر جميع بيوت المدينة حتى المراحيض بحثاً عن المال الذي قيل لهم إنه خبيء في الأرض.

ثم جمع سعود جموعه في موسم الحج على مقربة من مكة وانتظر انصراف الحجيج ، ولما أيقن الشريف غالب أنه لا قبل له بهذه الجموع ، ارتحل الى جدة ، فراسل أخوه عبد المعين سعوداً يطلب منه الأمان . واستقبل سعود رسل عبد المعين فعاهدهم على «دين الله» (أي الوهابية) ، وكتب لهم كتاب الأمان.

وفي الثامن من محرم وصل سعود إلى مكة وطاف وخطب بالناس ودعاهم للبيعة وطلب منهم موافاته في اليوم التالي ليعلمهم أصول دينهم.

وفي صباح اليوم التالي توجه الوهابيون إلى المعلى فهدموا ما فيها من القباب كما هدموا قبة مولد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقبة السيدة خديجة وقبة زمزم والقباب التي حول الكعبة وكذلك الأبنية التي تفوق الكعبة علواً ، وهدموا قبة أبي بكر ، وتتبعوا آثار الصالحين جميعاً فهدموها ، وكانوا أثناء عمليات الهدم يضربون الطبول ويشتمون القبور .

وانتقل الوهابيون إلى تنظيم الأذان والصلاة ، فمنعوا الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد الأذان وكذلك الترضي على الصحابة وأحرقوا النارجيلات ومنعوا تدخين التنباك والتبغ ، وأخذوا يدرسون الناس مؤلفات محمد ابن عبد الوهاب .

وكان من نتيجة استيلاء الوهابيين على مكة ومنطقتها أن انفلت حبل الأمن فانتشر السلب والنهب واضطربت السبل ولم يستطيعوا ضبط الوضع بوضع حد لهذا الفلتان .

ثم هاجم الوهابيون جدة ، ولكن الشريف غالباً صدهم عنها . ثم ارتحلوا عن مكة عندما علموا أن عاصمتهم الدرعية مهددة من العجم كما يقول الجبرتي ، فعاد الشريف غالب إلى مكة من جديد وراح يعمل لاسترجاع الطائف ولكنه فشل .

وفي هذه الأثناء عمد عثمان المضايفي الذي كان قد أصبح أمير الطائف من قبل سعود ، يساعده ابن شكبان إلى مهاجمة « هذيل الشام » فقتلوا وسبوا النساء . ثم غزوا «اللفاع» حيث يقيم أشراف بني عمرو فقتلوا منهم عدداً ونهبوهم وسلبوا النساء حتى أنهم جردوهن من الثياب ، فطلبوا الأمان وتوهبوا.

ثم توجه المضايفي وابن شكبان نحو مكة فسلبا ونهبا في طريقهما .

وفي سنة ١٢١٩هـ/١٨٠٤م هاجما جدة ولكنهما فشلا فتراجعا وقتلا في طريقهما حياً من الأعراب ونهبا إبلاً للشريف غالب .

ثم توجه شيخ حرب وابن جبارة من المتوهبين إلى ينبع فدخلاها بالحيلة وقتلا أهلها ، ولكن الشريف غالباً استخلصها منهما .

ثم حاول الشريف غالب استرجاع الطائف ففشل وعاد إلى مكة ، فتوجه المضايفي وابن شكبانه إلى «الزيما» ثم إلى «عرفة» حيث أطاعهما بعض الناس فقتلا من لم يطعهما وأسرا وهدما عين زبيدة فشح الماء في مكة . ثم انتقلا إلى وادي مر ينهبون ويقتلون الوافدين إلى مكة مما أدى إلى امتناع أهل الحجاز عن الحج فيما حج أهل الشام ومصر وسائر الناس بعد أن سلكوا طريق جدة[٢١] . وشدّد الوهابيون الحصار على مكة واشتد الغلاء في المدينة المقدسة فباع الناس ما يملكون بأبخس الأثمان وانعدمت المواد الغذائية فأكل الناس الجلود والسنانير والكلاب وكل حيوان كانوا يحصلون عليه وشربوا الدم ، فدخل الكثير من الأشراف في طاعة الوهابيين ، ولكن الشريف غالباً استطاع أخيراً أن يخرق الحصار بشكل مؤقت.

وفي محرم سنة ١٨٠٥/١٢٢٠ وصل الوهابيون إلى أطراف مكة وبدأوا المناوشات التي استمرت وقتاً غير قصير كراً وفراً في مكة وجوارها وراحوا يقتلون الحاج ويأسرون من يمر بهم ، واشتدَّ الغلاء في مكة مرة أخرى وبشكل فاحش لم تشهده من قبل وباع أهلها الأثاث والحلي بعشر قيمته واشتروا حاجاتهم بعشرة أضعاف أثمانها . ومات الكثيرون منهم جوعاً وانتشرت جثث الأطفال في الأزقة وأخذ الناس يهجرون في ظل الخطر الجاثم على أطراف المدينة ، فلم يبق فيها إلا القليل بل النادر من الناس.

كل ذلك دفع بالشريف غالب إلى الموافقة على الصلح مع الوهابيين والسماح لهم بالدخول إلى مكة التي بقي حكمها له على أنه يحظر كل ما يحظره الوهابيون الذين منعوا امراء الحج أن يحجوا إلاّ على شروطهم وأحرقوا المحمل المصري رمز اجتماع الحجيج ، ورفض أمير الحج الشامي شروط الوهابيين وعاد إلى بلاده.

وفي سنة ١٨٠٦/١٢٢١ دخل الوهابيون المدينة المنورة فمنعوا الناس من زيارة قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهدموا القباب التي فيها وفي البقيع ومنها قبة فاطمة الزهراء (عليها السلام) وقباب الحسن بن علي وعلي بن الحسين ومحمد الباقر وجعفر الصادق (عليهم السلام) وكذلك قبة عثمان بن عفان.

كما هدموا قبة حمزة بن عبد المطلب في جبل أحد ، ولكنهم لم يجرؤوا على هدم قبة النبي صلى الله عليه وسلم ، غير أنهم نهبوا كل ما وجدوه في الحجرة الشريفة من الأموال والجواهر « فملأوا أربع سحاحير من الجواهر المحلاة بالماس والياقوت العظيمة القدر ومن ذلك أربع شمعدانات من الزمرد وبدل الشمعة قطعة ماس . ونحو مائة سيف مع قراباتها ملبّسة بالذهب الخالص ومنزل عليها ماس وياقوت ونصابها من الزمرد واليشم ونحو ذلك ونصلها من الحديد الموصوف وعليها أسماء الملوك والخلفاء السابقين » .

وقد امتنع الحاج المصري والشامي في سنة ١٢٢٢هـ/١٨٠٧م عن زيارة المدينة المنورة[٢٢].

وفي سنة ١٢٢٦/١٨١١ بدأت الجيوش المصرية تدخل الجزيرة العربية للقضاء على الوهابيين وأكملت احتلالها سنة ١٢٣٤هـ/١٨١٨ ، ولكن القبضة المصرية ما لبثت أن تراخت لتقوم الدولة السعودية الثانية .

الجولة الوهابية الثانية :

بعد الصدمة المصرية أخذ السعوديون يستعيدون أنفاسهم وبدأوا تحركاً في منطقة الإحساء، حيث انضم إليهم رحمة بن جابر، ضد الخوالد. وبرز تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود ابن أخي عبد العزيز وحفيد محمد بن سعود صاحب محمد بن عبد الوهاب ، الذي فرّ من وجه إبراهيم باشا وراح يجوب البوادي داعياً العربان إلى الالتفاف حوله ، فاسترد الرياض سنة ١٢٣٥هـ/١٨٢٠م.

وأخذ تركي يراسل أمراء الخليج لتجديد البيعة له وتأكيد الولاء . ولكن الخوالد قضوا على رحمة بن جابر ثم توجهوا إلى السعوديين للقضاء عليهم ، فأخذ تركي يستجمع القبائل للتصدي واستطاع أن يلحق هزيمة بالخوالد في معركة السبية في ٢٣ آذار ١٨٣٠م/١٢٤٥هـ.

وفي سنة ١٢٧٦ في عهد فيصل بن تركي استأنف السعوديون نشاطهم الحربي فتوجه عبد الله بن فيصل لقتال مجموعة من عرب العجمان في «الوفراء» وجرت معركة بين الفريقين قتل فيها من العجمان أربعون فارساً ، فانسحب العجمان إلى قرية «الجلاء» بالقرب من «كاظمة» حيث التقوا بحشود أخرى من

العجمان ، فارتحل عبد الله بن فيصل إلى «فلح» فهاجمه العجمان في العاشر من رمضان وكانت ملحمة كبيرة قتل فيها عدد من الفريقين ، وقدّر عدد من قتل من الوهابيين بثلاثة أرباع القتلى جميعاً[٢٣] .

وفي السنة الثالثة كانت معركة «الطلعة» بين الفريقين حيث قتل حسب ما يرويه ناصر السعيد ألف وخمسمائة من العجمان وثلاثة آلاف من السعوديين.

وفي عهد عبد الله بن فيصل ، كانت في عام ١٢٨٦هـ/حوالي ١٨٦٩م جولة عنف مارسها السعوديون الوهابيون، لاسيما في وادي الدواسر في منطقة نجد حيث تقوم الدرعية نفسها فهدموا البيوت وأحرقوا الأشجار وردموا الآبار بعد أن قتلوا حوالي ثلاثة آلاف شخص ، هذا بالإضافة إلى ما حملته الذاكرة الشعبية من تقطيع أطراف الناس بمن فيهم الأطفال وتركهم يموتون موتاً بطيئاً.

وفي سنة ١٢٨٧هـ/١٨٧٩م قرر العجمان الانتفاضة فتحركوا في شهر رجب في منطقة الإحساء ضد حكم عبد الله الفيصل وانضم إليهم سعود الفيصل شقيق عبد الله ، فسيطروا على المنطقة المذكورة سيطرة تامة . عند ذلك أمر عبدالله الفيصل أخاه محمداً أن يزحف بحشوده من حاضرة نجد وباديتها لمهاجمة العجمان وزحف العجمان باتجاه الرياض والتقى الفريقان عند ماء يقال له «جودة» غرب الإحساء وذلك يوم ٢٧ رمضان ١٢٨٧ ، فقتل من جموع آل سعود تسعماية بين فارس وراجل حسب ما يذكره ناصر السعيد ، وأسر القائد محمد بن فيصل آل سعود[٢٤].

وعند سماع عبد الله بن فيصل بأخبار الهزيمة هرب إلى جبل شمَّر ، ولكن وفداً من قحطان التقاه في شوال وشد من عزيمته فعاد إلى الرياض . وفي شهر محرم خرج العجمان من الإحساء ومعهم سعود الفيصل وقصدوا الرياض ، فلما اقتربوا منها هرب عبد الله الفيصل مرة أخرى وأرسل أمتعته وأمواله بحماية سَرِيَّةٍ لينقذها ، فالتقى العجمان تلك السرية وقتلوا العدد الأكبر من أفرادها وانتزعوا ما معها.

وفي ربيع الأول سنة ١٢٨٨ دخل العجمان الرياض وولوا عليها سعود الفيصل آل سعود . وبعد سعود تولى الحكم أخوه عبد الرحمن والد عبد العزيز

وجد الملوك الحاليين . ولكن أولاد أخيه سعود الفيصل انتفضوا عليه وطردوه من الرياض فالتجأ إلى أخيه عبد الله اللاجىء في ديار عتبة . واستغل عبد الله اضطراب الأحوال فتحرك مع عدد من العربان إلى الرياض فاحتلها . ولكن محمد بن سعود الفيصل هاجمه واحتل الرياض وسجنه . وكان عبد الله قد استنجد بابن رشيد أمير حائل فوصل هذا بعد انتهاء المعركة ففر محمد بن سعود وأخرج ابن رشيد عبد الله الفيصل من السجن ولكن لم يسلمه الحكم بل أعاده إلى عبد الرحمن بعد أن عين من قبله مندوباً يراقبه هو سالم السبهان .

ولكن عبد الرحمٰن ما لبث أن سجن ابن السبهان ، فعلم ابن رشيد بالأمر فتحرك باتجاه الرياض ففر عبد الرحمن بأهله سنة ١٣٠٩ ، وانتهى به التطواف إلى أن استقر في الكويت ، فخصصت له الدولة العثمانية راتباً بلغ ستين ليرة عثمانية في الشهر ، ولكن أمير الكويت قطع عنه المرتب وعاش في شدة وضيق(٢٥) .

الجولة السعودية الثالثة :

في عهد إمارة مبارك الصباح ، الذي كان قد قتل أخويه محمد وجراح ليصفو له الحكم في الكويت ، تحرك عبد الرحمن الفيصل وابنه عبد العزيز لاستعادة الإمارة في نجد من ابن رشيد ، وبدأت جولة دموية جديدة كان بطلها هذه المرة عبد العزيز .

كانت نقطة الانطلاق عند توجه مبارك الصباح يرافقه عبد الرحمن الفيصل آل سعود إلى مناطق شمال نجد ، بينما توجه عبد العزيز بن عبد الرحمن إلى الرياض فاستولى عليها .

أما مبارك وعبد الرحمن فاخترقا مناطق «حفر الباطن» و«الدهناء» و«الصماء» ووصلا إلى مقربة من «القصيم» . ولكن ابن رشيد قام بهجوم معاكس فهزم الكويتيين والسعوديين وذلك في معركة «الصريف» في ٣١ آذار ١٩٠١ ، فهربوا إلى الكويت ولحق بهم ابن رشيد ولكنه لم يدخل المدينة لأن مدافع البوارج الإنكليزية التي أصبحت قادرة على الوصول إليه ، كانت تهدده .

ولم يكتف عبد الرحمن بالهرب بل أرسل إلى ابنه عبد العزيز فسحبه من الرياض قبل أن يصل إليه ابن رشيد . ولما عاد عبد العزيز إلى الكويت واسترجع أنفاسه ، خرج إلى نجد من جديد وأخذ يشن الغارات على القبائل المجاورة للإحساء.

وفي آب توجه عبد العزيز متسللاً إلى الرياض مع عدد من أعوانه ، وكان العامل عليها عجلان ، من قبل ابن رشيد . وكانت زوجة عجلان هذا من أقارب عبد العزيز ، فدبر السعوديون الوهابيون بالاتفاق مع تلك الزوجة خطة لقتل زوجها ، فأدخلت نفراً منهم إلى داخل البيت فكمنوا لعجلان وتمكنوا من قتله صباحاً.

ولكن حراس البيت وعددهم حوالي ثمانية عشر ما لبثوا أن أغلقوا الباب واشتبكوا مع المهاجمين إلا أن الإمدادات بدأت ترد إلى السعوديين من مجموعات أخرى كانت قد قدمت مع عبد العزيز واختبأت في أمكنة أخرى ، فبلغ عدد المهاجمين في النهاية ثلاثماية رجل.

ولما شعر الحراس أن لا طاقة لهم بالمهاجمين طلبوا الأمان من السعوديين فأعطوهم إياه « لوجه الله ووجه عبد العزيز » على أساس الحفاظ على أرواحهم وإعطائهم الخيار في الإقامة حيث يشاؤون ، ففتحوا الأبواب واستسلموا ، فما كان من السعوديين إلا أن قتلوهم وفرقوا أوصالهم ومثّلوا بهم[٢٧].

وبعد الاستيلاء على الرياض توجه عبد العزيز إلى قتال طلال آل رشيد ، فيما كان آل رشيد منشغلين من جهة الكويت . وجرت بين عبد العزيز وطلال معركة في الدلم خسر فيها ابن رشيد مايتين وخمسين من رجاله واستولى عبد العزيز منه على مغانم كبيرة.

وفيما كان ابن رشيد يحاصر مباركاً في الكويت ، أخذ عبد العزيز يغير على القبائل الموالية لابن رشيد وذلك ما بين ٣١ آذار و١٧ نيسان ١٩٠٣ فتمكن بذلك من فك الحصار عن حلفاء أبيه.

وما شارف عام ١٩٠٣ على الانقضاء حتى كان عبد العزيز قد أخضع «العارض» (منطقة الرياض) و«الوشم» و«الحوطة» و«المحمل» وأصبح على

أبواب «القصيم» ، فأخذ يناوش ابن رشيد في تلك المنطقة .

وفي شباط ١٩٠٤ هاجم عبد العزيز ماجد بن محمود بن رشيد القادم لحماية عنيزة فقتل ثلاثماية وسبعين رجلاً من رجاله ، كما قاتل فهيد السبهان عامل ابن رشيد في تلك المنطقة وهزمه .

وفي آذار سنة ١٩٠٤ هاجم عبد العزيز ماجد بن جراد فهزمه وقتل أربعماية رجل من أتباعه .

وفي حزيران أغار عبد العزيز على البكيرية فهزمه ابن رشيد الذي كانت تعاونه القوات العثمانية ، ولكن عبد العزيز بقي في المنطقة يناور ثم عاد فهاجم البكيرية واحتلها في ١٣ تموز سنة ١٩٠٤ ، ولكنه تركها منسحباً إلى الرس .

في هذه الأثناء كان ابن رشيد معسكراً في «الشنانة» ، فتحرك من معسكره هذا إلى جهة غير معلومة ففاجأه عبد العزيز في منطقة « قصر ابن عقيل » فقتل من رجاله عدداً كبيراً .

ثم خطط عبد العزيز للاستيلاء على القصيم ، فتزوج أخت زعيم المنطقة حاكم بريدة صالح بن حسن المهنا آل أبا الخيل . وبعد فترة دعاه مع وجوه المنطقة إلى وليمة ، ولما حضروا ألقى القبض عليه وعلى أولاد أخيه السبعة وتظاهر بإرسالهم إلى حائل وأمر رجاله بقتلهم في الطريق وكان بين الذين قتلوا طفل في الرابعة من عمره . وبعد تحقيق هذا الهدف طلّق عبد العزيز أخت صالح المهنا وقتل حوالي خمسماية من الذين عارضوه في القصيم لتستتب الأمور[٢٨] .

وفي أيار من سنة ١٩٠٦ فاجأ عبد العزيز آل سعود عبد العزيز آل رشيد وهو عائد من إحدى غزواته ضد بعض القبائل التي دانت لابن سعود فقتله في أربعماية من رجاله وذلك في «روضة مهنا» ، فتراجع من تبقى من رجال ابن رشيد إلى حائل حيث تولى الإمارة بعد عبد العزيز آل رشيد ابنه متعب وعمره عندئذ خمس عشرة سنة .

ولكن عبد العزيز اتفق مع أخوال متعب وهم من فرع آخر من القبيلة ، فقتلوا الأمير الجديد وأخويه محمداً وعمره سبع سنوات ومشعلاً وعمره خمس سنوات ، وذلك في كانون الأول سنة ١٩٠٦/ذي الحجة ١٣٢٤ .

ولكن الحكم عاد إلى أخ آخر لمتعب بن عبد العزيز واسمه سعود بن عبد العزيز المتعب آل رشيد الذي استأنف التعاون الرشيدي التركي في ظروف كانت فيها الدولة العثمانية تواجه المشاكل في ولايات الرومللي المتبقية لها.

أما شريف مكة، فلم يكن واقفاً على الحياد، إذ تحرك بعد احتلال السعوديين للقصيم، محاولاً استرجاعها منهم، فسار إليها ولكن جنوده خذلوه فتراجع.

وفي ١٠ كانون الثاني سنة ١٩١٠ هاجم عبد العزيز «الهزازنة» في «الحريق» بعد أن تمردوا عليه وأخضعهم ولكنهم عادوا إلى التمرد فهاجمهم في تشرين الثاني من نفس العام.

وفي آذار سنة ١٩١١ هاجم عبد العزيز «الصفراء» من فرع السليمان من العجمان في «المحمرة» على بعد يومين من الهفوف واستولى على ٢٥٠ بعيراً.

وفي سنة ١٩١١ نشب القتال بين عبد العزيز وعشيرة ابن دبلان وعشيرة ابن محفوظ. وفي ١٨ أيار سار إلى أهل «الرقيقة»، وجرى الصلح بين ابن سعود وهذه القبائل المقيمة في مناطق الإحساء ليصل إلى الساحل الذي تسيطر عليه بريطانيا.

ومن أجل ترسيخ السلطة السعودية الوهابية في الإحساء لجأ عبد العزيز ومستشاروه إلى استخدام رجال الدين للدعوة له. ثم هو تسلل في ٥ جمادى الأولى ١٢/١٣٣١ نيسان ١٩١٣ الى جوار الهفوف وأدخل أعداداً من جنوده إلى البساتين المحيطة بها، ثم فتح لهم عملاؤهم من أهل المدينة ثغرة فدخلوا إليها وهاجموا القلعة التي كان يحميها أربعة وستون جندياً عثمانياً فقتلوهم جميعاً ودخلوا المدينة.

واحتفالاً بالنصر أقام عبد العزيز وليمة دعا إليها عدداً من أهل المنطقة. فلما حضروا قطع رؤوس بعضهم ووضعها على المائدة وأمر الآخرين أن يأكلوا وإلا ضرب أعناقهم، فأكلوا بعد أن ملأ الرعب قلوبهم وسرى ليملأ قلوب الناس في المنطقة وما حولها.

ولكن الثورة ما لبثت أن نشبت في الإحساء ، إذ انتقضت العجمان سنة ١٩١٥ بعد المعاهدة البريطانية السعودية ، ولكن عبد العزيز هاجمهم فالتجأوا إلى الكويت.

وبعد عدة سنوات من التجاذب بين النفوذ الإنكليزي والتركي أثناء الحرب ، أعطي الضوء الأخضر لعبد العزيز لمهاجمة الأراضي الكويتية فوقعت معركة « الحمض » سنة ١٣٣٧هـ/١٩١٩م فقتلوا ونهبوا.

ثم أعاد السعوديون الكرة سنة ١٣٣٨ / ١٩٢٠ وهاجموا الكويت فنشبت بينهم وبين سالم الصباح معركة «الجهراء» التي كاد فيها الأمير الكويتي أن يؤسر لو لم ينجده ابن طوالة بقوة من قبائل شمَّر والعجمان.

وبموت سالم الصباح سنة ١٩٢١ وصفاء الجو للإنكليز توقفت الهجمات السعودية ضد الكويت[٢٩] وكان عبد العزيز قد عاد الى قتال آل رشيد فجرت في كانون الأول سنة ١٩١٥ بينه وبين سعود آل رشيد معركة في « جراب » فقتل عدد كبير من رجال الفريقين كما قتل الكابتن شكسبير الذي كان يرافق ابن سعود فانسحب هذا الأخير الى بريدة فيما انسحب ابن رشيد الى القصيم.

وعند احتدام الحرب العالمية الأولى راوغ عبد العزيز الأتراك في الوقت الذي كان منحازاً فيه الى الإنكليز . وفي الوقت الذي نودي فيه بالشريف حسين ملكاً على الحجاز ، أعلن عبد العزيز سلطاناً على نجد.

وبعد الحرب عمل عبد العزيز على خطين ، خط قتال آل رشيد في الشمال الشرقي وخط قتال الشرفاء في الحجاز ، وكان قد التحق به بعد مقتل الكابتن شكسبير ، جون فيلبي من كبار موظفي المخابرات البريطانية.

فعلى محور آل رشيد عمد فيلبي وعبد العزيز آل سعود إلى استخدام المال وتقديم المغريات كوسيلة جديدة لتحريك الحساسيات والعصبيات ، فساعدهم بعض آل الرشيد على الاستيلاء على بعض قرى منطقة حائل عاصمة آل الرشيد.

ثم جرت معركة «الروضة» واحتلت قريتا «بيضاء نثيل» و«الشعبية» وقتل السعوديون المصلين عند الصباح بالمساجد في شهر رمضان على أساس أنهم من

الكفار ، كما هتكت الأعراض ونهبت الأموال.

ثم استطاع السعوديون بمعاونة بعض العملاء من الاستيلاء على جبل شمَّر (جبل طيء سابقاً : أجأ وسلمى) وأخذوا يمارسون الإرهاب ضد أهله ولا سيما في قرية «عقدة» وبعض القرى الأخرى ، حيث قتلوا عدداً من الفلاحين الآمنين[٣٠] . وهكذا انفتح الطريق أمام «الوهابيين» إلى حائل وكان للخيانة دور كبير في سقوطها بعد أن حشد السعوديون جيشاً من أربعين ألفاً لمهاجمتها فسقطت في أيديهم في ٢٩ صفر ١٣٤٠/٢ تشرين الثاني ١٩٢٢[٣١] .

أما على محور الحجاز فقد أخذ الهدوء بين الشريف حسين وعبد العزيز يتعرض للعواصف عندما تأكد الإنكليز من رفض الشريف توقيع المعاهدة البريطانية الحجازية ، فأخذ الوهابيون يشنون الهجمات على الحجاز بعد أن استطاع الإنكليز والسعوديون دفع الخلافات والحساسيات فيما بين الأشراف وفيما بين قبائل الحجاز إلى حد الانفجار . وكانت أهم المعارك بين الفريقين معركة تربة ليلة ٢٥ شعبان ١٣٣٧ / ١٩١٩ التي استطاع فيها عملاء السعوديين والإنكليز أن يستفيدوا من الليل فيدفعوا ميمنة الجيش الشريفي لتقاتل ميسرته وكل منهما تظن أن من تقاتلهم الجند السعودي . ولما أطل الصباح وعرف الجيش الحقيقة ، لم يسمح له السعوديون بالتقاط الأنفاس فانقضوا عليهم ، وكان يقودهم فيصل الدويش ، وأمعنوا قتلاً بجنود الشريف فلم ينج من الأربعين ألفاً أكثر من خمسماية وهرب عبد الله بن الحسين قائدهم مع حرسه الخاص فنجا.

ثم انقض الجيش السعودي على القريتين المجاورتين لمكان المعركة «حزبة» و«تربة» فقتل ونهب واعتدى على الأعراض وأحرق النخيل . وقد أحصي من قتل في تربة وحدها فبلغوا ثلاثة آلاف من المدنيين.

وفي أوائل سنة ١٣٤٣/أيلول ١٩٢٤ غزا السعوديون الطائف حيث قتلوا الرجال والنساء والأطفال والعلماء والصلحاء فكان عددهم حوالي ألفين ثم عمدوا إلى السلب والنهب ، وارتكبوا من الفظائع ما تقشعرّ منه الأبدان . ويروي ناصر السعيد أن البدو الوهابيين لم يكتفوا بالقتل والذبح بل كانوا يقطعون أيدي النساء لانتزاع الحلي منها ، كما كانوا يتوضأون بدم الآدميين بعد صبه في الماء[٣٢] .

وكانت ردة فعل عبد العزيز على هذه المجازر المروعة أن أبدى اعتذاره مدعياً التأسي برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في تبرّئه من قتل خالد بعض الرجال عند دخول مكة.

وفي سنة ١٩٢٥ غزا الوهابيون شرق الأردن فأغاروا على قرية أم العمد وجوارها فقتلوا حوالي ٢٥٠ شخصاً ونهبوا وأسروا الأمر الذي أدى إلى تدخل الطائرات البريطانية لردعهم بعد أن تجاوزوا الحدود المرسومة لهم، ثم أعادوا الكرة سنة ١٩٢٨ فوصلوا إلى معان.

أما استيلاؤهم على مكة فتم بعد تخلي الملك حسين لابنه علي عن العرش ومغادرته وأولاده إياها، فاكتفى السعوديون بنهب داره.

وفي الحجاز عمد الوهابيون إلى هدم القباب والمشاهد والمزارات كما في المرة الأولى لاجتياحهم إياه فدمّروا قبة ابن عباس في الطائف وقباب عبد المطلب وأبي طالب وخديجة زوجة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وخربوا قبورهم كما خربوا قبة مولد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وقبة مولد فاطمة الزهراء (عليها السلام) في مكة المكرمة. وفي جدة خربوا قبة حواء أم البشر وهدموا قبرها، والقبور الأخرى.

وإلى جانب التهديم أحرق الوهابيون «المكتبة العربية» في مكة وهي من أثمن مكتبات العالم، إذ كانت تحوي ستين ألفاً من الكتب النادرة وحوالي أربعين ألف مخطوطة بعضها مما أملاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبعضها كتبه علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وكذلك سائر الصحابة والخلفاء، ومنها ما هو مكتوب على جلود الغزلان والعظام والألواح الخشبية والرقم الفخارية والطينية، كما كانت المكتبة تشكل في جانب منها متحفاً يحتوي على مجموعة من آثار ما قبل الإسلام وبعده[٣٣].

وقد جرى احتلال مكة فيما الملك علي ابن الملك حسين في جدة يحاصره الوهابيون من جهة البر بينما يضيق عليه الإنكليز من جهة البحر إلى أن قبل بالصلح والاستسلام للإنكليز سنة ١٩٢٤ فانتقل إلى العراق.

وفي آب من سنة ١٩٢٥ جاء دور المدينة المنورة فحاصرها الجند الوهابي

وبدأ القتل والسلب والنهب حولها . ثم أخذ الوهابيون يضربون داخلها بالمدافع ويطلقون الرصاص على الناس .

واستمر الحصار عشرة أشهر اضطرت مدينة الرسول في نهايتها الى الاستسلام .

وفي منطقة المدينة عمد الوهابيون الى هدم القباب والمزارات والمشاهد وفي مقدمها مسجد حمزة بن عبد المطلب في جبل أحد .

ونتيجة كل هذه «الجهود» أطلق على عبد العزيز لقب إمام المسلمين ، وهو بالمناسبة شبه أمي . وبينما كان عبد العزيز قبل الاستيلاء على الحجاز وأثناء معاركه فيه يعلن أنه يريد تحرير الحجاز ثم تركه وشأنه، فقد فرض نفسه عندما خلت له الساحة ملكا عليه ، وراح يتحكم بحركة الحجيج وبشعائر الحج ويبتز الحجاج ويفرض عليهم الرسوم .

وفي سنتي ١٩٢٥ و١٩٢٦ شن الوهابيون بقيادة فيصل الدويش هجمات على العراق حيث قتلوا ونهبوا فشكاهم حكام العراق إلى بريطانيا التي وضعت حداً لغزواتهم في تلك البلاد .

ثورات شعب الجزيرة ضد الوهابية السعودية :

ولكن شعب الجزيرة العربية لم يستكن بسهولة بل هو قام بمحاولات عديدة للتخلص من الوهابية السعودية .

فقد حصلت في المدينة المنورة انتفاضات عدة حركها الظلم والنهب ، ومنها انتفاضة « النخاولة » أي العاملين الشيعة في بساتين النخيل . كما حصلت قبلها انتفاضة ابن رفادة ومعه قبائل «جهينة» و«بلى» و«الحويطات» و«بني عطية» التي قمعها السعوديون بأقصى الشدة وقتلوا عدداً كبيراً جداً من القائمين بها ومن قبائلهم[٣٤] .

ولكن أهم الثورات التي قامت في وجه الحكم السعودي هي ثورة جنده أي «ثورة الأخوان» التي رافقتها وتلتها ثورات أخرى عديدة .

ثـورة الإخوان :

الإخوان كما ألمحنا هم جنود الجيش الذي قدم لسعود أهم انتصاراته .

كان هذا الجيش قد شكّل وعبّىء بالفكر الوهابي بعد أن اختير أفراده من أبناء البدو البسطاء الذين عاشوا بين أهليهم حياة الغزو والسلب والنهب ، التي كانت سائدة في الجاهلية ، والتي لم يثر الوهابيون ضدها ولا شملتها على ما يبدو تعاليمهم لتكفر الذين يقومون بها ، بل على العكس راحوا يمارسونها على أوسع نطاق متخذين الدين كتبرير لها .

وأصبح جيش «الإخوان» لا يعرف سوى الوهابية عقيدة ، فكان المسلمون في نظره مشركين وكافرين باستثناء من يعتنق الوهابية .

وظن هذا الجيش أن زعماء الوهابية يؤمنون فعلاً بالمبادىء التي يطرحونها ، فانساق وراء مخططاتهم يقتل ويسلب وينهب المسلمين وينتهك أعراضهم على أنهم كافرون . ولكن قادة جيش «الإخوان» فوجئوا أن زعيمهم عبد العزيز قد عقد معاهدة مع الإنكليز ، بعد أن أصبح الإنكليز بطانته ، ومستشاريه . وعند ذلك انكشفت لهم الحقيقة التاريخية التي كانوا ضحيتها فتحركوا .

ولكن الطريف أن الذين عبأوا الجيش بالفكر الوهابي ، أفتوا في النهاية بكفره لمعارضته عبد العزيز وأصبح اسمه «جيش الشيطان» بدلاً من «جيش الإخوان»[٣٥] وحمِّل أوزار كل الارتكابات التي ارتكبت باسم الوهابية في الجولة السعودية الدموية الثالثة على يدي عبد العزيز آل سعود .

وكان أول تحرك لجيش «الإخوان» بقيادة فيصل الدويش في عيد الأضحى لسنة ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م ، وكان أول عيد بعد دخول مكة . ذلك أن «الإخوان» اكتشفوا أثناء الفترة التي قضوها في مكة أن زعماءهم من عبد العزيز فنازلاً يرتكبون ما كانوا صوروا للجيش أن الشرفاء يرتكبونه . ولكن عبد العزيز انحنى للعاصفة مؤقتاً .

واستمر «الإخوان» في تحركهم فعقدوا مؤتمراً في الأرطاوية بتاريخ ٣ رجب ١٣٤٥ ، والأرطاوية كانت أحد المعسكرات أو «الهجر» في نجد أي إحدى

دور الهجرة التي كان يهاجر إليها من يعتنق الوهابية ، كما هاجر المسلمون الأولون إلى المدينة .

وحضر المؤتمر رؤساء «الإخوان» من قبائل مطير وعتيبة والعجمان وتعاهدوا على « نصرة دين الله » . واتخذوا بعض المقررات التي تدين تصرفات عبد العزيز ، سواء في علاقاته مع الإنكليز أم بتصرفاته الشخصية وممارساته الأخلاقية ، وأعلنوا أن لا طاعة له عليهم .

ولكن عبد العزيز دعا زعماء الإخوان إلى مؤتمر في ٢٥ رجب سنة ١٣٤٥هـ/١٧ كانون الثاني ١٩٢٧م واستصدر من رجال الدين الوهابيين الفتاوى التي تبرئه وتدين «الإخوان» [راجع نموذج من الفتاوى أدناه ص ١٧٨] .

ولكن زعماء الإخوان بقيادة فيصل الدويش وابن بجاد وابن حثلين وابن مشهور رفضوا الإذعان وأتبعوا ذلك بهجمات على مراكز ابن سعود العسكرية . فتابع ابن سعود استصدار الفتاوى بتكفيرهم وهدر دمائهم ووعيدهم بالنار . فما كان من أهل نجد الذين عانوا من ممارسات «الإخوان» الدموية إلا أن تحركوا ضدهم غافلين عن أن عبد العزيز هو المسؤول عن كل الممارسات وإلا كان عاقب عليها عند القيام بها . أما عبد العزيز نفسه فانتقل إلى «بريدة» وجعلها مركزاً لتجمع أنصاره .

وراح «الإخوان» يعدون العدة . وفي ٣٠ آذار ١٩٢٩ هاجمت جموع عبد العزيز تجمعات «الإخوان» فأبادت عدداً كبيراً منهم ولم ينج إلا القليل وقد سميت تلك الموقعة بوقعة «السبلة» وقد تواجه فيها أربعون ألفاً من جند عبد العزيز مع أربعة آلاف من «الإخوان» ولم تكن الأسلحة متكافئة لا كماً ولا نوعاً .

هذا وقد أسرت قوات عبد العزيز أعداداً من الإخوان فعمد إلى قتلهم حيث ضرب بسيفه «الرقبان» أعناق سبعين منهم . وكان من بين الأسرى فيصل الدويش نفسه الذي أصيب في المعركة ، ولم يقتله عبد العزيز لأن جراحه كانت بليغة فتركه يموت موتاً بطيئاً .

وأما سلطان بن بجاد ففر ولكنهم خدعوه وألقوا القبض عليه في بلدة «شقراء» فأودعه عبد العزيز السجن مكبلاً وتركه بلا طعام ولا شراب حتى مات .

ثم أخذ عبد العزيز يطارد القبائل التي تشكل جيش «الإخوان» من أبنائها ، وخاصة العجمان ، الذين أرسل جموعاً بقيادة ابن جلوي لمطاردتهم في الإحساء.

وفي هذه الأثناء هرب فيصل الدويش من السجن وأقام بين الكويت والإحساء حيث انضم إليه العجمان بعد أن قتل زعيمهم ضيدان بن خالد بن حثلين بيد فهد بن جلوي الذي قتلوه ثأراً بعد أن تزعمهم نايف بن حثلين وقاد لواءهم ضد السعوديين منذ ١٩ ذي القعدة ١٣٤٧هـ/١٩٢٩م . فنشبت المعارك وكانت كل قبيلة منقسمة بين مؤيدي السعوديين والثائرين ضدهم وانتشر الثوار من قبائل «مطير» (قبيلة الدويش) وعتيبة والعجمان في مناطق نجد والإحساء والشمال.

وأخيراً لجأ عبد العزيز إلى أسلوب شق وحدة القبائل بإرساله لكل منها جنداً من أبنائها الموالين له ثم سير جنداً بقيادة عبد العزيز بن مساعد ، ابن عمه ، فالتقى بعبد العزيز الدويش بن سلطان الدويش فقتلوه وفتكوا بجماعته.

عند ذلك تراجع فيصل الدويش إلى حدود الكويت . وفي هذه الأثناء تحرك الإنكليز بمدرعاتهم ومدافعهم لمحاصرته من جهة الكويت والعراق والأردن ليهاجمه محسن الفرم رئيس قبيلة «حرب» ومعه ابن طوالة وابن سويط وعدد من عربان العراق الموتورين من «الإخوان» . وجرت المعركة في ٣٠ أيلول في منطقة «الحفر» ، فهزم الدويش ، فانسحب متوجهاً إلى الكويت حيث تصدت له القوات البريطانية فاستسلم في ٩ كانون الثاني ١٩٣٠ ، طالباً اللجوء السياسي ، لدى حكومة العراق المعينة من قبل الإنكليز . فتظاهر الإنكليز بالقبول ولكنهم نقلوه إلى الجزيرة العربية وسلموه إلى عبد العزيز في ٢٨ كانون الثاني سنة ١٩٣٠ كما سلّموا معه عدداً من رفاقه : أبو الكلاب وجاسر بن لامي وبعض الآخرين.

وبعد تسليم قادة الإخوان إلى عبد العزيز حاول شيوخ «مطير» أن يتشفعوا لقريبهم فأخبرهم عبد العزيز أن جده سعوداً الأول كان قد سجن عدداً من شيوخ قبيلتهم ، فجاء عدد من أقاربهم ليتوسطوا لهم ، فما كان من جده هذا إلا أن أمر بقطع رؤوس السجناء ، ثم أحضر الغداء للمطيريين ووضع الرؤوس على المائدة

وأمرهم أن يأكلوا ، فلما رفضوا أمر بقتلهم أيضاً.

وبعد الخلاص من جيش الإخوان الأول عاد السعوديون بمساعدة الإنكليز إلى تأسيس جيش جديد ابتداءً من سنة ١٩٤٧ .

وتعليقاً على قضية «الإخوان» لنا أن نتساءل : هل كان قادة الإخوان مخلصين للوهابية مخدوعين بشعاراتها أم أنهم كانوا ضالعين في مخططات عبد العزيز حتى إذا شعروا أنه يستأثر بكل شيء دونهم تحركوا ؟ .

وعلى الفرضية الأولى لنا أن نتساءل : ألم يكن قادة الإخوان ملمنين بتاريخ الوهابية وآل سعود وتقلباتهم وجرائمهم ؟ أم أنهم كانوا لا يرون جرائم في ممارسات أسلاف عبد العزيز ، والدليل أنهم هم أنفسهم مارسوا ما هو أبشع منها ؟ .

وأخيراً يبقى التساؤل ، إذا كان قادة الإخوان بالضرورة ملمين بتاريخ العائلة السعودية وما فعلته بقبائلهم نفسها ، فهل اكتشفوا العلاقة مع الإنكليز بعد فتح مكة ؟ ألم يشهدوا مقتل شكسبير في معركة جراب مثلاً ؟ وهل انطلت عليهم خدع عبد العزيز التي استخدمت لإخفاء حقيقة علاقته بالإنكليز ؟ . إن كل هذا لا يرجحه العقل السليم . فيبقى أن قادة الإخوان كانوا ضالعين مع عبد العزيز فاختلفوا معه بسبب استئثاره.

ثورة ابن رفادة :

وهو الشيخ حامد بن سالم بن رفادة شيخ قبيلة «بلي» المقيمة في شمال غرب الحجاز.

تحرك ابن رفادة ضد الحكم السعودي عام ١٣٤٧هـ/١٩٢٩م في منطقة «الوجه» . ولكن السعوديين استطاعوا القضاء على تلك الحركة بعد أن قتلوا حوالي ألفين من الثائرين وفر ابن رفادة إلى مصر ، حيث أقام أربع سنوات ثم عاد إلى منطقته سنة ١٣٥١هـ/١٩٣٣م فجمع عدة مئات من قبيلة «بلي» وقبيلة «الحويطات» وتحرك إلى «الضب» بين السويس والطور.

وفي أوائل محرم تحرك ابن رفادة باتجاه الأراضي الحجازية ، ولكن

المخابرات البريطانية تنبهت للأمر فتحركت قوات سعودية و«غير سعودية» فكمنت عند الحدود ، وأعلنت بريطانيا محاصرتها له من شرق الأردن وأرسلت بـارجة حربية إلى العقبة.

وتحرك ابن رفادة إلى الخريبة فالشريم.

ولكن القـوات المتصـديـة استـطاعت أن تقضي على حـركتـه في ٢٦ ربيع الأول ١٣٥١هـ/١٩٣٣م بعد أن قتلت ٣٥٠ رجلاً من أتباعه[٣٦] وقطع رأس ابن رفادة بأمر من عبد العزيز وعلّق في سوق بلدته «ضبا» ، بينما حمل جسده إلى مكة ثم إلى الرياض ليعرض هناك للناس.

ونشرت الصحف السورية في ذلك الحين : « أن رؤوس ابن رفادة ورفاقه قد رميت في الشوارع ليلعب بها الأطفال قبل تعليقها » .

ثم قامت القوات السعودية بعد إخماد الثورة بعمليات تصفية واسعة طالت حوالي ٣٧٠٠ شخصاً ممن اتهموا بالموالاة للثورة كما اعتقلت أكثر من ٧٠٠٠ من المدنيين وخاصة من قبائل الحجاز[٣٧] .

ثـورة القهـر :

لم يؤد قمع السعوديين الوهابيين لحركات أبناء الجزيرة في الشرق والغرب إلى استكانتها إلى الأبد ، بل هي راحت تتحرك بين الحين والحين وكلما سمحت الظروف.

ففي سنة ١٣٨٥هـ/١٩٥٥م ثارت قبائل «الريث» في «القهر» . والقهر هذا جبل وعر المسالك يقع شمال شرق جيزان على مسافة ٩٠ كلم . واستمرت الثورة حوالي سنة ، ولكنها فشلت بعد أن استخدم السعوديون ضدها أحدث الأسلحة بما فيها الطائرات الأميركية.

وكانت الثورة قد بدأت بقتل القاضي الـوهابي في المنـطقة وقتـل نائب الحاكم فيما نجا الحاكم من الموت وهرب . وكان ذلك ردة فعـل على الظلم والتجويع وتقطيع الأيدي والأرجل لأتفه الأسباب . وقـد أسفر قمـع الثورة عن حوالي أربعة آلاف قتيل من الرجال والنساء والأطفال والشيوخ[٣٨] .

ثــورة الحــرم :

قبل حلول فجر اليـوم الأول من القرن الخـامس عشر الهجـري الموافق للعشرين من تشرين الثاني ١٩٧٩ ، تسللت جماعة مسلحة إلى داخـل الحرم المكي ، وأعلن أفرادها من داخل الحرم بواسطة إذاعته أن هدفهم إسقاط النظام السعـودي باعتبـاره نشر الفسـاد ودمَّر الـدين الإسلامي واغتصب ثـروة الشعب واستـولى على أراضيه فيمـا يـوالي الأميـركـان ويـوظف ثـروة البـلاد النفـطيـة لمصلحتهم ، وطالبوا بإقامة نظام جمهوري وقطع النفط عن أميركا .

وكان الثوار البالغ عددهم حوالي ثمانماية شخص ينتمون إلى قبائل عتيبة ومـطير وقحـطان ويام وشمـر وعنيـزة وعلى رأسهم السيـدان جهيمـان العتيبي ومحمد بن عبد الله القحطاني .

أما ردة فعل السعوديين فكانت أن دفعوا قواتهم لمحاصرة الحرم وإسقاطه ، فنشبت الاشتباكات واستمـرت طوال خمسـة عشر يـوماً . ولم تتمكن القـوات السعودية من تحقيق أهدافها إلا بعد أن لجأت إلى استخدام الأسلحة غير التقليدية حسبما ورد في العديد من التقارير .

فقد جاء في كتاب «ثورة في رحاب مكة»[٣٩] : « أن المهاجمين استخدموا المعدات الثقيلة والغازات السامة كما لجأوا إلى إغـراق الأقبية بـالماء والمـواد الكيماوية » التي استحضر بعضها الخبراء الفرنسيون الذين قدموا لهذا الغرض ، إضافة إلى إحراق إطارات السيارات على مداخل الأقبية والخلاوي[٤٠] .

وقد أشارت صحيفة « لوبوان » الفرنسية الصادرة بتاريخ ٢٨ كانون الثاني ١٩٨٠ إلى المساعدة الفرنسية في القضاء على ثورة الحرم فقالت : « إن الملك خالد طلب شخصياً من الرئيس الفرنسي فاليري جيسكار ديستان المساعدة وذلك بسرية تامة بعد أن عجزت القوات السعودية عن القضاء على الجيوب الأخيرة التي التجأت إلى الطابق الأسفل من المسجد ، وجاء هذا الطلب خصوصـاً بعد أن لوحظ تردد بعض الضباط السعوديين في الاستمرار بالهجوم على المتمردين» .

أما تفاصيل المساعدة الفرنسية فأوضحتهـا «لوبـوان» بقولهـا : «يوم ٢٣

تشرين الماضي (أي بعد ثلاثة أيام على بدء العملية) وصل خمسة خبراء من مجموعة التدخل في الدرك الوطني إلى الرياض ، وبعد دراسة القضية على الطبيعة ، تولوا التنسيق وتسيير العمليات التي كان يشارك فيها ثلاثة آلاف سعودي» .

وتضيف المجلة : « ويوم الثاني من كانون الأول غادرت طائرة كارافيل تابعة لشركة المواصلات الجوية الفرنسية مطار «إيفري» في وسط فرنسا إلى السعودية وتوقفت في سوريا حيث احتجزت لعدة ساعات ، ولكنها استطاعت أن تستأنف سفرها إلى مكة ، وكانت الطائرة محملة بمعدات الغاز ومواد متفجرة» .

وتختم المجلة بالقول : « إن رجال الدرك الفرنسيين أعدوا بعد ذلك خطة جديدة للهجوم على المتمردين فاستطاعت القوات السعودية بواسطتها القضاء عليهم» .

ولم تكن فرنسا وحدها التي شاركت في القضاء على الثورة ، ولكن أميركا وكذلك الأردن ساهما فيها . فمن جهة أولى أذاعت وكالة «تاس» السوفياتية بتاريخ ٢٣ تشرين الثاني ١٩٧٩ : إن تحركات غير عادية لوحظت في قاعدة الظهران العسكرية الأميركية بعد وصول طائرات تحمل كوماندوس أميركيين إليها .

ومن جهة ثانية أوردت جريدة «السفير» اللبنانية بتاريخ ٩ كانون الأول ١٩٧٩ أن السعودية استعانت بقوة مظلية أردنية وأن وحدات هذه القوة وصلت إلى السعودية فعلاً» .

وهكذا قمعت ثورة الحرم بجهد دولي وعربي بعد أن لحقت بالحرم أضرار غير قليلة وقد قدّر عدد القتلى من القوات النظامية السعودية بحوالي ١٣٠٠ قتيل بالإضافة إلى ٢٠٠٠ ـ ٣٠٠٠ جريح من العسكريين والمدنيين غير من قتل من أفراد الشعب السعوديين ومن الأجانب من الحجاج الذين صادف وجودهم في الحرم أو في جواره بعد أن سمح الثوار لمن كان في الداخل بالمغادرة .

ومرة أخرى لم يرعَ السعوديون الوهابيون حرمة للمقدسات الاسلامية فاستخدموا القوة داخل الحرم المكي في معركة استمرت نصف شهر دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة البحث في مطالب المعتصمين ويعطوها أذناً صاغية .

لكن وجود ثمانماية مسلح أرعب سلطات آل سعود ، وبدلاً من اللجوء إلى المفاوضات واستخدام عامل الوقت والروية راحوا يتخبطون ويسفكون الدماء في حالة هستيرية شاملة .

مجازر السعوديين ضد الحجيج :

لم يقتصر نشاط عبد العزيز وأبنائه الحربي على أبناء قبائل الجزيرة العربية وجوارها بل هو طال أبناء الإسلام من قاصدي بيت الله الحرام أيضاً في عديد من المناسبات .

وقد مر بنا لمحات من اعتداءاتهم على من كانوا يجدونهم في جوار مكة المكرمة والمدينة المنورة من الحجيج وغيرهم كما مر بنا تسببهم بمنع الحاج سنوات عدة من هذه الجهة أو تلك ، كما مرت معنا شروطهم وتحكمهم بمراسم أداء هذه الفريضة فرأينا قصة المحمل المصري والمحمل الشامي وغيرها .

فلقد جعل الوهابيون السعوديون الديار المقدسة رهينة في أيديهم وراحوا يتحكمون بحركة الوفود إليها عن طريق فرض المكوس من جهة وعن طريق استخدامها لأغراضهم السياسية من جهة أخرى . ففي سنة ١٩٥٩ منع الحاج السوري من الوصول إلى مكة المكرمة، كما أرجعت كسوة الكعبة المشرفة المرسلة من مصر ومنع الحجاج المصريون ما لم يدفعوا المكوس بالعملة الصعبة ، علماً بأن فرض الرسوم محرم شرعاً ، كما منعوا الحاج اليمني بعد انقلاب السلال .

إلا أن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد ، بل هو تعداه إلى قتل الحجيج العزل المقصود بشكل وحشي في غير مناسبة ، وقد حفظ الإسلام لآل سعود الوهابيين على هذا الصعيد ارتكابهم مجزرتين مروعتين : الأولى ضد الحاج اليماني سنة ١٣٤١هـ/١٩٢١م والثانية ضد الحاج الإيراني سنة ١٩٨٨م/١٤٠٨هـ .

مجزرة الحاج اليماني :

في سنة ١٣٤١هـ/١٩٢١ انقض الوهابيون على الحاج اليماني المتوجه الى مكة فقتلوهم غدراً وغيلة دون أي سبب . فقد صدف أن التقت سرية من الوهابيين بحوالي ألف من أبناء اليمن القادمين لأداء فريضة الحج ، وكانوا بطبيعة الحال عزلاً من السلاح ، فسايرهم الجنود السعوديون بعد أن أعطوهم الأمان. فلما وصل الفريقان إلى وادي «تنومة» والوهابيون في الجهة العليا بينما اليمنيون في الجهة الدنيا ، انقض المسلحون على الحجاج بأسلحتهم فأبادوهم فلم ينج منهم إلا اثنان .

وقد حاول الوهابيون وبعض الأقلام المرتبطة بهم أن يبرّروا هذه الفعلة عن طريق الادعاء بأن الجند السعودي ظن أن مجموعة الحجاج مجموعة مسلحة من أعدائهم في الحجاز فاشتبكوا معها ولكن الوقائع كذبت هذا الزعم بعدما ثبت أن السعوديين لم يقتلوا هؤلاء الوافدين إلى بيت الله الحرام إلا بعد أن ساروا بمحاذاتهم مسافة معينة وتأكدوا من أنهم لم يكونوا يحملون أي سلاح .

مجزرة الحجاج الإيرانيين :

ارتكبت هذه المجزرة المروّعة سنة ١٤٠٨هـ/١٩٨٦ كما أشرنا فراح ضحيتها ٣٢٩ شهيداً ما بين رجل وامرأة ، ما عدا الجرحى.

فقد كان الإيرانيون يقومون بمسيرة البراءة من المشركين في صفوف منظمة ويطلقون الهتافات ضد أعداء المسلمين من شرقيين وغربيين ويدعون المسلمين للوحدة في مواجهة هؤلاء الأعداء قائلين : « الموت لأمريكا ، الموت لروسيا ، الموت لإسرائيل ، أيها المسلمون اتحدوا».

ولما انتهت المسيرة واتجهت الجموع صوب الحرم للزيارة والطواف ، إذا بالقوات السعودية تفاجئهم بإطلاق النار الغزير من الرشاشات والبنادق دون تمييز . فكان هذا الهجوم عدواناً سافراً دون أي مبرر اللهم إلا الانتقام لأعداء المسلمين والإصرار على منع التعرض لهم ولو بالكلام.

كشف بالمجازر التي ارتكبها آل سعود الوهابيين ضد أبناء الجـزيرة العربية :

أورد السيد ناصر السعيد ، وهو من أبناء منطقة حائل ، وكان يترأس « اتحاد شعب الجزيرة العربية» الجدول التالي عن القتلى الذين سقطوا بسيوف ورصاص ومدافع وقذائف آل سعود في مناطق مختلفة من الجزيرة العربية من تاريخ ثورة ابن رفادة سنة ١٩٢٩[٤١] .

١ ـ في مسجد الشعيبة أثنـاء الاستعداد لاحتـلال حائـل ، وفي ليلة ٢٧ رمضان عام ١٩٢٢ قتل آل سعود في مسجد القرية ٣٧٩٠ مسلماً .

٢ ـ في منطقة الجليدة بالقرب من حائل قتل آل سعود (٤١٠) مسلمين من عشيرة أسلم من قبيلة شمر .

٣ ـ في بيضار نثيل قتل آل سعود من قبيلة عنيزة ، التي يزعمون الانتماء اليها ، (٥١٣) مسلماً .

٤ ـ في أم الغراميل شرقي حائل قتل آل سعود (٤١١) مسلماً .

٥ ـ في منطقة الغوطة بحائل قتـل آل سعود «هبقـان السليطي» وهـو من الوهابيين في (٣٧٥) مسلماً من جماعته .

٦ ـ في تربة قتل الوهابيون جيش الشـريف حسين والبالـغ (٤٠,٠٠٠) مسلماً ولم ينج الا خمسمائة .

٧ ـ في الـطائف والحويـة قتل آل سـعـود ١٥٠٠٠ من الرجـال والنسـاء والأطفال والشيوخ المسلمين.

٨ ـ في حصار الطائف قتل آل سعود من جيش الملك علي ومن أهل جدة (٢٨٠٠) مسلماً.

٩ ـ في مناطق القصيم قتل السعوديون غدراً ما يزيد عن (٢٧٠٠٠) مسلماً.

١٠ ـ في معـارك النيصية والـوقيد والجثامية وغيـرهـا قتـل السعـوديـون (١٠٠٠٠)مسلم من قبيلة شمَّر وأهل حائل.

١١ ـ اغتال عبد العزيز عدداً من أبناء الجوف لم يحدد.

١٢ ـ في مناطق تهامة وعسير قتل آل سعود (٥٠٠٠٠) مسلم .

١٣ ـ في وادي تنومة قتل الوهابيون ١٢٠٠ مسلم يماني قادمين إلى الحج .

١٤ ـ في وادي بني مالك في منطقة الطائف قتل آل سعود (٧٠٠٠) مسلم وهدموا سبعين قرية انتقاماً .

١٥ ـ في جبل القهر جنوب الحجاز قتل آل سعود سنة ١٩٥٩ (١٥٢٠) مسلماً من قبائل الريث .

١٦ ـ في معركة الجهراء التي كان وراءها آل سعود قتل ١٠٠٠ مسلم من أهل الكويت والجزيرة العربية .

١٧ ـ في مذابح السبلة وأم الرضمة وغيرها قتل السعوديون (٥٠٠٠) مسلم من جيش الإخوان الذي كان حقق لهم انتصاراتهم ، وهم ينتمون إلى قبائل مطير وعتيبة وغيرها .

١٨ ـ من قبائل العجمان قتل السعوديون (٣٠٠٠) مسلم من العجمان ومنهم نايف وضيدان بن حثلين .

١٩ ـ إثر ثورة ابن رفادة قتل آل سعود أكثر من (٧٠٠٠) مسلم من قبائل الحويطات وبني عطية وجهينة وبلي ، وشردوا الآلاف منهم .

ويختم السعيد كشفه بالقول إن السعوديين ارتكبوا من المجازر ما راح ضحيتها أكثر من مليوني عربي ومسلم من الحضر والبادية ، والظاهر أن هذا الرقم يُضمِنُه السعيد كل أولئك الذين قتلوا وجرحوا وشردوا إلى خارج الجزيرة العربية من القبائل والعشائر والأفراد . .

وبعد كل هذا أليس لنا أن نسأل عما إذا كانت هذه المجازر تشكل تنفيذاً للخطة التي وردت في كتاب مذكرات المستر همفر أم لا حول مسألة قتال المسلمين وسبيهم واستعبادهم ، أم هي تحقيق لطموحات بعض القادة السعوديين في السيطرة على الجزيرة العربية وشعبها . والجواب متروك لفطنة القارىء الكريم وحده .

ملحق : الفتوى الوهابية ضد جيش الإخوان(٤٢) :

من محمد بن عبد اللطيف وسعد بن عتيق وسليمان بن سمحان وعبد الله بن عبد العزيز العتيقي ، وعبد الله العنقري وعمر بن سليم وصالح بن عبد العزيز وعبد الله بن حسن وعبد الله بن عبد اللطيف وعمر بن عبد اللطيف ومحمد بن إبراهيم ومحمد بن عبد الله وعبد الله بن زاخم ومحمد بن عثمان الشاوي وعبد العزيز العنقري إلى من يراه من إخواننا المسلمين سلك الله بنا وبهم الطريق المستقيم وجنبنا وإياهم طريق أهل الجحيم آمين. سلام عليكم ورحمة الله وبركاته . أما بعد ، فقد ورد علينا من الإمام عبد العزيز ـ سلمه الله تعالى ـ سؤال عن بعض (الإخوان) عن مسائل يطلب منا الجواب عنها فأجبناه بما نصه :

أما مسألة اقتناء عبد العزيز وأولاده ورجال الدين للسيارات والجواري وغيرها دون غيرهم فهو أمر حادث في آخر الزمان ، ولا نعلم حقيقته ولا رأينا فيه كلاماً لأحد من أهل العلم فتعمقنا في مسألة الإفتاء فيه ولا نقول على الله ورسوله بغير علم والجزم بالإجابة والتحريم يحتاج إلى الوقوف على حقيقته وأما مسجد حمزة وأبي رشيد فأفتينا الإمام ـ وفقه الله ـ بهدمها على الفور . . . وأما القوانين فإن كان موجوداً منها شيء في الحجاز فيزال فوراً ، ولا يحكم إلا بالشرع المطهر . وأما دخول الحاج المصري بالسلاح والقوة في بلد الله الحرام ، فأفتينا الإمام بمنعهم من الدخول بالسلاح والقوة ومن إظهار الشرك وجيمع المنكرات . وأما المحمل المصري والشامي فأفتينا الإمام بمنعهم من دخول المسجد الحرام ومن تمكين أحد أن يتمسح به أو يقبله وما يفعله أهله من الملاهي والمنكرات يمنعون منها . وأما الشيعة فأفتينا الإمام أن يلزمهم البيعة على الإسلام ويمنعهم من إظهار شعائر دينهم الباطل . وعلى الإمام أيضاً أن يلزم نائبه على الإحساء أن يحضرهم عند الشيخ ابن بشر ويبايعوه على دين الله ورسوله وترك دعاء الصالحين من أهل البيت وغيرهم وترك سائر البدع من اجتماعهم على مآتمهم وغيرها مما يقيمون به شعائر مذهبهم الباطل ، ويُمنعون من زيارة المشاهد ، وكذلك يُلزمون بالاجتماع على الصلوات الخمس هم وغيرهم في المساجد ، ويرتب فيهم أئمة ومؤذنون ونواب من أهل السنة ويلزمون بتعليم ثلاثة الأصول وكذلك تهدم محالهم المبنية لإنامة البدع في المساجد وغيرها ، ومن أبى قبول ما ذكر ينفى من بلاد

المسلمين . وأما الشيعة من أهل القطيف ، فيلزم الإمام ـ أيَّده الله ـ الشيخ ابن بكر أن يسافر إليهم ويُلزمهم بما ذكرناه . وأما البوادي والقرى التي دخلت في ولاية المسلمين فأفتينا الإمام أن يبعث لهم دعاة ومعلمين وإلزامهم شرائع المسلمين . وأما رافضة العراق الذين انتشروا وخالطوا بادية المسلمين فأفتينا الإمام بكفهم عن الدخول في مراتع المسلمين وأراضيهم ، وأما المكوس فأفتينا لعبد العزيز أنها من المحرمات الظاهرة ، فإن تركها فهو الواجب عليه وإن امتنع فلا يجوز شق عصا طاعة المسلمين عليه والخروج عن طاعته من أجلها . وأما ضريبة الجهاد فهي محولة إلى نظر الإمام عبد العزيز . وهو أعلم بما هو أصلح للإسلام والمسلمين ونسأل الله لنا وله ولهم التوفيق والهداية ٨ شعبان ١٣٤٥هـ .

***

هوامش الفصل الثاني

(١) ناصر السعيد ، مذكور سابقاً ص ٢١ .
(٢) لمع الشهاب ص ٧٢.
(٣) نفس المرجع ص ٧٠ ، صراع الأمراء ص ٢٣ ، ٢٦ .
(٤) نفس المرجع ص ٧٤ و٧٥ .
(٥) نفس المرجع ص ٧٢ .
(٦) صراع الأمراء ص ٢٨ و٢٩ .
(٧) لمع الشهاب ، ص ٧٨ وما بعدها ، صراع الأمراء ص ٣٢.
(٨) لمع الشهاب ، ص ٨٩.
(٩) صراع الأمراء ص ٣٠.
(١٠) نفس المرجع ص ٣٣ .
(١١) نفس المرجع ص ٣٥ وكذلك لمع الشهاب ص ٧٨ ، ٧٩ .
(١٢) لمع الشهاب ص ٨٠ .
(١٣) صراع الأمراء ص ٣٦ .
(١٤) لمع الشهاب ص ٨٩ .
(١٥) نفس المصدر .
(١٦) نفس المصدر ، ص ٩٠ .
(١٧) محمد حامد الفقي اثر الدعوة الوهابية ص ٨٤ .
(١٨) لمع الشهاب ص ٩٠ .
(١٩) الأمين مذكور سابقاً عن أحمد زيني دحلان ، ص ١٠ .
(٢٠) الأمين عن زيني دحلان ص ١٨ .
(٢١) الأمين ص ٢٧ .
(٢٢) الأمين عن الجبرتي ص ٣٤ و٣٥ .
(٢٣) السعيد ص ٣٤٠ .
(٢٤) نفس المصدر ص ٣٤٥ .
(٢٥) الشيخ محمد جواد مغنية ، هذي هي الوهابية دار الجواد ، بيروت ط٢ ، ١٩٨٢ .
(٢٦) أمراء وغزاة ص ١٧٥ .
(٢٧) راجع ناصر السعيد مذكور سابقاً ص ٦٥ وكذلك محمد حامد الفقي مذكور سابقاً ص ١٠١ .
(٢٨) ناصر السعيد ص ١٣٩ .
(٢٩) ناصر السعيد مذكور سابقاً ص ١٦٤ .
(٣٠) نفس المرجع جـ ٧٨ .
(٣١) ناصر السعيد ص ٨٧ .

(٣٢) ناصر السعيد مذكور سابقاً ص ١٩٣ .
(٣٣) ناصر السعيد مذكور سابقاً ص ١٨٠ .
(٣٤) نفس المرجع ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣ .
(٣٥) نفس المرجع ص ٣٠٥ وما بعدها .
(٣٦) نفس المصدر ص ٤٢٠ .
(٣٧) نفس المصدر ص ٤٢١ .
(٣٨) نفس المرجع ص ٧٧٨ .
(٣٩) منشورات دار صوت الطليعة ص ١٥٦ .
(٤٠) نفس المصدر .
(٤١) نفس المصدر ص ٤٦٠ وما بعدها .
(٤٢) ناصر السعيد، مذكور سابقاً ص ٣٠٩ ، ٣١٠ .

الفصل الثالث

موقف الوهابية السعودية من الغرب

تميز موقف الوهابية المكفرة للمسلمين في الشرق ، بالارتباط بالغرب ، ببريطانيا ثم بأميركا ، وذلك منذ بدايات نشأتها حتى اليوم ، بحيث أنهم أضحوا ، لا سيما في القرن الحالي يعطون الأولوية لمصالح هاتين الدولتين ، ليس فقط على مصالح العرب والمسلمين ، بل وحتى على مصالح المملكة نفسها كما سنرى . وقد قاموا خدمة لهذه المصالح ، ليس فقط بإطلاق يد الأنكلو ساكسون في ثروات البلاد التي استولوا عليها بالقوة والقهر ووسط بحر من الدماء ، بل هم بلغت نشاطاتهم المناطق المجاورة في المرحلة الأولى أي العراق والأردن ، لتنطلق في ما بعد إلى المدى العالمي فتعمد إلى تمويل عمليات العدوان الأميركية في القارة الجديدة وفي غيرها من بلدان العالم الثالث ، حتى بلغ بهم الأمر استضافة أكثر من مليون جندي حملتهم الولايات المتحدة إلى المملكة لتدك العراق وتدمر بنيته التحتية وتحتل أراضيه بالقوة تحت حجة إخراج جيش صدام حسين من الكويت ، فكان ما ارتكبه حكام آل سعود ، وهم الذين يتحملون وزر كل ما ارتكبته أميركا ، أفظع وأشنع بما لا يقاس ، مما ارتكبه صدام حسين.

على أن الارتباط السعودي الوهابي بالغرب ، إذا كان يعود ظاهراً إلى أواخر القرن الثامن عشر عندما بدأ قادة الحركة الجديدة يتماسون مع إمارات الخليج الخاضعة لحماية أو تهديد الأساطيل البريطانية ، فإن هذا الارتباط لا بد أن تكون سبقته عمليات تمهيد واستطلاع واستكشاف وتخطيط على يد عملاء المخابرات التابعين لوزارة المستعمرات.

وإذا كانت مذكرات المستر همفر تقدم لنا نموذجاً مما حصل فعلاً أو تصوراً لما يمكن أن يكون قد حصل فإننا نستطيع الترجيح أن نفاذ النشاط

البريطاني إلى قلب الجزيرة العربية قد بدأ قبل النشاط الظاهر بفترة معقولة .

على أن ما بين أيدينا عن النشاط الإنكليزي لا يقتصر على المذكرات المشار إليها ، بل هو يتعداه ليرسم لنا حركة ذهاب وإياب قام بها الموظفون من «رينو» سنة ١٧٩٩ إلى «سادلر» سنة ١٨١٨ وصولاً إلى الكابتن شكسبير فإلى الكولونيل فيلبي ، عدا عمن سبقهم أو عاصرهم من العملاء السريين الذين يمكن أن يكونوا دخلوا على شكل عبيد أرقاء ، أو تجار مسلمين أو تحت أي صفة أخرى . لأن بريطانيا التي كانت تجوب أساطيلها التجارية والحربية الشواطىء العربية من الهند وإليها منذ ما قبل تأسيس « شركة الهند الشرقية » سنة ١٦١٥ ، لم تكن لتترك الموانىء التي سيطرت عليها والتابعة لأمراء من رؤساء العشائر الضعاف نسبياً تحت رحمة تهديد الداخل وما يمكن أن يخبئه من مفاجآت .

على أن ما يلفت النظر في الموقف الوهابي الذي يعتبر الجهاد ضد المسلمين واجباً دينياً ، أنه لا يرى الجهاد ضد الإنكليز كذلك لا مبدئياً ولا عملياً كما سنرى . فقد كان الوهابيون ، إذا تجرأوا مرة على شن الغارات على المسلمين الخاضعين لوصاية بريطانيا وحمايتها ، والتي كانت سلطاتها في الهند تعتبرهم من رعاياها ، كانت قياداتهم حريصة على أن توضح للإنكليز أنها لا تُكِنُّ لهم أي مشاعر عدائية ، بل على العكس فإن القادة السعوديون ما انفكوا منذ أواسط القرن الماضي بشكل خاص يؤكدون الصداقة التي ربطت أجدادهم بالإنكليز دون أن تعوزهم الفتاوى المسوغة لذلك مما يصدره رجال دينهم الوهابيون .

وفيما يلي سنلقي نظرة على العلاقات الوهابية البريطانية منذ قيام الدولة السعودية الأولى ثم نحاول تسليط ضوء على العلاقات الوهابية الأميركية التي نشأت فيما بعد ، لافتين العناية إلى أننا لا نؤرخ لهذه الأمور بقدر ما نبرز منها ما يهمنا ويؤكد لنا حقيقة الموقف الوهابي على هذا الصعيد ، وبالشكل الذي يسمح لنا بتقديم الصورة البسيطة ولكن المتكاملة لحقيقة المذهب الذي حمله ابن عبد الوهاب لأبناء الجزيرة العربية خاصة ، وللعرب والمسلمين عامة .

الاتصالات الرسمية البريطانية بالسعوديين في دولتهم الأولى :

في سنة ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م وقع خلاف بين ممثلي « شركة الهند الشرقية » وبين السلطات العثمانية في البصرة فنقلت الشركة ممثليها من تلك المدينة إلى الكويت . ومن أجل ضمان طريق بريدها ، أرسل مانتسي (Mantesy) وكيل الشركة هناك سنة ١٢١٣هـ/أوائل سنة ١٧٩٩م مساعده رينو إلى الدرعية ليفاوض إمامها ويتعهد له بحسن المعاملة(١) .

وكانت بريطانيا قد توصلت إلى عقد معاهدة مع سلطنة مسقط قبل ذلك بأشهر قليلة (في ١٢ تشرين الأول ١٧٩٨م/أول جمادى الأولى ١٢١٣هـ).
ولكن الإدارة البريطانية لم تكن غائبة في الفترة السابقة بدليل التقرير المفصل الوافي الذي أعده السير ستارفورد جونز وقدمه إلى الحكومة البريطانية في الهند سنة ١٢١٣ والذي لا بد أنه اعتمد على استقصاءات سبقت هذا التاريخ .

والتقرير هذا هو عبارة عن وثيقة تتناول سيرة محمد بن عبد الوهاب حتى رجوعه إلى الدرعية وزواجه من جوهرة بنت عبد الله بن معمر ، واتفاقه مع محمد بن سعود . ويتناول فلسفة الدعوة كما استمدها جونز من بعض المصادر المحلية ، فيذكر : « أن الدين الذي يدعوان (ابن عبد الوهاب وابن سعود) إليه ، هو الدين الإسلامي وذلك اتباعاً لظاهر القرآن » ثم يصف التقرير أن مبادىء الدعوة تقوم « على التوحيد الذي يعني أن لا آله إلا الله لا شريك له ولا نظير ، وأن محمداً رسول الله وأن العباد لا يملكون للخلق نفعاً ولا ضراً وأن الاتجاه بالعبادة لغير الله كفر والتوسل بالأنبياء والصالحين شرك وأن المسلم الذي ينحرف عن جادة تعاليم القرآن يصبح مثله مثل النصارى واليهود ولهذا وجب جهاده . . . » ثم يقول التقرير : « لايصح الحلف بغير الله». كما يشير جونز إلى أن الوهابيين قد هدّموا الأضرحة في الأماكن التي آلت إليهم ، فخير القبور عندهم الدوارس(٢) .

والسؤال الذي يمكن أن يثور هنا هو : متى بدأ اهتمام جونز بالوهابية ؟ ومن هي الأوساط المحلية التي استقى منها ؟ .

ومهما يكن من أمر فقد قام «رينو» بمهمته ووضع في سنة ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م تقريراً رفعه إلى رؤسائه . ولكن البعض يشير إلى غيوم ما لبثت أن ظهرت في أفق العلاقة بين بريطانيا والوهابيين ، ولا تمدنا المعطيات التاريخية المتوفرة بحقيقة الأسباب ، ولكن يبدو أن بريطانيا أرادت أن تحجّم الوهابيين عندما بلغوا أوج قوتهم كي لا يتطلعوا إلى ممارسة دور مستقل أو يتعاونوا مع العثمانيين . ولكن هذا الأمر لم يدفع إلى المجابهة لأسباب ليس أقلها الخطر الفرنسي الذي أصبح داهماً بعد احتلال نابوليون لمصر ، الأمر الذي دفع بريطانيا إلى تحسين علاقاتها مع حكام الخليج والجزيرة العربية ، فأوفدت حكومتها جون مالكوم في ٢٨ آب سنة ١٨٠٧م/١٢٢٢هـ إلى المنطقة للاتصال بشاه فارس وباشا بغداد . فإذا فشلت اتصالاته كان عليه أن يتصل بسعود بن عبد العزيز.

ولعل ربط الاتصال بالأمير السعودي بفشل المهمة عائد إلى حرص الإنكليز على تلافي إغضاب السلطنة العثمانية ما دام ذلك ممكناً وتسمح به المصالح البريطانية في المنطقة . أما الهدف من هذا الاتصال المحتمل فكان حثه على « التصدي لأي تحرك فرنسي قادم من البحر الأبيض إلى دروب الهند »[٣] .

فهل كانت بريطانيا تفكر «بِحَثّ الأمير» لو لم تكن العلاقات جيدة وترجع إلى الفترة السابقة على الأقل .

ثم تكثفت اتصالات الإنكليز بالسعوديين ، بعد أن ساءت العلاقات بينهم وبين سعيد سلطان مسقط حيث أرسل «منتو» (Minto) إلى الوكيل «ستون» أن يحاول الاتصال بالسعوديين وينقل إليهم رغبة الهند البريطانية المخلصة في مدِّ يد الصداقة وأن البريطانيين لم يقصدوا من حملتهم (إلى عمان لدفع الخطر الوهابي عنها) سوى ضمان حرية التجارة في البحار بعامة وفي الخليج بخاصة ، كما كان على الوكيل أن يوضح للسعوديين أن مساندة بريطانيا لإمام مسقط في وجه تعدي القواسم (العاملين تحت راية الوهابيين) تنطلق من مفهوم حرمة السطو على ممتلكات الغير[٤] .

وجاء في الجواب من سعود إلى سميث أن سعيداً سلطان مسقط قد « زجّ بالسياسة البريطانية في ما لا قبل لها به ، وأعلن أنه سيضرب عن كل هذا صفحاً وسيمد من حبل الصبر (!) وأنه سيحترم وأتباعه التجارة البريطانية في الموانىء

التابعة له ولكنه ينتظر من البريطانيين المعاملة بالمثل»[٥] .

هذا وقد بلغ من رغبة البريطانيين في الإبقاء على العلاقات الحسنة مع السعوديين أنه لما شنّت السفن البريطانية حملتها على رأس الخيمة لتدمير أسطول القواسم ، وبعد إنفاذ تلك المهمة ، تدافع البريطانيون منسحبين من رأس الخيمة حال سماعهم بخبر حملة سعودية بقيادة المطيري كانت في طريقها لإنقاذ المدينة[٦] .

ولما تحولت الحملة البريطانية إلى مدينة «شيناص» وخاضت حرباً قاسية ضد أهلها ، وحين عرف قائدها البريطاني أن مطلق المطيري أصبح على مشارف شيناص ، أصدر أوامره لجنده بالانسحاب حتى لا يحتكوا بالسعوديين بطريق مباشر وذلك تنفيذاً للأوامر التي تلقاها من بومباي[٧] . كما أرسل إلى القائد المطيري يطلب منه الضغط على رحمة بن جابر في خور حسان كي يمنع «الجلاهمة» وأتباعه الآخرين من عرب البحرين من القرصنة والتعرض للسفن البريطانية .

وقد انتهت الحملة البريطانية المذكورة باتفاق سلام عقد بين فيصل المطيري القائد السعودي والكولونيل سميث سنة ١٢٢٥هـ/ ١٨١٠م[٨] .
أما عندما طلب إمام عمان المساعدة في وجه السعوديين على أساس اتفاق سنة ١٧٩٨ بينه وبين الإنكليز ، قررت بومباي أن تكتب لإمام عمان بشكل صريح وواضح لتفهمه بأن قوة الشركة (شركة الهند الشرقية) ليست طرفاً في النزاع الدائر في المنطقة ، كما أن الشركة لا تعتبر نفسها في حرب مع السعوديين[٩] .

كما أفهمت بريطانيا سعوداً بأنها لا تعارض حملاته ضد المسلمين الذين خرجوا برأيه من أصول الدين وابتعدوا عن القرآن وجافوا السنة .
وعلى الأثر « عقد علماء الدرعية اجتماعاً قرروا فيه أن الإنكليز على دين النصارى ، وهم أهل كتاب وأن جهادهم غير واجب ، وتلقفت السلطة السياسية في الدرعية رأي العلماء لتبني سياستها الجديدة تجاه الشركة »[١٠] .

ولكن عدم وجوب الجهاد ضد النصارى لم يكن يعني كما تفهمته السلطات البريطانية نفسها ، توقفه ضد المسلمين ، وسوف يأتي في رسالة من عبد الله بن

سعود إلى المقيم البريطاني في البصرة سنة ١٨١٧ : « كيف تطلب منا أن نَردَّ ما غنمناه من أعدائنا من أهل مصر وجدة واليمن وشحر والمكلا ومسقط والبصرة وأهل فارس التابعين لسعيد بن سلطان . إنهم كلهم أعداؤنا فسنقتلهم حيث ثقفناهم تنفيذاً لأوامر الله فيهم ، الله أكبر(١١) ». ويشرح سعود موقفه من المسلمين ومن الإنكليز في كتاب وجهه إلى حكومة الهند البريطانية حوالي سنة ١٨١٠ فيطمئنها إلى أنه لن يتعرض لمصالحها ، بل كل همه هو قتال المسلمين . يقول الكتاب : « إن سبب الخصومات المستمرة بيني وبين من يسمون أنفسهم مسلمين انحرافهم عن كتاب الخالق ورفضهم الامتثال لنبيهم محمد ، فلست أشن حرباً على من ينتمون إلى فرقة أخرى ولست أتدخل في عملياتهم المعادية ولا أساعدهم ضد أحد . . . وفي هذه الظروف رأيت من الضروري أن أبلغكم بأني لن أدنو من شواطئكم وأني منعت أتباع عقيدة محمد وسفنهم من أن يقوموا بأي تنكيل بسفنكم(٢١) .

وفي نهاية هذه الفترة كان الخطر المصري قد أصبح داهماً ، الأمر الذي اضطر السعوديين إلى أن يوثقوا العلاقات أكثر مع المقيمية البريطانية في بوشهر وكذلك مع الفرس .

أما بريطانيا فإنها لم تبدِ في مواجهة جيش محمد علي باشا حماساً غير عادي ، ذلك أنها كانت ما تزال حريصة على علاقاتها الحسنة مع السلطنة العثمانية التي كلفت محمد علي بهذه المهمة . إلا أن هذا لا يعني أنها بقيت على الحياد بشكل مطلق بل هي تحركت لمنع إبراهيم باشا من تركيز وجوده على سواحل الخليج .

إلا أن حكومة صاحب الجلالة لم تُدر ظهرها للإمام سعود مع بوادر الحملة المصرية ، بل حرصت على طمأنته ما أمكن حيث أرسل إيفان نيبان حاكم بومباي رسالة رقيقة إلى الإمام بتاريخ ١٨ شباط ١٨١٤ يقول فيها إن الصداقة التي تربط بينهما متصلة الوشائج وأنه قد قام من جانبه قبل وصول السفارات (الوفود) السعودية بإصدار تعليمات دائمة للمقيم بروس «لكي يكون دائماً على اتصال بسمو سعود بن عبد العزيز لتوطيد علاقات الصداقة التي ستعود بالنفع المتبادل على الدولتين وما جاورهما» . كما عبر نيبان عن سعادته بالرغبة السعودية بتوثيق

العلاقات ، وأنهى بقوله : « إنّي أستطيع أن أقطع واثقاً من أننا سنصل الى تحقيق الغايات المتبادلة بالسرعة المنشودة»[١٣] .

أما عبد الله بن سعود الذي خلف أباه فقد كان حريصاً على تأكيد الصداقة مع الإنكليز على الرغم من سعي الأتراك لتعكير علاقاته معهم . فقد جاء في كتاب يعاتب فيه المقيم البريطاني في البصرة أن العثمانيين « يريدون أن يدقوا إسفيناً في علاقاتنا ويباعدوا بيننا » ويضيف ، « لقد أثبتنا لكم سلفاً بأننا نحترم كل المنتسبين إليكم ولم ينالكم أي أذى ، مهما كان طفيفاً ، من أتباعنا ، وعليه فإنه يتحتم عليكم في مقابل ذلك أن لا تصدروا تصاريح إبحار لأعدائنا وتدخلوهم في زمرة التابعين لكم »[١٤] .

ثم اجتهد عبد الله في العمل لعقد اتفاق مع الإنكليز ولكن المصلحة البريطانية كانت تقضي بعدم التضحية بالعلاقات السياسية والتجارية مع السلطنة العثمانية .

ولكن المسايرة البريطانية للعثمانيين لم تبلغ حد التخلي عن السعوديين ، فعندما استنجد عبد الله بن أحمد شيخ البحرين بسلطات الخليج البريطانية ضد تركي بن عبد الله بن سعود لم يجد استجابة رغم حرص بريطانيا على البحرين .

وفي تشرين الثاني ١٨٢٥/١٢٤١ عندما طلب سلطان بن صقر شيخ القواسم في الشارقة من المقيم البريطاني أن تقدم له الحكومة البريطانية دعماً في مواجهة التهديد السعودي ، أجابه المقيم بأنه لا شأن لبريطانيا بخلافات البر وأن عليه أن يسوي أموره مع السعوديين بما يوافق مصالحه[١٥] .

وفي ٢٥ جمادى الأولى ١٨٣١/١٢٤٧ وجه تركي إلى حاكم بومباي رسالة جاء فيها أنه يرغب في تجديد أواصر الصداقة واستئناف شروط الاتفاق الذي ربط بين البريطانيين وبين الإمام سعود من قبل . وقد ردت سلطان بومباي رداً يتسم بروح الود والصداقة حيث جاء في رسالة الحاكم الجوابية إلى تركي : « سررت بهذه الرسالة لأنها مبادرة من صديق إلى صديق . إن ما تعرضه علينا من صداقة هو أمل متبادل سيظل قوياً وثابتاً ، ونأمل من جانبنا أن لا يحدث ما يكدره»[١٦] .

وفي أواخر سنة ١٨٣٣/١٢٤٩ عاد سعيد فطلب المساعدة من المقيم البريطاني بليني (Blane) عندما طالبه السعوديون بدفع الزكاة. فنصحه بليني، بأمر من بومباي ، أن يسوي أموره مع السعوديين وأن ينتهج خطاً تصالحياً مع القائد السعودي ، فاضطر إمام عمان إلى المصالحة وإلى الوعد بدفع زكاة تبلغ خمسة آلاف كرونة[١٧].

وكان موقف بعض الموظفين البريطانيين المؤثرين هو أن لا يمانعوا في احتلال السعوديين لعمان ، لأن ذلك لا ضرر فيه «بل يمكن أن يساعد ذلك في حماية تجارة بريطانيا في المنطقة نتيجة للتجانس الذي سيفرضه السعوديون في سياستها»[١٨]. ورأى تريفليان سكريتير حكومة كلكوتا إنه إذا استطاع السعوديون ضبط الأمن في المنطقة فلا مانع لدى بريطانيا حتى ولو استولوا على ميناء مسقط . أما إذا استطاع إمام مسقط أن يتحلل من ارتباطاته مع الوهابيين بسبب معونة الإنكليز له ، فإن الاضطرابات ستلف « مناطق شاسعة» لا يستطيع الإنكليز التعامل معها بسبب الحر الشديد وقسوة الطبيعة في تلك المناطق.

وهكذا تميزت العلاقات الإنكليزية السعودية في هذه المرحلة بالتفاهم حتى في أصعب الحالات ، حيث كانت القوات البريطانية تتلافى الاصطدام بالحملات السعودية المتوجهة إلى هذه البقعة أو تلك من بقاع الخليج . فهل كان هذا نتيجة لاتفاق سري أم هو محض مصادفة ، وهل ما جاء في مذكرات المستر همفر هو الجواب؟

بريطانيا والدولة السعودية الثانية :

تميزت هذه المرحلة بتذبذب القيادات السعودية بين الإنكليز والأتراك بعد الحملة المصرية على الجزيرة العربية فكانت تحاول أن تقيم في علاقاتها نوعاً من التوازن . غير أن رحيل القوات المصرية أعطاها حرية أكبر في العمل فراحت تخطب ود الإنكليز محاولة الإرتماء في أحضانهم طلباً لمساعدتهم في استعادة الملك القديم وتوسيعه.

ولكن السياسة البريطانية كانت تحاول الجمع بين المتناقضين ، بين إبقاء

السعوديين تحت نفوذها وهم الذين يمتلكون جغرافياً ، حرية في المناورة ، بسبب طبيعة الأرض الصحراوية في عمق الجزيرة والتي لا تلائم العمليات العسكرية للإنكليز الذين كانوا يتحاشون القتال البري من جهة ، وبين اخضاع أمراء وشيوخ السواحل الذين أخضعتهم لنفوذها وبسطت حمايتها عليهم من جهة أخرى . ولهذا فهي بعد أن أوهمت حكام الساحل بأنهم حلفاؤها وأن حمايتهم من أهم واجباتها ، كانت لا تتحرك لرد الخطر عنهم إلا في حالات الضرورة القصوى ، ولكن دون أن يصل الأمر الى الاشتباك المباشر مع الأمير السعودي ، اذ كانت عملياتها تقتصر على تأديب بعض رجاله أو حلفائه.

ولعل أهم ما اتضح في ممارسات الإنكليز الديبلوماسية في هذه المرحلة ، هو الفصل الكامل بين الخطاب والممارسة ، فهم كانوا يعلنون حمايتهم لحكام الخليج والتزامهم بالدفاع عنهم ولكن دون أن يلتزموا بهذا الأمر التزاماً مطلقاً . وهم كانوا يعتبرون الهنود من رعاياهم ولكنهم كانوا يقرّعون موظفيهم الذين يزجون القوات في عمليات قتالية للدفاع عن مصالحهم كما لو كان الأمر يتعلق بالرعايا الإنكليز الحقيقيين.

أما نقطة البداية الرئيسية التي انطلقت منها بريطانيا على الصعيد الداخلي للأسرة السعودية فقد كانت الضغط لتعيين فيصل بن تركي أميراً دون غيره من أفراد الأسرة ، وذلك لأنه هو الأكثر مضمونية والأقل صلابة في مواجهتها فانتقلت الإمارة من فرع عبد العزيز بن محمد بن سعود الى فرع عبد الله بن محمد بن سعود ، بعدما تبين أن المطالب بالإمارة من الفرع الأول وهو خالد بن سعود بن عبد العزيز يوالي السلطة العثمانية ولا يقيم الوزن الكافي للإنكليز.

ففي حزيران سنة ١٨٤١م/١٢٥٧هـ وصلت إلى المقيمية البريطانية في الخليج أخبار تفيد بأن الأمير خالد بن سعود قد اتصل بالباب العالي وقدم الهدايا وفروض الطاعة والولاء وأن الباب العالي ردّ بدوره بفرمان يعيّن بموجبه خالداً والياً على نجد . كما اتصل خالد في تشرين الثاني من نفس السنة بالبريطانيين في الخليج معبّراً عن رغبته في تحسين العلاقات مع بريطانيا وتجديد علاقات الصداقة التي ربطت بين أبيه وحكومة صاحب الجلالة.

وفي سنة ١٢٥٩/١٨٤٣ عيّن فيصل بن تركي بضغط من بريطانيا حاكماً على الرياض لأنه كان يدرك أهمية وقوة بريطانيا بينما يجهلها الأمير عبد الله بن ثنيان الذي كان عين على الرياض . وكان الموقف البريطاني يتّسم حياله بشيء من التحفظ ، لأنه كان يعتبر من مؤيدي الدولة العثمانية .

وكانت حكومة بومباي قد استشارت الحكومة العليا في الهند في أيلول ١٨٤٣ حول فيصل مشيرة الى غزواته ومعاركه ، فأجابت الحكومة العليا المذكورة أن على حكومة بومباي «أن تلتزم بسياسة عدم التدخل طالما اقتصرت جهود فيصل على تثبيت حكمه في داخل الجزيرة العربية وعلى أملاكه التي كانت له سابقاً»(١٩) .

ولم يكن هذا يعني تأييداً كاملاً لفيصل وللسعوديين ، بل تفضيلاً لشخص على شخص ، لأن هؤلاء الأمراء على علاقة بالباب العالي ، ومن هنا فإذا ما سعوا إلى إعادة نفوذ العثمانيين إلى أي منطقة من تلك التي تعتبرها بريطانيا تابعة لها أو ضرورية لمصالحها ، فإن حكومة صاحب الجلالة تتحرك للتصدي لذلك .

وبعد انحسار النفوذ المصري في الجزيرة العربية . كان فيصل بن تركي قد تحرك فأرسل منذ تموز ١٨٤٣م/١٢٥٩هـ الى شيوخ الساحل العماني يهددهم ليعودوا إلى الطاعة ، فعمد شيوخ البريمي ودبي للاتصال بالمقيم البريطاني فكان رد المقيم أن ما يحدث في داخل شبه الجزيرة العربية هو أمر لا يعني حكومته البتّة ، فهي كانت تقف في وجه الامتداد المصري و« تعديات محمد علي باشا » أما بعد انسحاب خورشيد من نجد فإنه يرى ما يحدث حالياً نزاعاً بين قبائل المنطقة ، وموقف الحكومة البريطانية المعلن في الخصوص يقضي بعدم التدخل .

ولعل تفسير موقف بريطانيا يكمن في كونها اختارت تعيين فيصل بن تركي لأنها تعتبره ضمانة ، ولئن كانت هناك بعض التحفظات حياله أثناء وجود المصريين فإن هذه التحفظات زالت بعد رحيلهم ، لا سيما وقد وصلت في هذا الوقت إلى المقيمية سفارة سعودية كما رأينا تحمل رغبات الأمير فيصل في إقامة علاقات صداقة مع البريطانيين على غرار تلك التي كانت قائمة في عهد أبيه ، وقد رحّب المقيم البريطاني كما رأينا ذلك(٢٠) .

وفي أوائل ١٨٤٥ وصل سعد بن مطلق المطيري إلى البـريمي فدخلت الواحة في طاعة السعوديين دون قتال ثم اتصل المطيري بأمراء مسقط وصحار طالباً إليهم دفع الزكاة . فلما اتصلوا بالمقيم البريـطاني طلباً للدعم كـان رأي المقيم أن يجري المعنيون اتفاقاً مع الأمير السعودي شرط أن لا يكون مذلاً ، وإلا فيمكن التلويح بالقوة البريطانية[٢١].

ولما حاول سعد بن مطلق احتلال مسقط أرسل المقيم البريطاني بوارجه لتجوب المنطقة كما وجه إلى الأمير فيصل كتاباً في ٢٥ حزيران ١٨٤٥/١٢٦١ يحتج فيه على عمليات المطيري العسكرية ويطالبه باسم الصداقة البريطانية أن يردع قائده ، مع تأكيد على ضرورة التفاهم ، وكان رد فيصل أنه إكراماً للحكومة البريطانية سيوقف خططه في مسقط[٢٢] .

هذا، وقد استمرت بريطانيا تتبـع سياسـة الحرص على عـدم الاصطدام المباشر بـالسعوديين مـا دام هؤلاء لا يهددون محميـاتها ومصـالحها . أمـا إذا ما حصل إزعاج للحلفاء الآخرين فيمكن أن يحصل التدخل ولكن على نـطاق ضيق ، أي بالقدر الذي يكفي لصد الخطر.

ففي ١٠ أيار ١٨٥٣م/١٢٦٩هـ أفهمت الحكومة العليا في الهند حكومة بومباي أنه في حالة هجوم السعوديين على البحرين يجب على بومباي أن « تزرع كل العقبات في هذا السبيل وذلك استناداً إلى أن حكـومة جـلالته لن تسمـح باحتلال البحرين من قبل الحكومة التركية أو آخرين يعملون بالنيابة عنها»[٢٣] .

وعنـدما طلب فيصـل من المقيم هنّيل في محـرم سنـة ١٢٧١هـ/أيلول ١٨٥٤م أن تعترف الحكومة البريطانية بأن أرضه تمتد من عمان إلى الكويت ، وطلب منه أن يتدخل لدى محمد بن خليفة لكي يرفع حصاره عن سواحل الإحساء وعن القـطيف ، رد هنّيل بـأن الحكومـة البريـطانية لا تعـرف لفيصل حقـاً في البحرين ، ولكن وعده بأنه سيعمل على دفع محمد بن خليفة إلى الاتفاق معه وأن عليه (أي فيصل) أن يخطو الخطوة الأولى . وذكّر فيصل بهذا الخصوص بوجود اتفاق بين أسلافه والحكومة البريطانية لمئة عام يقضي بضمان أمن المسافرين في البحر والتجارة البرية وأنه يحترم هذا الاتفاق[٢٤].

كما أجاب فيصل على رسائل حول نفس الموضوع وضرورة تعاونه لتوفير الأمن في البحر في السابع من ربيع الثاني ١٢٧٦هـ/٣ تشرين الثاني ١٨٥٩ مؤكداً أنه قد وقّعت بينه وبين البريطانيين اتفاقات عديدة كما ربطت بينه وبين السلطان العثماني عبد الحميد اتفاقات أخرى . وتقضي الاتفاقات المذكورة جميعاً بأن لا يتدخل أحد في شؤون الآخر إلا لاعتبارات خاصة[٢٥] .

هذا وقد عبّر فيصل عن رضوخه لمخططات الإنكليز بمناسبة تمرّد شيخ البحرين « الذي بذل أقصى ما في وسعه للتراسل مع قوى أجنبية » فقد خاطب الأمير السعودي المقيم البريطاني بقوله : « وبما أنكم كتبتم لي سلفاً بأنكم ستتولون تنظيم هذه الأمور وضبطها ، رأيت أن أتصل بكم في هذا الشأن »[٢٦] .

ولما أصرّ محمد بن خليفة أمير البحرين على محاصرة الساحل السعودي واستمر في ذلك سنة كاملة أرسل المقيم في ٢٦ أيار ١٨٦١ سفينة حربية بريطانية إلى البحرين ، ووجه إنذاراً إلى الشيخ ابن خليفة مهلته « حتى مغيب الشمس » وقال له : « أطلب إليكم أن تردوا حالاً كل قواربكم المسلحة التي تجوب المنطقة بين القطيف والدمام [أي الساحل السعودي] ، وإلا فعليكم تحمل تبعات ما تقومون به ، وعليك أن تسلمني قاربين من هذه القوارب عقاباً على ما قمت به »[٢٧] .

ومن جهة أخرى ، فقد كانت هناك مسألة تعكّر المزاج البريطاني ضد فيصل وكانت هذه المسألة تتمثل بوجود محمد بن عبد الله المحسوب على ابن سعود في منطقة الساحل السعودي والذي كان لا يلتزم بالأوامر البريطانية فيتعرض من حين إلى حين للتأديب على أيدي سلطات صاحب الجلالة ، الأمر الذي اتخذته تلك السلطات ذريعة لضرب الدمام . بعد أن تقدم فيلق الخليج البحري للقيام بهذه المهمة مع الالتزام بعدم التورط في معارك حربية في البر[٢٨] ، فقامت السفن البريطانية بضرب المدينة بعد إنذار انتهى في ١٢ تشرين الثاني ١٨٦١ . ولكن الحامية السعودية في القلعة لم ترد واضطر محمد بن خليفة إلى المغادرة[٢٩] .

وعلى الرغم من هذه الحادثة «العابرة» فإن بريطانيا بقيت على موقفها

بضرورة أن تكون هناك معاملة خاصة لابن سعود ولو على حساب محمياتها الأخرى . ففي ذي القعدة ١٢٨١هـ/٢٢ آذار ١٨٦٥ أكدت حكومة الهند على المقيم بيللي أن يلتقي بحاكم مسقط ويفضي إليه بما يعتقد أنه الصواب على حد تقديره . كما كتبت الحكومة إلى السلطان تقول له إنها أرسلت تعليماتها إلى بيللي التي تقضي بوجوب أن يحسن السلطان علاقاته مع السعوديين[٣٠] .

وكان بيللي قد أرسل كتاباً إلى حكومته يخبرها فيه أنه كتب إلى فيصل رسالة رقيقة أشاد فيها بعدالة «الإمام» وسعة حكمته وحنكته وحرصه على استتباب الأمن وسيادة النظام ، وعبّر له عن الأمل في أن يجد منه كل العون لتحقيق الأمن وإقامة السلام[٣١] .

ثم قام بيللي بزيارة إلى الجزيرة العربية مثبتاً ، كما يدَّعي ، « للجمعية الجغرافية الملكية » أنه يستطيع التغلب على الخطر الذي يتمثل بالذهاب إلى « حيث السكان المنغلقون على أنفسهم » ذلك أنه على الضابط أن يذهب إلى أي مكان يدعوه إليه الواجب الحكومي ، وذلك على ما هو واضح ، تكريساً لمفهوم مسؤولية الرجل الأبيض في تمدين العالم[٣٢] ، لا سيما وقد سبقه بالغريف الفرنسي مبعوثاً من أمبراطور فرنسا تمشياً مع سياسة نابوليون الثالث الذي سعى لتحقيق حلم نابليون الأول في إقامة أمبراطورية عربية تضم أمة لها مميزاتها وتطلعاتها ولغتها وتمتد لتشمل مصر ، وشبه الجزيرة العربية وأجزاء من أفريقيا . وكان نابوليون الثالث يريد أن تضم أمبراطورية كهذه إلى فرنسا فأعلن سنة ١٨٦٠م/١٢٧٠هـ نفسه أمبراطوراً على العرب وليس على فرنسا وحدها[٣٣] .

ولكن عبد الله ولي عهد الأمير فيصل اضطر إلى طرد بالغريف بعد أن أقام فترة لدى والده بحجة «أنه جاسوس يعمل لحساب قوة دولية تسعى لفساد أمر الدين والدنيا في البلاد السعودية» الأمر الذي يبدو أن عبد الله لا يعتبر أن الإنكليز يسعون إليه .

لقد زار بيللي الرياض وعاد في ٢٥ آذار ١٨٦٥ . ويبدو أنه لم يتفق وفيصل

على كامل أهداف الزيارة . فبريطانيا التي كانت الجهة التي طلبت تعيين فيصل أميراً ، كانت تريده بحجم معين لا يتجاوزه إلى التهديد الجدي لعملائها المباشرين مشايخ الإمارات ولا إلى تعكير علاقاتها بالدولة العثمانية التي كانت في مرض الموت تعيش على توازن العلاقات الدولية وعدم اتفاقها على اقتسام أشلائها.

هذا وكانت مسألة قوة الدولة الوهابية بدأت تثير مخاوف بريطانيا . فالموظفون بدأوا يدركون أن قوة الوهابية سيف ذو حدين ، وإذا كان هؤلاء الموظفون يستطيعون ضبط سلوك الأمراء فهم لا يستطيعون ضبط سلوك القوى البدوية المدفوعة من جهة بالعداء للكفار، وهو العداء الذي يمكن إذا تحرك إلى الفعل أن يلقى تجاوباً بين مسلمي الهند ، والمدفوعة من جهة أخرى بغريزة الغزو والنهب. وهذا ما كان يقضي على موظفي بريطانيا أن يتبعوا سياسة تحجيمية دائمة . فقد جاء في تقرير مرسل من حكومة بومباي إلى حكومة الهند : « لا شك أن الوهابيين قد استعادوا الآن مجالات نشاطهم السابقة كقوة سياسية في داخل الجزيرة العربية وكقادة للتعصب الذي بدأ يظهر في الهند. »[٣٤].

وفي مطلق الأحوال فإن بيللي قد عاد بانطباع أن فيصلاً لا يريد منازعة الدولة العثمانية التي كانت قد افتتحت مناطق سيطرة أجداده ، ولكنه يطمح إلى الاستيلاء على الحجاز ، دون أن يمتلك الجرأة على التحرك إلا إذا لقي مساعدة من قوة دولية أخرى[٣٥].

هذا وقد فتحت زيارة بيللي الباب لحركة تبادل رسائل مع الأمير وهو بالمناسبه شبه أمي ليشرح له الأمور السياسية الدولية ويثقفه ليسهل عليه توجيهه . وقد أفهم بهذه المناسبة أن توسط بيللي بينه وبين أمير مسقط لا يعدو كونه أسلوباً من الأساليب التي تمارس بين الدول الصديقة ، وهو الأسلوب الذي تعالج به المسائل السياسية في أوروبا إذ يمكن أن تتدخل قوة صديقة لتصلح بين دولتين متخاصمتين[٣٦].

وفي تشرين الأول ١٨٦٥م/١٢٨٢هـ توفي فيصل بن تركي بعد أن ساءت علاقته بالبريطانيين بسبب إغارة أتباعه في البريمي على ساحل صور حيث

احتلوها واستولوا على أموال التجار ومعظمهم من «الرعايا» البريطانيين ، وقتل في الهجوم أحد الإنكليز وانتهى الأمر بالقوات البريطانية أن حاولت الإغارة على الدمام ولكن المهمة فشلت ، فتحولت القوة البحرية البريطانية إلى صور التي تسكنها قبيلة «الجنبة» الموالية للوهابيين وبدأت قصفها في ١١ شباط . وتبين في ما بعد أن المقيم تصرّف حسب اجتهاده لأن حكومة الهند ما لبثت أن وجهت إليه اللوم على تصرفه هذا ، لا سيما وأن الرعايا الذين انتقمت القوة لهم هم من الهنود الذين يعتبرون أنفسهم رعايا بريطانيين وليسوا بريطانيين أصليين[٣٧] .

هذا وكانت وفاة فيصل بداية محنة جديدة للعائلة السعودية التي دب الخلاف بين أفرادها على الحكم . وكان مما قام به عبد الله بن فيصل الذي شعر بتهديد أخيه سعود ، أن أوفد رسولاً إلى المقيمية البريطانية في بوشهر لتحسين العلاقات معها من جهة ولطلب المساندة ضد أخيه من جهة أخرى[٣٨] . وتعهد عبد الله بعدم التعرض للإمارات التي تحميها بريطانيا في الخليج ما خلا مسألة المطالبة بالزكاة . فوردت التعليمات للمقيم بأن يتجاوب مع الرغبة السعودية في إعادة علاقات الصداقة بين الجانبين.

هذا وقد أكد الرسل السعوديون على «المعاهدات» السعودية ـ البريطانية ، ولكن الإنكليز لم يعترفوا بمعاهدات من هذا النوع ، ولكن اعترفوا فقط بأنه تبودلت رسائل تعبر عن صداقة السلطات البريطانية للسعوديين . ويبدو هنا أن الإنكليز كانوا يبتزون الأمير عبد الله الذي كان لا يزال على علاقة بالسلطات العثمانية ، التي كان يشكو إليها من التعديات البريطانية ، دون أن يحصل على نتيجة لأن والي بغداد كان يدرك أن السعوديين يلعبون على الحبال[٣٩] .

وفي سنة ١٨٦٧ حاول شيخ أبو ظبي وشيخ البحرين مجتمعين أن يشنا هجوماً على القبائل الوهابية القاطنة على ساحل قطر ، فما كان من السفن البريطانية إلا أن تصدت للسفن المهاجمة فردتها على أعقابها[٤٠] .

وفي تموز ١٨٦٩ ، عندما استولى عزان بن قيس ، إمام عمان على البريمي ، لم تستحسن السلطات البريطانية هذا التصرف . وعندما تقدمت القوات السعودية لاستعادة الواحة ، طلبت سلطات بومباي من وكيلها في مسقط ومن المقيم في بوشهر التزام الحياد[٤١] . ولكن لما أصبحت الحرب وشيكة

صدرت التعليمات إلى المقيم بيللي بمواجهة الموقف(٤٢).

وأخيراً وعندما أمر مدحت باشا باحتلال الإحساء سنة ١٨٧١ ، كان ينوي احتلال الرياض أيضاً ولكن الضغوط البريطانية الشديدة هي التي منعت الزحف العثماني من تحقيق هذا الهدف(٤٣).

غير أن نهاية الدولة السعودية الثانية أتت سريعة ، فلدى موت فيصل نشبت الخلافات بين أبنائه . فقد كان الأمير قد عيّن ابنه الأكبر عبد الله ولياً لعهده ، ولكن إخوته سعوداً ومحمداً وعبد الرحمن نازعوه . وقد انتهت هذه الخلافات بزوال الإمارة حتى أعادها عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل في بداية القرن العشرين.

وفي أثناء الغياب السعودي عن مسرح الأحداث ، حاولت بريطانيا التي فقدت عنصراً من عناصر استقرار نفوذها ، أن تقيم لنفسها موطىء قدم على ساحل الإحساء [الساحل السعودي الآن] عن طريق إنشاء إمارة تتمرد على الدولة العثمانية وترتبط ببريطانيا كسائر الإمارات ، ولكنها فشلت عندما رفض منصور باشا ابن جمعة حاكم المنطقة سنة ١٨٩٩ عرض الممثل البريطاني في البحرين نيابة عن حكومته ، بالاستقلال عن الدولة العثمانية . ولكن السلطات البريطانية لم تيأس وكررت المحاولة في ما بعد ، سنة ١٩٠٥ مع حسين النصر عمدة سيهات فرفض العمدة عرضها هو الآخر.

وأخيراً جرت محاولة جديدة سنة ١٩٠٧ على يدي برسي كوكس ولكنها فشلت أيضاً . فقد نزل هذا المقيم البريطاني الجديد ضيفاً عند منصور باشا ابن جمعة في قصره بالقطيف محاولاً إقناعه بالاستقلال ولكن منصوراً رفض المغريات البريطانية انطلاقاً من شعوره الديني الذي منعه من التنكر للدولة الإسلامية في ذلك الوقت(٤٤).

وما كان بإمكان السلطات البريطانية إلا أن تنتظر استيلاء السعوديين على الساحل من جديد لتحقق أهدافها ، وقد مهّدت لذلك بأن سرقت البريد المرسل إلى السلطات العثمانية في العراق من قبل ابن جمعة ، فوجدته يحمل تصريحاً للباب العالي على التخلص من ابن سعود العائد إلى نجد وجوارها ، فسلمت

السلطات الإنكليزية هذا البريد إلى عبد العزيز الذي عمد إلى اغتيال ابن جمعة وتشريد أسرته ونهب أموالها والاستيلاء على عقاراتها . وهذا كله جرى في بداية تأسيس الدولة السعودية الثالثة .

العلاقات الإنكليزية مع الدولة السعودية الثالثة :

عندما شعر الإنكليز بإمكانية مد سكة حديد بغداد حتى الكويت، بدأ اهتمامهم بهذه المشيخة يأخذ منحى أكثر جدية . فاستدعت السلطات في بومباي مبارك الصباح ليقضي فيها فترة ، ثم عاد سنة ١٨٩٧ فقتل أخويه واستولى على الحكم وعقد معاهدة مع بريطانيا سنة ١٨٩٩ .

وبهذا استقام أمر الكويت للسلطات البريطانية ، بينما استمر أمر الإحساء التي يبدو أن المخابرات البريطانية عولت جزئياً على خدمات مبارك الصباح من أجل إخضاعها.

وقد سر مبارك الصباح لعثوره على السعودي الشاب عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل ، فقربه منه وأخذ يسمح له بحضور اجتماعاته الخاصة . كما أنه نجح في إقامة العلاقات الجيدة بين عبد العزيز والموظفين البريطانيين وشهد له بهذا النجاح الميجر ديكسون في كتابه « الكويت وجاراتها » عندما قال : « ويعود الفضل إلى الشيخ مبارك الصباح في تدريب عبد العزيز آل سعود وفي ميله للانكليز»(٤٥) . لكن جهود مبارك لم تتوقف عند هذا الحد بل هو استمر في إسداء «النصح» إلى الأمير السعودي ، طالباً إليه أن يرتبط مع الإنكليز بعلاقات أوثق فأوثق ، وحاثاً إياه على عقد معاهدة معهم على غرار المعاهدة الكويتية ـ البريطانية : « فطلبت منهم أني أدخل معكم مدخل مبارك وأنا ملرم إن شاء الله أن أتبع رضاكم وأمتثل أمركم في كل الأحوال » . كما كان يطلب منه استقبال العملاء الانكليز كالكابتن شكسبير مثلاً الذي أوصاه بخصوصه قائلاً : « قابله ورحب به وارض ربك وسلمه إجابة تسره لأن طريقنا إلى الراحة والسعادة لكلينا واحد يا ولدي وهو اتباع نصائحهم »(٤٦) .

وعندما انطلق عبد العزيز لاسترجاع إمارة أجداده بدأ الدعم البريطاني المباشر ، أو بواسطة مبارك يشق طريقه إلى معسكر عبد العزيز.

ففي ١٨ كانون الأول ، أي بعد توقيع المعاهدة الكويتية ـ البريطانية بسنة ، شن السعوديون والكويتيون حملتهم ضد ابن رشيد ، وكانت الأهداف البريطانية من وراء الحملة واضحة . فابن رشيد موالٍ للسلطة العثمانية وهو يشكل حجر عثرة في وجه الهيمنة الاستعمارية على منطقة نجد وما جاورها من مناطق الجزيرة العربية .

وحين تحرك عبد العزيز لاحتلال الرياض سنة ١٩٠٢ «أرسل خطاباً إلى المقيم السياسي البريطاني التمس فيه النظر إليه ، كرجل تربطه بالحكومة البريطانية علاقة وثيقة ، وأن تهتم الحكومة البريطانية المحبة للخير بالنظر إليه »[٤٧] .

وفيما كانت الدولة العثمانية تتعرض للمشاكل في مناطق الصرب التي كانت تحركها الدول الاستعمارية للقتال والانفصال ، أخذ عبد العزيز يسعى للاستفادة من هذا الوضع للهجوم على الأمراء الموالين للباب العالي ، فاتصل بمبارك الصباح ، كما يذكر بنوا ميشان ، سنة ١٩١١ طالباً منه جس نبض أصدقائه الإنكليز ، فرحبت بريطانيا بذلك .

وقد حاولت السلطة العثمانية أن تحتفظ ولو بعلاقة شكلية مع عبد العزيز ، فوافقت في أوائل عام ١٩١٤ على الاعتراف به والياً على نجد ومتصرفاً على الإحساء . ولما طلب منه أنور باشا باسم الدولة التركية وحسب اتفاق سابق بينه وبينها أن يشترك في الدفاع عن البصرة ، أجابه أنه مشغول بقتال ابن الرشيد .

وكان تعليق وزارة الهند بتاريخ ٣١ كانون الثاني ١٩١٥ « أن موقف ابن سعود الحالي سليم بالنسبة الى بريطانيا لأنه لم يفِ بالتزاماته لتركيا بموجب معاهدة معهم ، بإرسال قوات مسلحة لمساعدتهم بل إنه منع ابن الرشيد من مساعدتهم » أيضاً . وأكثر من هذا فقد جاء في شهادة المستر كينث توماس : «بقي عبد العزيز حليفاً دائماً لبريطانيا ، وساند البريطانيين وحلفاءهم ، ودرَّب جيشاً في العمليات الحربية ضد الأتراك سنتي ١٩١٤ و١٩١٥[٤٨]» .

وإذا كانت بريطانيا غير سخية مع ابن سعود في هذه الفترة ، فلعل ذلك عائد إلى حساباتها في حقل السياسة الدولية ، إذ كانت الدولة العثمانية ما زالت

قائمة ، ولكن على فراش المرض ، وكانت المشاكل في أوروبا وشرقي آسيا تستأثر بالاهتمام.

ولكن عندما بدأ الاستعداد للحرب العالمية الأولى أخذت الديبلوماسية البريطانية تنشط مدعومة بالقوة البحرية في منطقة الخليج . فقد وردت برقية إلى لندن من نائب الملك في الهند يطلب فيها من ابن سعود تعاونه من أجل طرد الأتراك من البصرة لتسيطر عليها حكومة الهند سلمياً وكذلك من أجل طرد الأتراك من الإحساء والقطيف ، وفي مقابل ذلك يعقدون معه معاهدة يعترفون فيها باستقلاله كحاكم على نجد والإحساء مع ضمان عدم الاعتداء عليه من جهة البحر.

ولما احتل عبد العزيز الإحساء أرسل الى المقيم البريطاني في الخليج السير برسي كوكسن بتاريخ ١٣ حزيران ١٩١٣ يخبره بذلك ويطلب إليه أن تكون علاقاته بهم جيدة كعلاقات أسلافه : « بالنظر لمشاعري الودية تجاهكم أود أن تكون علاقاتي معكم كالعلاقات التي كانت قائمة بينكم وبين أسلافي كما أود أن تظل قائمة بيني وبينكم»[٤٩].

وفي سنة ١٩١٤ اقترح السفير الإنكليزي في اسطنبول تنظيم مقاومة عربية في منطقة الخليج ضد الدولة العثمانية على أن يشارك فيها ابن سعود وشيخ الكويت وغيرهما من مشايخ العرب في المنطقة.

وفي ٥ تشرين الأول ١٩١٤ كلفت وزارة الهند النقيب شكسبير بالسفر بسرعة ليتصل بابن سعود سعياً وراء هدف مزدوج : الأول هو منع وقوع اضطرابات في المناطق العربية نتيجة للأعمال الحربية الإنكليزيه ضد تركيا في الخليج والأراضي العربية . والثاني هو منع تقديم مساعدة عربية للأتراك عند نشوب الحرب.

وفي ٨ تشرين الأول أبرقت وزارة الهند في لندن الى نائب الملك في الهند تطلب إليه أن يبلغ ابن سعود ومبارك بمضمون رسالة تحرضهما فيها ضد تركيا التي تدفعها المانيا إلى القيام بأعمال عدائية الأمر الذي سيجر صديقة الإسلام التقليدية (أي بريطانيا) إلى خوض الحرب ضدها. كما أنها تطلب منهما ضبط الأمور من

قبلهما وتخبرهما أنها سترسل إليهما الكابتن شكسبير وأهم ما جاء في الرسالة :

«يعلم الشيخ أن ألمانيا تستخدم نفوذها على تركيا لتقوم بأعمال عدائية تضطر بريطانيا وحلفاءها إلى خوض غمار حروب يودون تفاديها بإخلاص وخاصة حكومة جلالة الملك ، صديقة الاسلام التقليدية . فالشيخان مبارك وابن سعود يستطيعان حفظ السلام بتأثيرهما على قبائلهما وعلى أصدقائهما الأقوياء ، أمثال شريف مكة وابن شعلان اللذين تؤثر فيهما معلومات خاطئة أو وعود خداعة. ولذلك فحكومة جلالة الملك تبعث الكابتن شكسبير وهو معروف عند العرب ، لشرح نواياها»(٥٠) .

وفي ٩ تشرين الثاني أبلغ شكسبير المقيم السياسي في الخليج ، وذلك قبل زيارته إلى الرياض « أن ما يعرفه عن ابن سعود أثناء وجودهما معاً في الكويت هو انحيازه إلى بريطانيا»(٥١) .

ولما كان ابن الرشيد من مؤيدي الدولة العثمانية ، فقد عمد ابن سعود الى مشاغلته لمنعه من إمداد الأتراك بالمساعدة العسكرية للدفاع عن البصرة . وهذا ما أكده ابن سعود نفسه في كتاب أرسله ابن جلوي إلى شكسبير جاء فيه قول عبد العزيز : « وأعلنا الحرب على ابن رشيد لسببين : أولهما لنحول بينه وبين مساعدة الأتراك في سوريا وثانيهما ليكون لنا عذر من عدم مساعدتهم والانصياع لأمرهم » . ويضيف عبد العزيز في الرسالة قوله : « وظلت رسلهم تتوافد علي للصلح بيني وبين ابن الرشيد . . . وظللت أبدي المعاذير ، وعليه فقد غادرت الرياض إلى منطقة القصيم لتدبير الأمر وتكملة الأعذار»(٥٢) .

وكذلك أكد هذا الأمر اللفتنانت كولونيل «جراي» المقيم البريطاني في الكويت في تقرير إلى المقيم السياسي في الخليج يقول فيه : « إن نشوب القتال بين ابن الرشيد وابن سعود جعله (ابن رشيد) هو وقبائله يدافعون عن أوطانهم ولا يستطيعون لذلك معاونة الترك»(٥٣) .

غير أن بريطانيا لم تدعم ابن سعود بالتمنيات فقط ، بل هي كانت تمده بالمساعدة والخبرة في قتاله ابن الرشيد . وهذا ما يؤكده فصل النقيب شكسبير

ليكون معه في ذلك القتال ، حيث قتل هذا النقيب في معركة «جراب» على يدي قوات ابن الرشيد.

ومن أجل مكافأة عبد العزيز على خدماته وتعبيراً عن الثقة التي تولدت لدى الإنكليز بنواياه استجابت الحكومة البريطانية لطلبه في عقد معاهدة بينه وبينها على غرار كل من تلك الموقعة بينهم وبين مشايخ الخليج . وقد بدأت التهيئة الجدية لعقد هذه المعاهدة فور أن قررت بريطانيا إنهاء علاقاتها بالدولة العثمانية عام ١٩١٤ .

وقد أبلغت وزارة الهند عبد العزيز بواسطة المقيم البريطاني في ٤ تشرين الأول ١٩١٤ أي قبل الإنزال البريطاني في البصرة بشهر تقريباً عن عزمها إرسال الكابتن شكسبير لمقابلته .

وفي ٤ تشرين الثاني ١٩١٤ وجه ابن جلوي ، حاكم الإحساء من قبل عبد العزيز ، رسالة إلى شكسبير عن لسان أميره جاء فيها : « عندما علمت من القنصل بالخليج أنك قادم ، رأيت أن أقترح عليك أمرين لتختار واحداً منهما ، ولكن الأفضل في نظري أن تجهز شيفرة عربية ترسل إلي مفتاحها لتكون المخاطبات بيننا بها عن طريق أخينا عبد الله بن جلوي في الإحساء ، بينما تظل أنت مقيماً في البحرين وذلك اتقاءً للقيل والقال ، حذرين إلى حين وصولنا إلى نتيجة فهذه أفضل طريقة بالنسبة لنا ولصالحنا . أما إذا رأيت أنه لابد من المقابلة فإن ابن جلوي يقوم بهذه المهمة ولكن يجب أن يكون ميعاد سفرك سراً . . . وتلبس الملابس العربية»(٥٤) .

وفي ٣١ كانون الأول سنة ١٩١٤ وصل من ابن سعود كتاب إلى المقيم البريطاني في الخليج يعلن فيه أنه في جانب بريطانيا وأنه سيسافر إلى الكويت لبحث الوعود الثلاثة وهي الحماية من ناحية البحر والاعتراف وعقد معاهدة(٥٥) .

وفي أواخر شهر كانون الأول ١٩١٥ قدم بريس كوكسن المقيم البريطاني في الخليج إلى القطيف واجتمع بعبد العزيز في جزيرة دارين في الخليج وكان يصحبه جون فيلبي بينما كان يصحب عبد العزيز أحمد الثنيان . وتم توقيع

المعاهدة في ٢٦ كانون الأول ١٩١٥ وجرت المصادقة عليها في لندن بتاريخ ١٨ تموز ١٩١٦.

وقد نصت المعاهدة على الاعتراف لعبد العزيز وورثته بحكم المنطقة التي استولى عليها ، على أن يكون الوارث مخلصاً لبريطانيا . وتعهدت بريطانيا بمساعدته في حال تجاوز أي دولة على تلك الأراضي دون علم بريطانيا . كما تعهد ابن سعود بإبلاغ بريطانيا بكل اعتداء على أرضه وأنه يمتنع عن الاعتداء على المحميات البريطانية في الخليج وأن لا يرهن ولا يبيع من أرضه ولا يعطي أي امتياز لدولة أخرى أو لتابعي مثل تلك الدولة إلا بمشورة بريطانيا .

ثم جددت هذه المعاهدة بعد احتلال الحجاز وتسمية عبد العزيز ملكاً عليها ، وذلك بمعاهدة جده لعام ١٩٢٧ ـ راجع نصوص المعاهدتين في آخر الفصل ـ .

ولم يقتصر دور عبد العزيز على هذا بل هو راح يحرض عجمي السعدون ، زعيم عشائر المنتفك في العراق على التعاون مع الإنكليز ضد الدولة العثمانية كما جاء في كتاب «فصول من تاريخ العراق القريب» للمس بيل والتي أوردت رد ابن السعدون الذي كان غاية في الالتزام الإسلامي ، على نقيض موقف ابن سعود . فقد جاء في رد ابن سعدون .

«من المعلوم عندي بدرجة لا يتطرق إليها الشك أن موقفي هو موقف من يسعى لمرضاة الله العلي العظيم ولإعلاء اسم العرب بإظهار الولاء لهم . وأي ولاء أعظم من أن أسارع بإخلاص إلى ما أمرني به الله في كتابه المجيد بالجهاد ضد الكافرين أعداء الله وأعداء الدين ، ولا يمكن أن تأخذني في الله لومة لائم أنا الذي أسعى لحب الله ونبيه وبلادنا ولحمايتها من أن يدنسها الكافرون . وقد كان لي أمل كبير بتدينكم وحميتكم العربية أن توافقوني رأيي وتؤيدوني في ما أقوم به من أجل إعلاء كلمة العرب . وليس هذا بفضل الله تمرداً إنما هو موقف بسيط معروف . وإذا كانت الحكومة التركية تذب عن حوزة الإسلام فهي عضدي وعضد قبائلي ، وأنا حقاً حاكم مطلق بأمر الله وأمر الحكومة . وإني مقتنع ومعتقد بأني سائر في الطريق السوي الذي يرضي الله والعرب سيراً مستمراً لا يثنيني عنه

شيء ، وهذه هي الروح الإسلامية وهذا هو الوضع . وأختم ما وجب علي قوله مستشهداً بكلام الله : ﴿ **إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء** ﴾ . وإذا كنت قد أعطيت أي وعد لهم في الماضي فيجب أن أتقيد بتنفيذ ما وعدت به . لكنني أعطيت عهداً بخدمة ديني وحكومتي وحميتي ، والله تعالى أحسن من يكون في عوننا . وإذا حاججتموني بترك الدين جانباً فالواجب يدعوني إلى الوفاء بالعهد الذي قطعته على نفسي من قبل لحكومتي وهذا أول ما تقتضيه شيمة العرب ، وهذا ما وجب بيانه»[٥٦] .

وتعليقنا هو أي حجة أبلغ من هذه توجه إلى مسلم . أما أن توجه إلى مكفري المسلمين فلن يتخذوها إلا هزواً .

ومهما يكن من أمر فقد تبنى عبد العزيز قضية بريطانيا وراح يحرض المسلمين على تركيا ويحثهم على التفاني في خدمة الإنكليز .

فقد ذكر حافظ وهبة أنه عندما زار عبد العزيز الكويت سنة ١٩١٦ ، اجتمع بوجهائها وكان حديثه معهم كله هجوماً على الأتراك وتحقيراً لهم والإعلان أنه لو كان في جسمه نقطة دم تميل إلى الأتراك لبذل كل وسيلة لإخراجها منه[٥٧] .

وقد أنعم كوكسن على كل من شيخ الكويت وابن سعود بالوسام البريطاني كي . سي . آي (نجمة الهند) فأبرقا إلى السلطات البريطانية يشكرانها، وختما البرقية بالقول : « نرجو أن نكون دائماً كاسبين رضاكم بالخدمة الخالصة وملحوظين بعين عنايتكم الجليلة » .

وبعد زيارة الكويت دعا برسي كوكسن عبد العزيز لزيارة المعسكر البريطاني في الشعيبة قرب البصرة حيث رافقته المس جرترود وطافت به على الوحدات التي كانت تستعد لاحتلال العراق ، فأثارت المعدات دهشته . وقد توثقت العلاقات بينه وبين كوكسن منذ ذلك الحين[٥٨] .

وفي سنة ١٩١٧ أوفدت بريطانيا حسب ما ذكره ديكسون في كتابه « الكويت وجاراتها » كلاً من الكولونيل هاملتون والكولونيل كانليف أوين ممثلي المخابرات البريطانية في العراق من البصرة إلى نجد لدفع ابن سعود لاستئناف التحرشات بابن الرشيد ، وذلك لدى بدء الزحف على العراق . وقد تم الاتفاق

مع ابن سعود على المباشرة بمهمته فور وصول الإمدادات اللازمة وقد تعهدت بريطانيا بتقديم الأموال والأسلحة والمشورة العسكرية .

وبناءً على الإتفاق حملت بعثة برئاسة جون فيلبي مبالغ طائلة من الجنيهات الذهبية وريالات ماريا تيريزا إلى ابن سعود وكانت موضوعة في صناديق متينة ، في الوقت الذي لم تكن فيه كل موارد ابن سعود تتجاوز المائة ألف ريال إضافة إلى المساعدة السنوية البريطانية البالغة ستين ألف ريال .

وقد سلّم فيلبي عبد العزيز مائة ألف ريال على الحساب للبدء بتجنيد القبائل على أساس أن الأسلحة ستصل لاحقاً .

وقد بدأت كميات الأسلحة تصل تباعاً وكانت دفعة منها وصلت وتبلغ خمسة آلاف بندقية ومائة صندوق ذخيرة . ولما نشبت المعركة ، كان الذي خطط لها فيلبي فلم يجرأ العميل البريطاني حسب ما ذكره خيري حماد في كتابه «عبد الله فيلبي» على المشاركة الفعلية خوفاً من مصير شبيه بمصير النقيب شكسبير ، بل هو اكتفى بمراقبتها من شرفة عالية في برج قريب(٥٩) .

أما عن دور عبد العزيز في إبرام الاتفاق بين الشريف حسين ومكماهون فقد تلخص بالضغط على الشريف مما أجبره على التساهل في شروطه خوفاً على جناحه الشرقي . فقد كتب ابن سعود إلى الشريف يطلب منه « أن يقوم بطرد الأتراك من الحجاز وإذا لم يتمكن فيسير هو بجنود كثيفة إلى الحجاز ويقوم بعمليات طردهم»(٦٠) ، على أساس « أن كل إنسان فيه دين وحمية عربية أنه يجتهد في جهاد الأتراك وحلفائهم ، لأن اليوم والله ما أخبر عدو للإسلام والعرب غيرهم »(٦١) وهو هنا يعبر بصدق عن عقيدته الوهابية

ولما كشف الروس ما جرى من اتفاقات بخصوص منطقة الشرق الأوسط بين الإنكليز والفرنسيين والصهيونية ، من وعد بلفور إلى اتفاقية سايكس - بيكو ، رفض الشريف حسين القبول بهذه الاتفاقات على الرغم من محاولات الرشوة والتهديد من البريطانيين ، الذين كانوا يسعون إلى عقد معاهدة مع الشريف تقدمت حكومة جلالة الملك بمشروعها إليه في ٢١ تشرين الأول ١٩٢١ .

وقد هوّن مشروع المعاهدة المذكور ضرورة اعتراف الشريف بالانتدابات

على العراق وسوريا بما فيها فلسطين التي سهّل الانتداب الإنكليزي تسليمها إلى اليهود . كما هوّن المشروع المذكور اعتراف الشريف بمعاهدات الحماية البريطانية مع ابن سعود والشريف الادريسي وكذلك بحقوق وامتيازات بريطانيا في الحجاز نفسه.

وفي هذا الصدد يؤكد الدكتور صلاح العقاد في كتابه « جزيرة العرب في العصر الحديث » : « والحق أن معارضته (الشريف) الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، وما ترتب على ذلك من رفض توقيع معاهدة فرساي كان من أقوى الأسباب التي باعدت بين الشريف حسين وبين الحكومة البريطانية»[٦٢].

وفي الواقع فإن الإنكليز ، رداً منهم على الشريف حسين ، هيأوا الجو لابن سعود للتحرك نحو الحجاز . ولم يكتفوا بالإمدادات العسكرية والمشورة ، بل هم أمنوا التغطية «الشرعية» لابن سعود عن طريق استصدار فتاوى من بعض رجال الدين في البلدان الإسلامية الخاضعة للاستعمار البريطاني .

وبدأ عبد العزيز زحفه في آب سنة ١٩٢٤ ، وفي أواخر سنة ١٩٢٥ كان الاستسلام النهائي للملك علي ابن الشريف حسين في جدة بعد أن لعب الإنكليز الدور الأساسي في إسقاطه والذي تمثل إلى جانب المساعدة المقدمة لابن سعود ، بتخريب مقومات القوة العسكرية الشريفية ولا سيما الطائرات الحربية التي كانت بحوزتها والتي استطاع العملاء البريطانيون السريون تعطيلها.

وقد أوضح فيلبي أسباب دفع ابن سعود لاحتلال الحجاز وبرّر مجازر الطائف بقوله : « بعد أن يئسنا من الحسين حركنا جنود الإخوان بقيادة خالد بن لؤي وفيصل الدرويش وسلطان بن بجاد لسفك دماء غزيرة في الطائف لتوقع الرعب في قلوب كافة الحجازيين : البادية والحاضرة ، ونوفر بها على بقية المدن الحجازية دماء أخرى إن أمكن الأمر ، وإلا فإن دماء غزيرة لا بد من إراقتها لأن الإنكليز قرروا إسقاط حكم الشريف حسين بأي ثمن بعد أن رفض الأمر والطلبات بإعطاء فلسطين لليهود المشردين المساكين وبعد أن رفض الحسين ما عرضناه عليه بأن يكتفي بالحجاز وحده وأن يغير وجهة نظره في توحيد البلاد العربية كلها تحت حكمه »[٦٣].

وبسقوط الشريف حسين وزوال ملكه في الحجاز زالت الجهة التي كانت بريطانيا تعهدت لها بإقامة دولة عربية كبرى في شرق البحر المتوسط ، فسقطت الالتزامات البريطانية تبعاً لذلك لأن ابن سعود ، وهو الذي نفذ إسقاط حكم الشريف بيديه ، لم يطالب بريطانيا ، بحكم حلوله محل الجهة المتعاقدة معها ، على تنفيذ التزاماتها.

على أن دور ابن سعود في خدمة السياسة البريطانية بعد الحرب كما أثناءها لم يقتصر على الجزيرة العربية ، بل هو تجاوزها إلى الدول العربية والعالم الإسلامي ، وهي السُّنة التي سيسير عليها أولاده في خدمة المصالح الأميركية في أنحاء مختلفة من العالم .

ففي سنة ١٩٢٢ كما ذكر السيد عبد الرزاق الحسني [في كتابه « تاريخ الوزارات العراقية »] وعندما عجزت بريطانيا عن إكراه العراقيين على قبول الانتداب البريطاني ، حركت ابن سعود للإغارة على أطراف عشائر المنتفك ليلة ١١ آذار وذلك بقصد دفع العراقيين إلى الارتماء في أحضان بريطانيا كي تحميهم من ابن سعود.

وفي سنة ١٩٢٥ كان الإنكليز هم المخططين للهجوم السعودي على شرقي الأردن كما يقول فيلبي نفسه . فقد جاء في كتاب « تاريخ آل سعود » لمؤلفه ناصر السعيد[٦٤] عن لسان فيلبي قوله : «كنت بالأردن قبل مجيء جلوب إليها . وكان عبد الله بن الحسين صعب المراس نسبياً بعد أن أخرجناه وعائلته من الحجاز وجئنا بصديقنا عبد العزيز آل سعود ، ونفينا والده (الشريف حسين) وإخوته. وقد أثّرت هذه العوامل على نفسيته إلا أنه كان معزولاً ولم يزل يعتبر نفسه أعلى مني ومن عبد العزيز طبقةً ووظيفةً ومقاماً وأنه لا يزال أميراً وحاكماً . . . ولما رأيت منه مثل هذه البوادر أردت أن يكون ترويضه على يدي ، فأمرت عبد العزيز آل سعود بإرسال مجموعة من «الإخوان» البدو من ناحية قريات الملح لمطاردة عبد الله بن الحسين وقتله . كما طلبنا من ابن عدوان أن يثور من داخل الأردن على عبد الله بن الحسين . . . فقتلوا بأسلحتهم الحديثة بضعة آلاف من قبائل البلقاء وقبائل الحويطات وبني صخر ومن بينهم العديد من الأطفال والنساء ، وما علمت بعد ذلك إلا وعبد الله بن الحسين يربط حقائبه استعداداً للهرب من

الأردن . ولما سألته إلى أين وجهته قال : سأذهب إلى جهنم ، أبعدوني إلى المنفى مع والدي ما دمتم لا تريدون حمايتي . . .

فقلت لعبد الله : لقد عارضتني عندما قلت لك : عليك أن لا تساعد الثوار اللاجئين الحجازيين ضد آل سعود وعارضتني حينما قلت لك إن لليهود كل الحق في أن يحكَموا فلسطين . . . ولما اعترف عبد الله بأن سوء تفاهم قد حصل ، ولما تمادى السعوديون وقبيلة ابن عدوان ، أمرت بإرسال قواتنا لتسحق جنود الإخوان السعوديين» .

وفي سنة ١٩٣٣ ، وعندما عارض الإمام يحيى حميد الدين ، إمام اليمن فصل عدن وطالب بإلغاء الانتداب الإنكليزي عليها تحرك ابن سعود فهاجم اليمن ليشاغله فمرّت المخططات البريطانية بسهولة ويسر .

ولم يتغير موقف عبد العزيز المعلن من بريطانيا على الرغم من دخول الولايات المتحدة الأميركية على الخط حتى أواخر أيامه .

ففي سنة ١٩٤١ وإبان ثورة رشيد عالي الكيلاني ضد الإنكليز وإنزالهم في البصرة ، قابل ناجي السويدي وزير الخارجية حينذاك عبد العزيز وطلب منه باسم الحكومة العراقية الوقوف إلى جانب الثورة ولكن عبد العزيز رفض رفضاً قاطعاً ، بل هو ندد بالثورة واعتذر بأنه صديق لبريطانيا وأنه ورث هذه الصداقة عن جده فيصل بن تركي[٦٥] .

هذا وقد بلغ نشاط عبد العزيز في الحرب الثانية مسلمي الهند . فقد ذكر الدكتور صلاح العقاد أن ابن سعود أرسل أحد أبنائه ليشجعهم على القتال داخل صفوف الجيش الإنكليزي في العلمين[٦٦] . وعلى مذبح العلاقات مع بريطانيا ضحى ابن سعود بالجيش الذي حقق له الإنتصارات والذي على أكتافه أقام سلطته أي جيش «الإخوان» . فقد ثار هذا الجيش على ابن سعود بسبب ارتباطه ببريطانيا بشكل أساسي .

فقد جاء في إنذار وجهه فيصل الدويش [القائد الأساسي لجيش «الإخوان»] إلى الحكم السعودي بواسطة الشريف لؤي بن غالب ، حاكم مكة من قبل ابن سعود ، قوله : « لم نأت إلى مكة إلا بعد أن أفهمنا أن في مكة حكماً

للشريف كافراً بالدين يركن إلى الإنكليز . . . وجئنا لإزالة المنكرات والبدع والشرك والحكم الملكي وتحكم الإنكليز في بلد الله الحرام . ولكنا اليوم رأينا قادتنا وكبراءنا أصبحوا يرتكبون البدع والمنكرات والشرك ويركنون إلى الإنكليز».

وقد حاول فيلبي أن يدفع عبد العزيز إلى التروي في معالجة مسألة «الإخوان» لئلا يدفعهم إلى الثورة المسلحة، ولكن عبد العزيز الذي أبدى عناداً شديداً ، اقتنع بضرورة الإنحناء مؤقتاً للعاصفة.

ثم عقد «الإخوان» مؤتمر الأرطاوية في ٣ رجب ١٣٤٥ (١٩٢٨) . وجاء في المقررات التي اتخذها المؤتمرون :

أولاً : ينكر «الإخوان» على عبد العزيز بن سعود ركونه للإنكليز وإدخالهم إلى البلاد المقدسة وادعاءه أنهم دخلوا في دين الإسلام، كما ينكر «الإخوان» تنصيب عبد العزيز ملكاً ، فالإسلام يحرم الملكية.

ثانياً : ينكر «الإخوان» إرسال عبد العزيز ولده سعود إلى مصر لعقد اتفاق مع الإنكليز .

ثالثاً : ينكر «الإخوان» على عبد العزيز إرسال ولده فيصل مع فيلبي إلى بلد الشرك لندن لرهن بلاده للإنكليز وتدريبه في دوائرهم.

رابعاً: يقرر الإخوان أنه لا عهد ولا طاعة لعبد العزيز لأنه خان العهد وأخلف الوعد وعمل للمشركين[٦٧] .

وقد رأينا سابقاً نهاية الإخوان وما قام به الإنكليز من أسر قادتهم وتسليمهم إلى عبد العزيز حيث لقوا حتفهم على يدبه .

وقد أصبح عبد العزيز أكثر جرأة فيما بعد ولم يعد يخفي ارتباطه بالإنكليز وتقديمه مصالحهم على مصالحه ، واستمر على هذا النهج بعد الخلاص من «الإخوان» حتى أواخر حياته.

ففي سنة ١٩٤٦ رفض ابن سعود إقامة علاقات تجارية مع الاتحاد السوفياتي ، لئلا تتضرر المصالح البريطانية رغم اعترافه بأن مصلحة بلاده تقضي بإقامة مثل تلك العلاقات . فقد جاء في كتاب رفعه إلى المندوب السامي

البريطاني في مصر بتاريخ ١٢ حزيران ١٩٤٦ : « أننا نصارحكم برأينا في هذه القضية ، إننا بادىء بدء اتخذنا في الحجاز الإجراءات التي لا تقاوم حرية التجارة في العالم واتخذنا من جهة ثانية بعض احتياطات أخرى لمنع سبق نفوذهم «السوفيات» ، قد يكون من المفيد لاقتصاديات بلادنا تسهيل سبل التجارة مع روسيا لكننا نرى في ذلك ضرراً لا يستهان به على منتجات البلاد البريطانية وأنه وإن لم يكن بيننا وبين الحكومة البريطانية أي اتفاقية تجارية لرعاية منتجاتها ولكننا حباً في المحافظة على المصالح البريطانية ومقاومة لمنافسيها وقفت حكومتنا في الحجاز ذلك الموقف الذي لا بد أن بلغكم أمره »(٦٨).

وفي سنة ١٩٤٧ كان عبد العزيز يوصي ابنه سعوداً قائلاً: « . . . وقد خبرنا الإنكليز وهم خبرونا . . وعرفناهم وهم عرفونا ولذلك أصبح العمل في ما بيننا سهلاً والتفاهم هيناً ، ويعلم الجميع الموقف الودي الصادق الذي اتخذناه باتجاه بريطانيا أيام محنتها في الحرب الأخيرة وكيف أننا لم نتخل عن صداقتنا معها في الوقت الذي تركها فيه أدنى الناس إليها . وهذا الموقف الرائع الذي وقفناه هو الذي أدى بالحكومة البريطانية إلى الاعتراف بأنها لن تنسى لنا موقفنا في أيامها السوداء ، إننا أصدقاء أوفياء لبريطانيا . . . ولم نجد فيها إجمالاً إلا الصداقة »(٦٩).

كما أن أمين الريحاني ، من عملاء المخابرات الأميركية ، يذكر في كتابه « ملوك العرب » قول عبد العزيز له : « لا نتنازل عن شيء من حقوق أجدادنا . أما إذا قال الإنكليز نبغي هذا منك وجاؤوني بأمر محتوم فأنا أسلم لهم».

كما روى أن عبد العزيز قال له أيضاً : « أما الإنكليز فهم أصدقائي وأنا صديقهم . إذا قالوا لي نبغي هذا منك . قلت : «لكم ما تشاؤون» .

على أن ارتباط عبد العزيز لم يكن قائماً فقط على المال الذي كان يقبضه منهم ، فهو قليل ، بل على «الصداقة» . يقول الملك لأمين الريحاني بهذا الخصوص : « يظن الناس أننا نقبض من الإنكليز مبالغ كبيرة من المال . والحقيقة أنهم لم يدفعوا لنا إلا اليسير مما تستحقه الأعمال التي قمنا بها أثناء الحرب وبعدها . ونحن لا نختلف معهم قبل أن يختلفوا معنا . بيننا وبينهم عهد

نحافظ عليه . . ولو تضررنا بأنفسنا ومصالحنا . الإنكليز مدينون لنا ، ترى الصحيح يا أستاذ ونحن لا نطالبهم، من العار أن نطالبهم، أنا صديقهم ابن سعود »[110] .

وقد استفاض ابن سعود في شرح مواقفه من بريطانيا ودوره في التضحية بمصالح العرب والمسلمين وقضاياهم خدمة لمصالحها أمام اللجنة البريطانية الأميركية التي أنشئت بعد إلغاء الكتاب الأبيض لسنة ١٩٣٩ والذي وضع للحد من الهجرة اليهودية إلى فلسطين اسكاتاً للفلسطينيين ودفعاً لهم إلى الهدوء لكيلا يؤثروا على المجهود الحربي للحلفاء في الحرب الثانية . ذلك الكتاب الذي ألغي بعد الحرب في ٩ آذار ١٩٤٦ . قال ابن سعود لأعضاء اللجنة المذكورة إنه وجميع العرب أصدقاء للحلفاء ومن رأيه أن مصلحة العرب مسلميهم ومسيحييهم دوام الصداقة والاتفاق مع الحلفاء . وذكر أنه سعى أثناء الحرب بالنصح للعرب والمسلمين خاصة لا سيما مسلمي الهند بأن يكونوا على اتفاق مع بريطانيا لأن ذلك في مصلحتهم[111] .

وأكد ابن سعود أن اليهود لا يتوانون أبداً عن محاولات الإيقاع بين العرب وصديقتيهم بريطانيا وأميركا ، الأمر الذي يعمل العرب على تجنبه .

وأضاف ابن سعود مبيناً ارتباطه ببريطانيا : « إنني منذ أن أوجدني الله وصرت أسعى لاستعادة ملك آبائي وأجدادي ما عرفت من الدول غير بريطانيا ، كانت صديقتي . رأيت منها ما سرني ورأت مني ما سرها . ولما نشبت الحرب أيدت سياستها وسياسة حلفائها وثوقاً مني بأن ذلك في مصلحتي أولاً ومصلحة العرب جميعاً ثانياً .

لهذا السبب كانت الحكومة البريطانية ولا تزال ترغب إلي أن أسعى للتوفيق بينها وبين العرب منذ أيام الحرب وبعد انتهائها اتقاء لحدوث المشاكل بينها وبينهم . وكنت أعمل ما في وسعي مع إخواني العرب وأنصحهم بأن لا يجعلوا سبيلاً لحدوث اختلاف بينهم وبين بريطانيا لأن أعداء الحلفاء هم أعداء العرب ويجب علينا الصبر والتروي لأن ذلك من مصلحة العرب.

ولقد بلغ مني الأمر أن تكلمت أمام جمع من المسلمين في مكة المكرمة

ونصحتهم بأن يكونوا إلى جانب بريطانيا وحلفائها لأنها صديقتهم وتدافع في حربها عن حقوقهم ومصالحهم . . . وألا يدعوها في حرج من أمرها.

وعلى أثر ذلك، تلقى علماؤنا كتباً من العلماء في بلاد المسلمين، تنتقد موقفي ففاتحوني بما جاءهم وأبدوا لي أنهم لا يتعرضون للمسائل السياسية ، ولكنهم يعجبون من معاضدتي لبريطانيا في الوقت الذي تؤوي فيه اليهود وتوليهم على فلسطين . فأوضحت لهم الأخطار التي تستهدف أوطاننا إذا انتصر أعداء بريطانيا عليها . فقالوا هل تضمن أن بريطانيا إذا انتصرت لا تؤيد اليهود ولا تؤويهم في بلادنا وإنها تعامل العرب في فلسطين بالعدل، فأجبتهم : إني لا أضمن أن تفعل بريطانيا هذا أو ذاك ولكن ما عرفته من بريطانيا وعودها التي قطعتها على نفسها ، هو أنه إذا لم يقم العرب بأعمال ضدها فإنها ستعاملهم بالإنصاف» .

وعن ضغوطه على العرب للقبول بالتعامل مع اللجنة الأنكلو أميركية يقول عبد العزيز : «وأذكر لكم أمراً واقعاً وهو أن الوزير المفوض البريطاني في جدة زارني بعد انتهاء الحرب بمدة وجيزة ورجاني أن أبذل جهدي لدى العرب لالتزام الهدوء وأقنعني بأن هذا هو خير لمصلحتهم، فلم أدّخر وسعاً في هذا السبيل إلى أن وصلنا إلى الموقف الذي نحن فيه» .

ثم يشكو عبد العزيز للجنة وضعه فيقول : «لقد وقعت الآن في مشكل خطير أمام شعبي وجماعتي وأمام العرب والمسلمين فإذا كانت بريطانيا تريد أن تعدل عن الحق الواضح وأن تذهب مواعيدها أدراج الرياح فليس أمامي إلا أن أقول للمسلمين : دونكم نفسي ، اقتلوني بأبي وأمي ، وأنزلوني عن الملك ، لأني مستحق لذلك . . أنا الذي جنيت عليكم وثبطت عزمكم» .

ويتابع عبد العزيز فيؤكد للجنة «أن الحرب لو كانت بين العرب واليهود لما تأخر العرب دقيقة واحدة عن خوضها ولكن دفاع بريطانيا عن اليهود يجعل الحرب بين العرب وبريطانيا ، والعرب لا يحبون محاربة بريطانيا ، وأعتقد أن حكومة بريطانيا رشيدة عاقلة تدرك حقائق الأمور وتعلم أنه ليس من مصلحتها محاربة العرب أيضاً»[١١٢] .

عبد العزيز والقضية الفلسطينية :

أما القضية الفلسطينية فكان لعبد العزيز دور في أحداثها لا يقل إخلاصاً لمصالح بريطانيا ومن ورائها الصهيونية .

فبعد ضرب حكم الشريف حسين وابنه علي بتحريض من الإنكليز لمعارضتهم منح فلسطين الى اليهود ، أكد عبد العزيز موقفه المنطبق على الموقف الإنكليزي وذلك في المؤتمر الذي انعقد عام ١٩٢٦ بناء على دعوة عبد العزيز «للنظر في أسلوب حكم الحجاز» . فعندما طرحت بعض الوفود الإسلامية اقتراحاً يدعو إلى تطهير البلاد العربية من الحكم الأجنبي على أساس أن يشمل ذلك فلسطين وسوريا والعراق وسواحل الجزيرة العربية ، احتج عبد العزيز على المشروع وأصرّ على حذفه من جدول الأعمال[٧٣] .

وعندما قامت الثورة الفلسطينية سنة ١٩٣٦ ضد بريطانيا التي كانت تمهّد لتسليم فلسطين الى اليهود الصهاينة ، تدخل ابن سعود وتعهد للثوار بأن بريطانيا سوف تستجيب لمطالبهم اذا أوقفوا الثورة وذلك في «النداء» الذي وجهه إليهم وجاء فيه :

« إلى أبنائنا عرب فلسطين

لقد تألمنا كثيراً للحالة السائدة في فلسطين ، فنحن بالاتفاق مع ملوك العرب والأمير عبد الله ندعوكم للإخلاد إلى السكينة وإيقاف الإضراب حقناً للدماء معتمدين على الله وحسن نوايا صديقتنا الحكومة البريطانية ورغبتها المعلنة لتحقيق العدل ، وثقوا بأننا سنواصل السعي في سبيل مساعدتكم » .

ولقد أدى ذلك النداء إلى انقسام في الصف الفلسطيني بين الموافقين والرافضين فانتصر موقف الموافقين .

ولم يكتفِ عبد العزيز «بالنداء» بل هو أرسل ابنه سعوداً ثم ابنه الثاني فيصلاً يرافقه جون فيلبي . واجتمع فيصل بالقادة الفلسطينيين في القدس حيث خاطبهم بقوله : « حينما أرسلني والدي عبد العزيز في مهمتي هذه إليكم . . . كانت فرحتي بلقاء هؤلاء الثوار لأبشرهم أن جهودهم لم تذهب سدى وأن ثورتهم قد

أثمرت بإثارة اهتمام صديقتنا بريطانيا العظمى التي أكدت لوالدي ، حين رأت اهتمامه بفلسطين أنها لن تخيب آمال الفلسطينيين . وبناء على ما عرفته من صدق نوايا بريطانيا أستطيع أن أقسم لكم بالله أن بريطانيا صادقة في ما وعدتنا به وأن بريطانيا تعهدت لوالدي أنها عازمة على حل القضية الفلسطينية » .

ولكن تأكيدات فيصل ، لم تقنع على ما يبدو ، المتنورين من الفلسطينيين اذ أجابه الشاعر عبد الرحيم محمود معبراً عن ريبة الجناح الرافض لوقف الإضراب ، فقال :

يا ذا الأمير أمام عينك شاعر	ضُمّت على الشكوى المريرة أضلعه
المسجد الأقصى أجئت تزوره	أم جئت من قبل الضياع تودعه
حرم تباع لكل أوكع آبق	ولكل أفّاق شريد أربعه
وغداً وما أدناه لا يبقى سوى	دمع لنا يهمي وسن نقرعه

وعندما توجه فيما بعد ، وفد فلسطيني إلى السعودية لإطلاع عبد العزيز على مصير القضية الفلسطينية وكان أعضاؤه يحملون منشورات لإطلاع الشعب السعودي على هذا المصير . لم يسمح عبد العزيز بتوزيع تلك المنشورات بل أمر بجمعها وإحراقها(٧٤) .

وفي سنة ١٩٣٩ أوفد عبد العزيز ابنه فيصلاً الى لندن لحضور مؤتمر لبحث موضوع الهجرة اليهودية الى فلسطين ، وكلف عبد العزيز مستشاره فيلبي بمرافقة فيصل «لإسداء المشورة إليه» . إلا أن دور فيلبي كان أخطر بكثير من مجرد إسداء المشورة . إذ أنه اقترح في المؤتمر «إعطاء فلسطين لليهود» مقابل استقلال البلاد العربية كلها(٧٥) .

في نهاية الحرب الثانية ومع اشتداد حرارة العمل الديبلوماسي حول القضية الفلسطينية ، شارك ابن سعود في المجهودات السياسية ، ولكن على طريقته .

فقد تراسل مع روزفلت بين آذار ونيسان سنة ١٩٤٥ حيث طمأنه الرئيس الأميركي إلى أنه لن يتخذ أي قرار بشأن القضية الفلسطينية قبل الرجوع إلى العرب واليهود(٧٦) .

كما تراسل عبد العزيز مع ترومان الذي خلف روزفلت وراح يدلي بالتصريحات المؤيدة لتسليم فلسطين إلى اليهود . وقد جاء في إحدى رسائل الملك السعودي : « سمعنا في الإذاعة أقوالاً نسبت للرئيس الأميركي (ترومان) عن مستقبل فلسطين واليهود فيها . . ونخشى أن تكون أقوال الرئيس ترومان وصلتنا محرّفة وعلى غير حقيقتها » .

وعندما أخذت تتردد وجهات نظر عربية تطالب الجامعة باتخاذ موقف ضد تأييد أميركا لليهود ، أرسل عبد العزيز بتاريخ ٢٠ آب ١٩٤٥ برقية إلى خير الدين الزركلي ممثله في الجامعة يطالب فيها بأن يجري الاتصال ببريطانيا وأميركا لإقناعهما بدلاً من الإدانة وقد جاء في البرقية : « . . . أنا أسمع دندنة عند العرب قصدهم اجتماع هيئة الجامعة لأجل تبحث مسألة فلسطين فأنا هذا ما هو من رأيي ولا منه فائدة ، لأنه إيش يبحث في المؤتمر ؟ هل يعقد صلح أو يعلن حرب؟» .

ثم يقترح « أن ينتخبوا شخص يروح للندن وشخص يروح لأمريكا ، ويكون أحد هذين الشخصين عبد الرحمن عزام ويكتب معه النقراشي كتباً للخارجية هناك ويقول فيه أنه بالنيابة عن مصر والبلاد العربية ويذكر الأمر اللائق والمناسب في الموضوع . وعندي أنا أن هذا العمل أحسن وألطف حتى يتضح الأمر وتعرفه إيش[٧٧] هو[٧٧] » .

وقبل سفر عبد الوهاب عزام وافق عبد العزيز على إقامة مكتب صحافي تابع للجامعة العربية ولكنه أوصى أن لا يسيء المكتب لأمريكا وبريطانيا ، بل يعمل الى مدحهم واستعطافهم، « ولكن نرجوهم (الصحفيين) أن يتخذوا قاعدة يمشون عليها وهي قاعدة الاعتدال ، ويكون لا يتحاملون على الإنكليز ولا على الأميركان ، ولكن يشوفون الحجج القائمة ويعدونها لهم . . ويمدحونهم بأنهم أهل عدالة وإنصاف فستكون النتيجة أحسن إن شاء الله»[٧٨] .

وعشية اتخاذ قرار تقسيم فلسطين رفض ابن سعود أن يقوم بأي دور جدي لإفشاله ، علماً بأنه كان بإمكانه ذلك إذا ما هدد بقطع البترول عن أميركا كما قال أحد الديبلوماسيين الأجانب . فقد جاء في العدد ٦٣٧ من مجلة «آخر ساعة» المصرية بتاريخ ١٨ أيار ١٩٦٦ بقلم الكاتب الفلسطيني وجيه أبو ذكري :

«انتقـل الصراع إلى الأمم المتحـدة وبدأت أميـركا تلعب لعبتهـا القذرة لتقسيم فلسطين بين اليهود والعرب . ونشط المندوبون العرب لمحاولة إحباط المشروع الذي عرض على الجمعية العامة للمنظمة الدولية . وكان بين العرب الأمير عادل أرسـلان ، وذهب الى أحد الـوفود يستعـطفه ليقف بجـانب الحق العربي . . فقال له الرجل : « لديكم أيها العرب الورقة الرابحة ولكنكم تخشون اللعب بها » وأشار الى وزير خارجية السعودية وكان وقتها الأمير فيصل . وقال له الرجل : « لو ذهب هذا الأمير إلى جورج مارشال وزير الخارجية الأميركية وهدد بقطع البترول إذا ناصرت أميركا اليهود لوجدت هذه القاعة كلهـا تقف بجانب العرب» .

وكانت الوفود العربية قد كلفت وزيـر الخارجيـة السعودي فيصـلاً نفسه بالنطق باسمها في الجمعية العمومية وأوصوه بالحزم والصرامة . ولكن مـوقف فيصل كان أنه لا داعي ولا مبرر لقلقهم ، وأخذ يؤكد لهم معارضة أميركا لتقسيم فلسطين وأنها ستقاوم بكل حزم فكرة خلق دولة يهودية .

وانخدع المندوبون العرب بكلام فيصل على أسـاس أنه صـديق حميم للسفير جورج ودزورث مستشار الوفد الأميركي إلى الأمم المتحدة .

ومن جهة أخرى فإن الوفود العربية أرسلت عشية الموافقة على قرار التقسيم برقية إلى ابن سعود يلحون فيها عليه بإصدار تصريح يهدد فيه بقطع البترول إذا صوتت أميركا على قرار التقسيم ، فمـا كان منـه إلا أن قال : « إن المصـالح الأميركية في السعودية محمية وإن الأميركيين هم من أهل الذمـة وأن حمايتهم وحماية مصالحهم واجب منصوص عليه في القرآن الكريم»[٧٩] .

وكما رفض ابن سعود الاستجابة لمطالب المندوبين العرب، فقد قمع عمّاله في المنطقة الشرقية من الجزيرة العربية في تلك الفترة عندما قاموا بتظاهرة كانت تطالب أيضاً بقطع البترول ، فقـد روى [٨٠] عبد الـرحمن الشمراني أنـه في ١٧ حزيران سنة ١٩٤٧ ، الذي سمّي يوم فلسطين ، قامت تظاهرة في رأس تنورة تندد بالتقسيم وتطالب بقطع النفط عن أمريكا وبريطانيا لدعمهما اليهود . فدعا خادم الأمير تركي العطيشان ، المتظاهرين لمقابلة سيده في مقهى «رحيمة» ، فلما وصلوا ألقى

فيهم الأمير خطاباً جاء فيه : « أنتم تطالبون بقطع البترول عن أصحابنا الإنكليز والأميركان ، والبترول أساساً في أيديهم ، وليس منا من يعرف كيف يقطعه سواهم حتى لو أردنا قطعه ، فهل يعقل أن نقول للأميركان : اقطعوه يا أميركان عنكم ؟ .

ثانياً : إن البترول الذي تطالبون بقطعه واسمه الذهب الأسود ، وقطعه يعني الاكتناز في باطن الأرض ، واكتناز الذهب ينهى عنه القرآن الكريم .

ثالثاً : من الذي سيدفع معاشاتنا ومعاشاتكم لو أصيب الأميركان عندنا بالجنون لا سمح الله وقطعوا البترول عنهم وعن الإنكليز .

رابعاً : اتركوا قضية فلسطين لعبد العزيز يحلها ، وقضية فلسطين عجز عنها الكبار فكيف أنتم يا ها الأولاد الصغار . .

واستمرت الهتافات منا ضد ارامكو والأميركان وعملائهم والصهاينة ، فألقي القبض على مجموعة وأرسلوها في شاحنة قلاب إلى جزار مناطق البترول سعود الجلوي . فقابلنا عبده الأسود فقال : لو ما كنتم صغاراً لقتلناكم ، وضرب كل واحد خمس ضربات بالعصا على ظهره(٨١) .

ولم يكتف السعوديون بهذا بل هم عمدوا إلى مصادرة التبرعات التي جمعت لدعم القضية الفلسطينية بعد أن اعتقل بوليس الأرامكو بعضاً من الذين يجمعون هذه التبرعات واعتقل السعوديون بعضاً آخر وهددوهم بإنزال أقصى العقوبات بهم .

وعندما نشبت حرب فلسطين في ١٥ أيار ١٩٤٨ لم يستطع عبد العزيز أن يواجه الموقف العربي ، ولا سيما منه الموقف الجماهيري ، فأعلن دخول الحرب .

وعلى الرغم من حماس أبناء الجزيرة العربية واندفاعهم إلى التطوع في الجبهات المختلفة ، حيث سقط منهم أعداد كبيرة سجل منها ناصر السعيد أسماء ١٣٧ شهيداً وعدداً كبيراً من الجرحى(٨٢) ، اكتفى عبد العزيز بإرسال عدد هزيل من الجنود غير المدربين قدر ما بين ٦٠ و٢٠٠ جندي ، وقد خلت الجبهة الشرقية

من الوجود السعودي بحجة أن أمير شرق الأردن عبد الله بن الحسين رفض الموافقة على دخول جنود سعوديين إلى أرضه(٨٣).

وكذلك خلت الجبهة الشمالية واقتصر الوجود السعودي الرمزي على الجبهة الجنوبية. ولكن لما ثبت أن الجنود لا يجيدون القتال، أدخلوا مدارس الجيش المصري بعد الهدنة للتدريب.

أما السلاح السعودي فقد تحدث عنه القائد طه الهاشمي رئيس اللجنة العسكرية المنبثقة عن جامعة الدول العربية للاشراف على حرب فلسطين فقال: « أبرقت الحكومة السعودية للجنة العسكرية عن أسلحة معدة لإنجاد فلسطين موجودة في سكاكا بالصحراء في شمال الجزيرة العربية فأرسلت الحكومة السورية طائرات فأحضرت تلك الأسلحة لدمشق وسلمتها إلى المصنع الحربي التابع للجيش السوري لفرزها وتبويبها، فإذا هي أسلحة عتيقة رديئة متعددة الأنواع والأشكال، فيها الموزر والشنيد والمارتيني.. وفيها بنادق فرنسية وإنكليزية وعثمانية، ومصرية ويونانية ونمساوية، وكلها بدون جبخانة ـ ذخيرة ـ ومصدئة خردة لا تصلح للقتال». وأضاف: «إنهم وجدوا بين هذه الخردة بنادق فتيل مما تعبأ بالكحل من فوهتها وتدك من الفوهة أيضاً وأنها من مخلفات حملة الجيش المصري على الوهابيين في أوائل القرن التاسع عشر(٨٤).

هذا ومن أجل التخلص من الإحراج أمام أبناء شعب الجزيرة العربية إذا استمر القتال في فلسطين فقد أخذ عبد العزيز يتصل سراً بأميركا وبريطانيا حاثاً إياهما على دفع العرب والإسرائيليين إلى الصلح حتى ولو اضطروا إلى فرض عقوبات عليهم. جاء ذلك في وثيقة نشرتها وزارة الخارجية الأميركية بعد مرور ثلاثين سنة على تاريخها، وهي عبارة عن تقرير أرسله الوزير الأميركي المفوض في جدة بتاريخ ٨ كانون الثاني ١٩٤٩ حول حديث دار بينه وبين العاهل السعودي في حضور الوزير البريطاني المفوض في جدة صباح السابع من كانون الثاني سنة ١٩٤٩. وقد ذكرت الوثيقة أن عبد العزيز قال إنه يخشى أن يتطور الصراع العربي الإسرائيلي إلى درجة يمكن معها أن يهدد السلام والإستقرار في منطقة الشرق الأوسط وطلب إليهما أن ينقلا إلى حكومتيهما رأيه بضرورة التدخل لفرض السلام بين الدول العربية وإسرائيل. واقترح أن تهدد الدولتان باستخدام مختلف

الضغوط بما فيها فرض عقوبات اقتصادية وعسكرية على الطرفين[٨٥].

وقد كشف فيلبي عن حقيقة موقف ابن سعود من القضية الفلسطينية وذلك في كتابه : « ٤٠ عاماً في جزيرة العرب »[٨٦] ، بقوله : « إن مشكلة فلسطين لم تكن تبدو لابن سعود أنها تستحق تعريض علاقاته الممتازة مع بريطانيا ومع أميركا للخطر » ويضيف فيلبي : « وكان مستقبل فلسطين كله بالنسبة إلى عبد العزيز آل سعود وآل سعود كلهم ، أمراً من شأن بريطانيا الصديقة العزيزة المنتدبة على فلسطين ولها أن تتصرف كما تشاء وعلى عبد العزيز السمع والطاعة ».

وكان أساس الاتفاق لإنشاء الوجود السعودي أن تقوم سياسة آل سعود على أن لا يتدخل الملك عبد العزيز وذريته من بعده بشكل من الأشكال ضد المصالح البريطانية والأميركية واليهودية في البلاد التي تملكها بريطانيا أو تحت انتدابها أو نفوذها ومنها فلسطين ... ولقد أعلن عبد العزيز رأيه بصراحة أن العرب لن يوافقوا على التقسيم أو يعترفوا لليهود بأي حق في فلسطين ولكنهم سيذعنون إذا ما فرضت بريطانيا عليهم التقسيم.

هذا وكشفت الوثائق الأميركية والبريطانية وكتابات فيلبي عن أسرار في مواقف ابن سعود . فقد كتب آرثر لوري ، سفير الكيان الصهيوني في لندن تعليقاً في صحيفة التايمز اللندنية عام ١٩٦٤ ، دافع فيه عن حاييم وايزمان الذي أعلنت وثائق الخارجية الأميركية أنه قدّم رشوة قدرها عشرين مليون جنيه استرليني إلى ابن سعود ليعاونه على إنشاء دولة صهيونية في فلسطين ، مؤكداً أن صاحب الفكرة كان الكولونيل جون فيلبي الممثل الشخصي لابن سعود[٨٧].

وبعد موت عبد العزيز لم تتغير السياسة السعودية تجاه فلسطين . فأولاده من سعود مروراً بفيصل وحتى خالد لم يشاركوا في أية حرب عربية ضد العدو الصهيوني ، بل كان موقفهم يتسم دائماً بالانهزامية ونشاطاتهم موجهة إلى إقناع العرب بل ورشوتهم من أجل الصلح مع كيان العدو.

ففي سنة ١٩٥٨ ، في عهد سعود بن عبد العزيز أرسل ضباط من الجيش برقية إلى وزارة الدفاع تقول إن الزوارق الإسرائيلية ترسو في المنطقة السعودية من

خليج العقبة ، وينزل بحاراتها إلى أراضينا ويتحرش جنود إسرائيل بجنودنا وينزلون كميات من الحشيش يستلمها بعض عملائهم السعوديين لتصريفها في البلاد وعلى الجيش نفسه فأذنوا بإطلاق النار على الصهاينة الأعداء.

فأحال وزير الدفاع البرقية إلى رئيس الوزراء ، فيصل بن عبد العزيز ، فورد منه الجواب التالي : « لا يمكن لليهود أن يعتدوا عليكم ما لم تعتدوا عليهم ، واليهودي لا يساوي رصاصة نخسرها بإطلاقها عليه ، وقد قال الله في محكم كتابه : ﴿ **غلت أيديهم ولعنوا** ﴾(٨٨).

وعندما نشبت حرب حزيران ١٩٦٧ ، التي شنها الكيان الصهيوني على بعض البلدان العربية بدعم من أميركا وأوروبا الغربية ، وقف فيصل القادم من تلك الدول خطيباً في مستقبليه يوم ٦ حزيران فقال :

« أيها الإخوان لقد جئتكم من عند إخوان لكم في أمريكا وبريطانيا وأوروبا تحبونهم ويحبوننا . . . » ولكن الناس قاطعوه مطالبين بقطع البترول ، فإذا بالهراوات تنهال عليهم من جماعته(٨٩).

كما أن فهداً نشط إلى جانب أخيه ، محاولاً إسكات الأصوات المطالبة بتحرير الأقصى والقدس . فقد روى الشيخ أسعد التميمي ، وهو أحد تلك الأصوات ، وقد كان إمام المسجد الأقصى قبل هزيمة ١٩٦٧ ، أن الأمير فهداً أرسل إليه بواسطة السفارة السعودية في الأردن مليون دولار مقابل سكوته ولكنه رفضها(٩٠).

وعندما زار السادات القدس في تشرين الثاني ١٩٧٧ ، كان مطمئناً إلى أن السعوديين لن ينضموا إلى البلدان العربية الأخرى في مهاجمة مبادرته ، وكان توقع السادات في محله . فقد ذكر سايروس فانس وزير خارجية الولايات المتحدة الأميركية في ذلك الوقت(٩١) أن السعودية والأردن « قد لجأتا إلينا (إلى الأميركان) طلباً لمساعدتنا في البناء على مبادرة السادات قبل أن يلفظ في العالم العربي الأمر الذي سيضطرهم إلى إعلان الخصومة ضده».

ولكن الأميركيين شجعوهما على الصمود حيث يذكر فانس نفسه أنه استحثّ السعوديين في ربيع سنة ١٩٧٨ على أن لا يستسلموا للضغوط من أجل

القطيعة مع السادات إفساحاً في المجال « أمام الرئيس المصري ليتابع خطواته »[٩٢] .

أما علاقة آل سعود مع الشخصيات الصهيونية فيكفي للتدليل عليها هذا الخبر الذي نشرته الصحف الأميركية ومنها صحيفة سياتل بوست انتلجنس اليومية بتاريخ ١٢ شباط ١٩٨٥ عن حفل استقبال الملك فهد في أميركا والذي جاء فيه : « وقد دعي إلى حفل استقبال الملك جمع من رجال الإعلام بينهم فرانك المدير العام لمؤسسة هاآرست المؤسسة الصهيونية التي تصدر الصحيفة اليومية هاآرست في الأرض المحتلة » .

ومهما يكن من أمر فإن السعوديين لم يخفوا استعدادهم للصلح مع العدو الصهيوني . فبعد مصرع فيصل وتولي أخيه خالد الحكم ، أدلى الملك وولي عهده فهد بتصريح في ١٥ حزيران ١٩٧٥ جاء فيه : « إن السعودية على أتم الاستعداد للاعتراف بإسرائيل . . . ولكن على إسرائيل أن تحل مشاكلها مع جيرانها وتتدبر أمرها مع الفلسطينيين » . ولما سألتهما الصحيفة عن معنى «تدبر الأمر» قالت إنّ فهداً قال : « إسرائيل أدرى بشؤونها » .

فتوى ابن باز الأخيرة:

أما اليوم وبعد بدء المفاوضات العربية مع العدو الصهيوني فتقوم السعودية بدور مسهّل وممهّد للصلح معه وهي تستعجل رفع المقاطعة الاقتصادية العربية عنه .

وإذا كان هذا الدور لم يعد مستغرباً من عامة الحكام العرب، إلا أن العنصر الملفت للنظر في هذه المسألة هي فتوى عبد الله بن باز المفتي العام السعودي والتي أحلت الصلح مع العدو والتعامل معه، فيما السعودية لا تعدو كونها دولة عربية كسائر الدول التي لا تعاني من الاحتلال ولا من التهديد العسكري، وهي بالتالي غير مغلوبة على أمرها .

فيلبي وابن سعود :

لم يكن الإنكليز ليتركوا الصداقة التي تربط ابن سعـود بهم تحت رحمة الظروف بل هم كانوا يرعونها بواسطة الكولونيل سان جون فيلبي الذي بدأ يشرف على تنفيـذ ابن سعود للمهمـات المنوطـة به منـذ سنة ١٩١٧ عنـدما قـدم لـه الأسلحة ، ومن ثم المال لقتال ابن رشيد . وهو الذي طرح وساطته بين ابن سعود والشريف عندما زحف الأول على الحجاز فاستطاع أن يطلع على أوضاع الجيش الشريفي ليضع لعبد العزيز الخطط الكفيلة بالقضاء عليه . فبعد أن زار جدة أكّد فيلبي لابن سعود أنها « من الناحية العسكرية عاجزة عن الصمود كما أكّد له أن غالبية أهلها يريدون نهاية سريعة » .

ومنذ بداية ١٩٢٦ أصبح فيلبي المستشار الخاص لابن سعود فبقي ملازماً لـه طيلة حياتـه ، ولا سيما في الثلاثة والعشـرين عامـاً الأخيرة ، فعنـدمـا أقعـد الملك المرض كان فيلبي لا يبارح مجلسه(٩٣) .

وقد حجّ عبد الله فيلبي سنة ١٩٣٠ برفقة ثلاثة من كبار رجال ابن سعود وهم عبد الله السليمان وزير المالية وفؤاد حمزة مدير عام الخارجية وصالح العنقري حيث أعلن إسلامه في السادس من آب ! .

هذا وقد أشرف فيلبي إشرافاً مباشراً على إعداد فيصل بن عبد العـزيز ، وكانت أول مهمة يصحبه فيها ، إبان سفره إلى لندن وهو ابن أربع عشرة سنة ، وهو الذي رشحه عندما أنشئت وزارة الخارجية لتسلمها سنة ١٩٣٩ ، ثم رافقه إلى المؤتمر الخاص بالهجرة اليهودية سنة ١٩٣٩ ، كما رأينا.

ولكن من هو فيلبي هذا الذي لم ينته دوره إلا بنهاية عبد العزيز ؟ .

يجيب ناصر الفرج في كتابه : « قيام العرش السعودي » . ولد هاري جون سانت فيلبي (الحاج عبد الله) في ٣ نيسان ١٨٨٥ في جزيرة سيلان وانتقل إلى بريطانيا سنة ١٨٩١ وأكمل دراسته في جامعة كمبـردج سنة ١٩٠٧ ، ثم درس التاريخ والقـانون الهنـدي ، وتعلم اللغات الفـرنسية والألمـانية والهنـدستانيـة والفارسية والعربية ، وعاد إلى الشرق ضمن أفواج المخابرات البريطانية ، أمثال كتشنر ولورنس ومكماهون ، وكوكـس ومس بل وكـلايتون ، وغلوب وولسـون

وديكسون وكرنواليس وشكسبير وغيرهم ، وهو أبو كيم فيلبي الذي كان مسؤولاً كبيراً في جهاز المخابرات البريطانية عندما لجأ إلى الاتحاد السوفيـاتي ، الأمر الذي يؤكد الظنون بأن هذه الأسرة تهوى العمالة المزدوجة حيث أن الأب ربما كان عميلاً أميركياً أيضاً .

وقد عمل فيلبي في السعودية أربعين سنة متواصلة .

وعلى الرغم من أن فيلبي تظاهر بالإسلام وزار البيت الحرام ، إلا أنه كان يعترف في مناسبات عديدة بأنه يعمل لصالح الاستخبارات البريطانية ، (ولكن دون أن يشير إلى أي ارتباط بأميركا) .

فهو يذكر أنه في عام ١٩١٨ كان مع ابن سعود في الدهناء ، وكان يعمل وينام في خيمته التي كان يجتمع إليه فيها الكثيرون من أتباع ابن سعود فيدخنون (والتدخين محرم وهابياً) ويستمع هو إلى أقوالهم ويضمن ما يهمه منها تقارير يرفعها إلى رؤسائه .

كما يذكر أنه كان في بغداد ، بعد رحلته الأولى إلى نجد . . وهو يجمـع الوثائق ويصنف الأحداث ويرتب الوقائع ليضعها في تقـرير رسمي يقـدمه إلى المنـدوب السامي البريطاني الجديد ولسون .

كما أنه قضى وقتاً في وزارة الخارجية البريطانية منذ عام ١٩١٩ وهو يعد الخرائط اللازمة عن الأماكن التي تجول فيها من جزيرة العرب .

وهو أخيراً يقول ، إنه بعد نشوب الحرب الكونية أي مطلع أيلول ١٩٣٩ تلقى عرضاً من سلطات المخابرات في وزارة الحرب البريطانية بأن يكون مندوباً عنها في البلاد العربية وأن ينقل إليها ، ردود فعل العرب تجاه الحرب[٥٩] .

مكافآت بريطانيا لابن سعود :

وفي مقابل خدمات ابن سعود كانت بريطانيا تدفع له كما رأينا خمسة آلاف جنيه استرليني في الشهر ثم زادتها لاحقاً وذلك الى جانب التقدمات الطارئة في المناسبات .

فقد قدمت له مثلاً بواسطة مكتب الهند ٧٥ ألف روبية كما يقول الميجر

ديكسون في كتابه «الكويت وجاراتها» . ولما لاحظ زعماء البدو ذلك أخبرهم بأن هذه جزية يدفعها له أهل الذمة الإنكليز[٩٦] .

وبعد بداية الحرب الأولى وقبل معركة «جراب» مع آل الرشيد المؤيدين للسلطة العثمانية قدمت بريطانيا لابن سعود سنة ١٩١٥ ثلاثمائة بندقية تركية وعشرة آلاف روبية .

وفي سنة ١٩١٩ قدمت له ألف بندقية مع عشرين ألف جنيه استرليني ومايتي ألف طلقة[٩٧] .

هذا وكانت بريطانيا تحض عبد العزيز ليكون رجلها الأساسي في المنطقة العربية لتضمن ولاءه لها .

فبعد أن زكاه كل من ديكسون وشكسبير وفيلبي ، قدمت له المساعدات في كل المشاريع التي حققها . كما أن الإنكليز واليهود من ورائهم كانوا يتوسمون فيه القدرة على القيام بهمات أكبر .

فقد ذكر الأميركي «فيليب إيرلند» في كتابه «العراق ، دراسة في تطوره» أنه اقتُرح عددٌ من الأشخاص لتولي منصب ملك العراق كان من بينهم عبد العزيز آل سعود . كما أشار خيري حماد إلى نفس الموضوع فقال : إن فيلبي اقترح أن يسلم العراق إلى أمير سعودي ، الأمر الذي يجعل عبد العزيز حاكمه الفعلي . كما اقترح فيلبي ضم الكويت إلى ممتلكات ابن سعود . ولكن برسي كوكس أعطاه ثلثيها فقط في اتفاقية ١٩٢٢ .

ويؤكد فيلبي أنه لولا أن قتل الكابتن شكسبير في معركة «جراب» لكان هو الموجه «للثورة العربية» وكان عبد العزيز هو المنفذ .

هذا ويذكر السفير السعودي المصري الأصل حافظ وهبي في كتابه « خمسون عاماً في جزيرة العرب» قوله : « سمعت من السير فيروزنون وبعض أصدقاء تشرشل أن تشرشل ينوي بعد الحرب العالمية الثانية أن يجعل من الشرق العربي اتحاداً فيدرالياً يكون ابن سعود رئيسه» .

وتحدث وايزمن أول رئيس لدولة العدو الصهيوني في الموضوع عينه في

كتابه «التجربة والخطأ» فقال : دخلت على تشرشل فناداني قائلاً : « أريد منك أن تعرف أنني قد أعددت ترتيباً خاصاً لا يمكنني أن أقدم على تنفيذه إلاّ بعد أن تضع الحرب أوزارها بصورة نهائية . فأنا أريد أن أجعل من ابن سعود سيد الشرق الأوسط كافة ، ورئيس الرؤساء بشرط واحد وهو أن يجري تسوية معكم وسيترتب عليكم أن تحصلوا منه على أحسن ما يمكنكم من الشروط ، وبالطبع نحن سنساعدكم ، فليكن حديثنا هذا طي الكتمان ، ولكن بوسعك أن تبحث الموضوع مع روزفلت عندما تصل إلى أميركا . وبعد شهرين قابلت سان جون فيلبي فقال لي : أعتقد أن قضيتكم لا يمكن حلها إلا بشرطين .

أولهما أن يقوم المستر تشرشل والرئيس روزفلت بإبلاغ ابن سعود رغبتهما في تنفيذ برنامجكم . وثانيهما أن يؤيدا سيادته على البلدان العربية ، وأن يقدما له قرضاً يمكنه من إعمار بلاده[٩٨] » .

ويبدو أن مواقف فيلبي باسم السعودية ، من قضية فلسطين ، ناهيك عن مواقف عبد العزيز نفسه ، كانت تنفيذاً لهذا البرنامج . وقد احتج موسى العلمي مندوب الهيئة العليا لفلسطين إلى الملك عبد العزيز بسبب تأييد فيلبي لمشروع تقسيم فلسطين معتبراً أنه يعبر بذلك عن موقف عبد العزيز نفسه[٩٩] .

أما لماذا فشلت مشاريع تنصيب عبد العزيز على العرب حاكماً ، فيبدو أن بروز أميركا من جهة ، وهي لم تعد بذلك ، وبلوغ بريطانيا أهدافها بطريقة أسهل ، لم تتكلف فيها مجابهة الزعماء العرب الآخرين ، قد جعلت آمال عبد العزيز في هذا المجال أضغاث أحلام ، وبقي ابن سعود بمثابة أمير محمية بريطانية كسائر محميات الخليج تمثله بريطانيا في الخارج ولا يستطيع الاتصال بالحكومة البريطانية إلا بواسطة موظفيها في الهند.

وبقي الوضع على هذا الشكل حتى عام ١٩٣٢ حيث أقيمت أول مفوضية للسعودية في الخارج ، وكانت في لندن . وقد ذكر الوزير السعودي المفوض حافظ وهبة أسباب إقامة هذه المفوضية في مذكرة رفعها في ٥ آذار ١٩٣٢ إلى وزير الخارجية البريطانية جاء فيها: «إن تاريخ علاقات جلالة الملك ابن سعود مع الحكومة البريطانية مفعم بالبراهين على العلاقات الحسنة مع الحكومة

البريطانية وأن حرص جلالة الملك على تقوية علاقاته مع الحكومة البريطانية هو الذي دفعه للإلحاح على تبادل الوزراء المفوضين . . » .

السعودية في العصر الأميركي :

بدأ الدخول الأميركي الى السعودية من الباب الاقتصادي قبل الحرب العالمية الثانية وتحديداً سنة ١٩٣٣ عندما منح عبد العزيز شركة كاليفورنيا حق التنقيب عن البترول في مساحة قدر ٣٦٠٠٠٠ ميل مربع أي حوالي ٤٥٪ من مجموع أرض المملكة.

وقد جرى التمهيد لذلك عن طريق زيارات قام بها بعض العملاء السريين ورجال المال الأميركيين . فقد قام أمين الريحاني بـ «سياحة» في المملكة بحجة الكتابة عن البلاد العربية ، وتتالت الرحلات والزيارات الاستطلاعية ، وكان آخرها تلك التي قام بها المليونير الأميركي مستر كراين الذي سمى نفسه « صديق العرب » ، تحت ستار تقديم المشورة الجيولوجية لاستخراج الماء من أعماق الصحراء .

وكان السبب الاقتصادي الرئيسي وراء هذه الزيارات المنافسة للاستيلاء على الذهب الأسود والتي كانت بدأت تشغل الأوساط الاستثمارية منذ ما قبل الحرب العالمية الأولى ، أي منذ احتلال الأتراك لمنطقة القطيف في العشرين سنة الأخيرة من القرن التاسع عشر ، إذ أرسل المتصرف التركي في القطيف إلى اسطنبول تقريراً حول وجود الزيت ، وقد اطلع ديسكون على نسخة من هذا التقرير سنة ١٩٢٠[١٠٠] .

وهكذا بدأ التغلغل الاقتصادي الأميركي إلى المملكة التي ستصبح مملكة الزيت في ما بعد على حساب النفوذ البريطاني الذي كان قد ساد منذ زمن طويل . ولعل التراجع الإنكليزي أمام الاندفاع الأميركي كان الثمن الذي اضطرت بريطانيا إلى دفعه مقابل إنقاذ أميركا لها ولحلفائها في الحرب العالمية الأولى . ولكن الأمر المثير للانتباه على هذا الصعيد هو أن فيلبي نفسه كان يشجع ابن سعود على التعامل مع الشركات الأميركية بدلاً من البريطانية ، فكانت مكافأة هذا

الضابط الكبير أن انتدبته المصالح الأميركية لاجتياز الربع الخالي بحثاً عن البترول ، تمهيداً لإرسال فرقها الجيولوجية ، التي ستنطلق بتاريخ ١٧ أيلول ١٩٥١ من الزاوية الشمالية الشرقية باتجاه الجنوب والغرب ، وهو الانطلاق الذي طرح مشكلة واحة البريمي الغنية بالبترول والواقعة على مشارف تلك المنطقة ، ويتنازع السيادة عليها كل من سلطان مسقط وشيخ أبو ظبي فيما كانت تتمتع بشيء من الاستقلالية في ظل سيادة إمام عمان الشرعي .

وفي سنة ١٩٣٤ دفعت شركة الزيت السعودية ـ الأميركية ، عبد العزيز إلى ادعاء السيادة على البريمي على أساس أن أجداده احتلوها منذ أكثر من قرن من الزمان ، بينما تشبثت بريطانيا بملكيتها لحساب شيخ أبو ظبي الواقع تحت حمايتها .

وقد جرت مفاوضات سعودية ـ بريطانية في أوائل الخمسينات حول المنطقة ثم اتفق على إحالتها إلى التحكيم .

وفي هذه الأثناء قام العميل الأميركي «رنس» بدراسات دقيقة جغرافية وجيولوجية للمنطقة ورصدت الآرامكو أموالاً طائلة لرشوة القبائل في البريمي لكسبها إلى جانب السعودية . وقد بلغ مجموع ما دفعه السعوديون من رشاوى ما بين آب ١٩٥٤ وتشرين الأول ١٩٥٥ فقط مبلغ مليون وثلاثماية واثنين وعشرين ألفاً ومايتين وتسعين روبية وذلك على سبع دفعات . هذا وقد عرض أحد العملاء ويدعى عبد الله القريشي على الشيخ زايد بن سلطان حاكم أبو ظبي في ٢٦ تموز ١٩٥٤ ، كما يروي الشيخ نفسه ، سيارة جديدة وأربعين ألف روبية إضافة إلى أربعماية مليون روبية من عائدات البترول . وقد تم العرض بواسطة شخص يدعى براك فيما كان عبد الله القريشي يعمل كاتباً عند الأمير تركي بن عطيشان الذي كلف بشراء الذمم في المنطقة .

ولما أحست الحكومة البريطانية أن السعوديين سيفوزون في التحكيم لصالح آرامكو انسحب ممثلها ألسير ريدر بولارد من هيئة التحكيم في أيلول ١٩٥٥ واحتلت قواتها المنطقة باسم شيخ أبو ظبي .

وفي كانون الثاني عام ١٩٦٣ وافقت بريطانيا على حل المشكلة تحت

إشراف الأمين العام للأمم المتحدة بصفته الشخصية ، وتم ذلك بعد التسوية السرية التي جرت بين أميركا وبريطانيا بشأن مستقبل الجزيرة والخليج وضمان المصالح النفطية الإنكليزية فيهما[١٠١] .

ولكن بريطانيا لم تسلم بعد حل مسألة البريمي ، بالهزيمة على مستوى المنطقة ، بل هي عملت على استعادة نفوذها وتأكيده خاصة في الحرب العالمية الثانية مستغلة الضائقة المالية التي تعرض لها ابن سعود بسبب تضاؤل موارد الحج ، فأخذت تقدم له المساعدات ، فبلغت سنة ١٩٤٤ وحدها أربعة ملايين جنيه . ولكن الأرامكو تنبهت للأمر فأوصت الحكومة الأميركية بالتصدي ، فتحركت الولايات المتحدة مستفيدة من الحاجة البريطانية إلى الدعم العسكري والمالي ، فعرضت على بريطانيا تقديم المساعدات لابن سعود باسم أميركا ، وذلك من ضمن المساعدات التي تنالها بريطانيا نفسها[١٠٢].

وهنا أصبحت بريطانيا أكثر واقعية أمام التفوق الأميركي ، فعملت على التشبث بمصالحها في مجالات أخرى. فهي استمرت في توثيق صلاتها بالحكومة السعودية عن طريق التعاون المخابراتي والتسليحي ، وكذلك عن طريق العلاقات الشخصية مع الأمراء الذين يترددون باستمرار على العاصمة البريطانية ، سيراً على التقليد القديم في الحج الى هناك وعرفاناً بالجميل ، خصوصاً وأن أول وارثين لعبد العزيز ، سعود وفيصل ، تنعّما كأبيهما بالأوسمة البريطانية . فقد أنعمت السلطات البريطانية على عبد العزيز كما رأينا بوسام نجمة الهند سنة ١٩١٦ ثم بالوشاح الأكبر من وسام الحمام سنة ١٩٣٥ . كما أنعمت على سعود بالوشاح الأكبر من وسام الأمبراطورية البريطانية ، ثم أنعمت على فيصل بوسامين من أوسمة الأمبراطورية هما وسام فارس سان ميشال وجورج والوشاح الأكبر من وسام الأمبراطورية البريطانية ، وقد تم ذلك في حياة والدهما[١٠٣].

إلا أن المصالح الحقيقية للمملكة ولحكامها أصبحت بكل تأكيد في أميركا ، وذلك لسبب بسيط هو أن المؤسسات الأميركية كانت أكثر سخاء بما لا يقاس من الجهات الإنكليزية .

وإذا كان المدخل الأميركي الأول الى السعودية اقتصادياً فهو كان فاتحة

للتدخل الشامل بأوجهه العسكرية والسياسية وغيرها حتى لتكاد السعودية أن تكون اليوم مملوكة في شؤونها العامة للأميركيين في ما يقتصر دور الأمراء على التمتع والتنعم وتطبيق القوانين الداخلية من قطع الرؤوس والأيدي والأرجل على الناس ، وإذا كانت المقررات الأساسية تصدر بتواقيعهم ، فإن الأيدي التي توقع تحركها الأعصاب المرتبطة بالدفاع الأميركي . وسنلقي في ما يلي نظرة على مجالات التدخل الأميركي في مملكة الوهابيين الذين ذبحوا المسلمين حيث ثقفوهم تمهيداً لما آلت إليه الأمور اليوم .

أميركا والنفط السعودي :

لم تكن المنافسة متكافئة بين المصالح الأميركية والبريطانية ، فالشركات الأميركية أغنى بما لا يقاس ، كما أن الحكومة الأميركية هي التي كانت تنقذ الأوروبيين إبان الحربين العالميتين لينتهي الأمر بأن تحل مصالحها محل مصالحهم أو تشاطرها على الأقل مناطق النفوذ بقوة.

وكان من أهم المجالات التي تأثرت باختلال موازين القوى الكاسح لمصلحة أميركا هو مجال الامتيازات النفطية في العربية السعودية كما يتبين من وقائع الصراع بين الشركات المختلفة.

فبعد الحرب الأول عرض الميجر هولمز (وهو نيوزيلندي كان يعمل في الجيش البريطاني في العراق) على عبد العزيز مبالغ كبيرة نسبياً من المال مقابل إعطائه امتياز التنقيب عن النفط . ولكن برسي كوكس المقيم البريطاني في الخليج صرف الميجر هولمز عن الموضوع لصالح صديقه رئيس شركة النفط الأنكلو ـ فارسية اللورد أرنولد ويلسون .

إلا أن هولمز لم ييأس ، فوسّط العميل الأميركي أمين الريحاني فأقنع ابن سعود بإعطائه الإمتياز . ولكن هولمز ما لبث أن فشل ولم يتضح ما إذا كان فشله عائداً إلى عدم العثور على النفط بكميات تجارية أو لسبب مضايقات برسي كوكس له .

وفي سنوات ١٩٣٠ ـ ١٩٣٢ ، حلت بابن سعود ضائقة مالية بسبب

انخفاض أعداد الحجيج ، فشكا هذا الوضع إلى جون فيلبي قائلاً : « لماذا يا شيخ فيلبي توقف أصحابنا الإنكليز في البحث عن الزيت ؟ إني مستعد لأرهن بلادي مقابل عشرة آلاف جنيه ، إنني بحاجة للمال يا شيخ فيلبي ».

ولكن فيلبي أثار أمامه المصاعب عن التنقيب والتثبت ، ثم عن وجود الرساميل ، ليصار بعدها إلى بيع الامتيازات فأجابه الملك : « يا فيلبي إذا وجدت من يعطيني مليون جنيه فأنا أعطيه كل الامتيازات التي يطلبها». ووعد فيلبي عبد العزيز بأنه سيتصل نيابة عنه بالشركات الأميركية وبأنه قد يكون المبلغ الذي سيحصل عليه كبيراً . فوافق عبد العزيز وأبلغه بتاريخ ٢٣ شباط ١٩٣٢ رسالة يعرب له فيها عن ثقته به ويأمل منه أن يحمي المصالح السعودية كما يحمي مصالحه الخاصة[١٠٤].

وفي عام ١٩٣٢ أخذت شركة ستاندار أويل أوف كاليفورنيا تنتج الزيت في البحرين. ووصل مندوبو الشركة إلى الإمارة لتوقيع عقود الامتيازات وكان ذلك تهديداً خطيراً للمصالح البريطانية .

واتصل الفريقان الإنكليزي (الشركة الأنكلو إيرانية) والأميركي (ستاندار أويل أوف كاليفورنيا) بالملك عبد العزيز . إلا أن الأميركيين عمدوا إلى كسب مستشاري الملك وعلى رأسهم جون فيلبي الذي عرض عليه ممثل الشركة لويد هاملتون مبلغ ألف جنيه شهرياً إضافة إلى مكافآت أخرى في ما بعد ، فقبل فيلبي على أساس أن يبقى الأمر سراً[١٠٥] ، ولما حاول الإنكليز كسب فيلبي امتنع بحجة الحياد في هذه المواضيع .

وانتهى أمر الامتياز بإجراء مفاوضات قصيرة بين وزير المالية السعودي «عبد الله السليمان» و«لويد هاملتون» ممثل شركة ستاندار أويل أوف كاليفورنيا ، أدت إلى توقيع الامتياز.

ويصف فيلبي طريقة التوقيع فيقول : إن وزير المالية اجتمع إلى ابن سعود ليقرأ له صيغة الاتفاقية فكان الملك يغفو أثناء القراءة ، وأخيراً صحا من غفوته وإذا بالوزير ما زال يقرأ . فالتفت الملك إلى فيلبي وسأله رأيه ، وحين أبدى موافقته ورضاه أمر الملك وزير المالية بالتوقيع قائلاً : « ثق بالله ووقع » . فوقع

الوزير وصدر المرسوم الملكي رقم ١١٣٥ بتاريخ ٢٩ أيار ١٩٣٣ بإعطاء الامتياز إلى الشركة الأميركية[١٠٦] .

وبعد الحصول على الامتياز أخذت الاكتشافات البترولية الأميركية تتوالى بدءاً من سنة ١٩٣٥ حتى عشية الحرب الثانية . وقد زادت الحرب الطين بلة على عبد العزيز ورمت به رمياً في أحضان الأميركان . فأعمال الحفر والتنقيب تقلصت كما أغلقت الآرامكو أبوابها ، وانخفض عدد الحجيج وشحّ المطر فأثر ذلك على موسم «الزكاة» وسائر أنواع الضرائب والمكوس . ولما حاولت بريطانيا إنقاذ الملك بدفع مبلغ مئة ألف جنيه استرليني كقرض سنة ١٩٤٠ كانت الآرامكو قد سبقتها فقدمت في سنتي ١٩٣٩ و١٩٤٠ مبلغ ٤,٦٩٢,٦٨٠ دولار[١٠٧]، كما وافقت تلك الشركة على دفع سلفة تقدر بثلاثة ملايين دولار إلى عبد العزيز سنة ١٩٤١ ووعدت بمساعدات أخرى إذا ما استمرت الحال على ذلك المنوال .

ومن جهة ثانية عملت الآرامكو على دفع الحكومة الأميركية إلى مساعدة عبد العزيز وذلك بسبب أهمية السعودية الاستراتيجية بالنسبة إلى الولايات المتحدة الأميركة فعقد روزفلت اتفاقية مع الآرامكو لشراء البترول لحاجات الأسطول الأميركي لمدة خمس سنوات ، فتوفر للشركة بذلك مبالغ استطاعت أن تخصص منها ستة ملايين دولار للملك[١٠٨] .

وفي المقابل أخذت الحكومة البريطانية تقدم القروض بسخاء لابن سعود فتجاوزت قروضها مبلغ سبعة ملايين دولار سنة ١٩٤١ . واقترح هوبكنز مساعد الرئيس الأميركي على بريطانيا أن تدفع لابن سعود ضمن قرض الإعارة والتأجير الذي كانت دفعته أميركا لبريطانيا والبالغ ٤٠٠ مليون دولار ، ولكن بريطانيا طلبت من الولايات المتحدة أن تمد ابن سعود من غير هذا القرض إذا شاءت . واقترح أن تقدم الولايات المتحدة قرضاً لابن سعود بموجب قانون الإعارة والتأجير نفسه الذي كان أقره الكونغرس لمساعدة حلفاء الولايات المتحدة «الديمقراطيين» .

وقد بلغ ما قدمته بريطانيا لابن سعود بين سنتي ١٩٤٠ و١٩٤٣ (٣٤,٣٩٧,٧٨٠) دولاراً ، بينما بلغ ما قدمته الآرامكو (٧,٨٠٠,٨٨٤) دولاراً . وهكذا فقد بدأت الشركة تخشى من ازدياد نفوذ بريطانيا في السعودية

لأنها هي التي تقدم مباشرة القسط الأوفر من المال على الرغم من أن هذا المال أميركي ، فأخذت تمارس الضغوط على الحكومة الأميركية فنجحت في دفع روزفلت إلى توسيع مدى قانون الإعارة والتأجير ليشمل السعودية على أساس « أن الدفاع عن العربية السعودية هو أمر حيوي للدفاع عن الولايات المتحدة»[١٠٩] ، ولكن الأزمة كانت في كيفية إقناع الكونغرس الأميركي أن ابن سعود ديمقراطي ليستحق المساعدة بعد تعرضه لعدوان فاشي ، ولكن الكونغرس الذي يخضع للكتل الضاغطة واللوبيات لم يكن صعب المراس ، فمرّر المسألة بسهولة.

وكان من نتيجة ذلك أن تحملت أميركا تسديد ديون ابن سعود إلى بريطانيا كما مدته بقروض أخرى مقابل عقود إيجار لمناطق سعودية أخرى.

الدخـــول العسكـــري :

عقدت أميركا مع ابن سعود أثناء عمليات إنقاذه المالية اتفاقية عسكـرية قضت بإرسال بعثة أميركية لتدريب الجيش السعودي . وبدأ الأميركيون بإنشاء مطار حربي في الظهران ، قرب حقول النفط بالاستقلال عن بريطانيا ، فأقيمت أكبر قاعدة أميركية ما بين المانيا واليابان[١١٠].

ولما أبدت السلطات البريطانية تخوفها على مصالحها البترولية في الخليج أفهمها الأميركيون أن لا تراجع عن خطواتهم فرضخت[١١١] . وفي كانون الثاني ١٩٤٥ ، بعد مؤتمر يالطا الذي قسَّم العالم إلى مناطق نفوذ للدول الكبـرى ، حيث فازت أميركا بحصة الأسد ، استدعى روزفلت عبد العزيز للاجتماع به على ظهر الطراد الأميركي كونيـري في مياه الإسمـاعيلية ، فـوصل الملك في ١٥ شبـاط . ولقد كـان الملك الذي يستجـدي القروض ، كـريمـاً مـع مستقبليـه الأميركيين ، ففقد أهدى كل بحار أربعين دولاراً وكل ضابط ستين دولاراً ولباساً عربياً وساعة ذهبية ، وأهدى القبـطان خنجراً ذهبيـاً ، فأهـداه القبطان منـظاراً ورشاشين . وعندما أبدى عبد العزيز إعجابه بالكرسي ذي العجلات الذي كان ينتقل عليه روزفلت ، أهداه الرئيس الأميركي كرسيه الاحتياطي ، ووعده بإرسال طائرة تتسع له ولعدد مختار من أسرته . وبالمقابل قدم ابن سعود لروزفلت سيوفاً وخناجر مرصعة بالجواهر وعقوداً في قوارير مزخرفة[١١٢].

ولم ينس ابن سعود في الاجتماع أن يسر إلى الرئيس الأميركي أنه تلقى رسالة من تشرشل يطلب منه فيها الاجتماع إليه ، وقد جرى الاجتماع بعد يومين في فندق الأوبرج . لكن مناورة تشرشل لم تأت بالنتائج المرجوة لأن بريطانيا التي خرجت منهكة من الحرب ، لم يكن بمقدورها منافسة المصالح الأميركية ، التي لم تكن تتمتع بالملاءة والكفاءة للقيام بمشاريعها الخاصة فقط ، بل وكذلك في إعمار أوروبا نفسها بواسطة مشروع مارشال .

هذا ولم يمض شهر على لقاء ابن سعود بروزفلت وتشرشل حتى أتم الملك السعودي استعداداته لإعلان الحرب على دول المحور[١١٣] . وبعد الحرب أخذت السعودية ترتمي بشكل متسارع في أحضان أميركا . فتلت السيطرة الأميركية على البترول سيطرة على سائر الموارد الطبيعية ، ثم سيطرة في مجال التسليح وإقامة المنشآت العسكرية . فمن صفقات النقل الجوي سنة ١٩٦٥ إلى صفقات الدفاع الجوي سنة ١٩٦٧ إلى عقود الآليات سنة ١٩٦٨ إلى صفقات المدرعات والدبابات عام ١٩٦٩ إلى صفقات المدفعية والذخائر في نفس العام إلى صفقات إنشاء القواعد العسكرية في كل من خميس مشيط وتبوك إلى صفقات الأسلحة بالمبالغ الخيالية التي بلغت عشرات مليارات الدولارات في العقدين الأخيرين والتي تضمنت فيما تضمنت شراء طائرات الأواكس وغيرها من الطائرات المتطورة التي يشرف عليها الخبراء الأميركيون ويقودها ضباط سلاح الجو الأميركي .

هذا وقد دفع السعوديون في حربي الخليج الأولى والثانية مبالغ أدت بخزينتهم إلى العجز رغم الانتاج الهائل للبترول السعودي ، حتى أن أميركا المطالبة بالمال أخذت تضغط على الأمراء لوقف الهدر وربما إلى الدفع من أموالهم الخاصة .

ولكن الملفت أن الجيش السعودي على الرغم من كل هذه التجهيزات وما أهدر فيها من أموال تبلغ أضعاف كلفتها الحقيقية ، لم يمتنع عن المشاركة في أية حرب عربية ضد العدو الصهيوني فقط بل هو عجز عن أبسط المهمات كما تبين في معركة الحرم الشريف سنة ١٩٧٩ .

الاستخدام الأميركي لموارد السعودية بشكل عام :

وبالإضافة الى كل ما ذكر ، راحت السعودية تشكل خزانة لدعم الاقتصاد الأميركي ، ليس فقط عن طريق الإيداعات الهائلة في البنوك ، ولا عن طريق تنشيط بعض الصناعات المتصلة بصفقات الأسلحة وغيرها ، أو بالخدمات والمشاريع التي تنفذ في المملكة ، وما إليها ، بل عن طريق توفير احتياطي مالي لبعض الأجهزة التي تكبل القوانين الأميركية نشاطها بعض الأحيان بحرمانها من المال اللازم لهذه النشاطات . وهكذا فقد أمنت السعودية تغطيات للعمليات الأميركية ضد النفوذ السوفياتي والثورات المرتبطة به ، وضد سائر محاولات التحرر من الهيمنة الأمبريالية الغربية. فقد نشرت صحيفة نيويورك تايمز بتاريخ ٢١ حزيران ١٩٨٧ أن المملكة العربية السعودية ساعدت الولايات المتحدة الأميركية في الدفاع عن المصالح الغربية بدفع مليارات الدولارات لمساندة المقاومة المناهضة للماركسية خلال العشرين سنة الماضية ، وأشارت الصحيفة إلى أن مساعدات السعوديين قد استخدمت بصفة عامة حينما كانت السلطة التنفيذية في أميركا عاجزة عن الحصول على موافقة الكونغرس على تمويل عملياتها .

كما أوضحت الصحيفة أن المملكة العربية السعودية دفعت الأموال لحكومات وحركات مناهضة للماركسية في أفغانستان واليمن الشمالي والصومال والسودان وباكستان وزائير ونيكاراغوا .

أما طريقة الدفع السعودية فقد وصفها ديبلوماسي أميركي سابق في أسئلة وجهتها الصحيفة المذكورة بقوله : إن السعوديين استجابوا بنخوة في عدة أماكن وفي كل مرة كنا نحتاج فيها إلى دفع أموال من أجل شيء ما . . كنا نتجه صوب السعوديين الذين نعتبرهم كبقرة حلوب تدر لبناً باستمرار » .

وقد أشار وليم كاندت وهو خبير في شؤون الشرق الأوسط في « مجلس الأمن القومي » إلى « أن الأمر لم (يكن) يستغرق أكثر من عشر ثوان» لدى الملك فهد عاهل السعودية للتوقيع على شيك ليحل بذلك مشكلة يمضي الكونغرس أسابيع في مناقشتها .

أما عن المبلغ الذي دفع لصالح الكونترا ـ الثورة المضادة في نيكاراغوا ـ

بشكل خاص فتقول الصحيفة : « إن دفع اثنين وثلاثين مليون دولار كمساعدة للكونترا في نيكاراغوا يندرج ضمن إطار هـذه السياسـة التي قد تكـون اتبعتها حكومات الولايات المتحدة في العقود الأربعة السابقة».

وقد قدرت المبالغ المدفوعة من السعودية في هذه المجالات بحوالي أربعة مليارات دولار كما بينت الصحيفة نفسها . ومن جهة أخرى فقد صرح أحمد زكي اليماني ، وزير النفط السعودي السابق في أول حزيران ١٩٧٩ أن السعودية تخسر يومياً عشرين مليون دولار مسايرة لأميركا ، ونسي كما يشير ناصر السعيد ، عشرة ملايين أخرى كانت تدفع لدعم الدولار منذ عام ١٩٧٣[١١٤].

أما مسألة الودائع فهي مسألة أصبحت معروفة حتى لأبسط الناس ، فقد بلغ ما أودعته الحكومة السعـودية حتى سنـة ١٩٨٥ مئة وسبعين مليـار دولار ، كما قدمت الحكومة السعودية للبنك الـدولي الواقـع تحت السيطرة الأميـركية شبـه المطلقة قرضاً بمبلغ أربعة مليارات دولار أيضاً.

وإذا عرفنا أن المليارات هذه تستخدم لصالح السياسة الأميركية ، وأن هذه السياسة هي التي جعلت من العدو الصهيوني القوة الأكبر في الشرق الأوسط . وإذا عرفنا أن الإيداعات العربية في المصـارف الأميركيـة تدر مـداخيل هـائلة للحكومة الأميركية ، كضرائب على الأرباح ، وأن هذه الحكومة تمد كل أعداء المسلمين بالمساعدات الهائلة ، أدركنا جانباً غير ظاهر من تمويل السعـوديين للكيان الصهيوني، ذلك التمويل الجاري بالطريقة غير المباشرة . ولعل المخفي أعظم . .

السعودية كموطىء قدم لقوات أميركا ومحول لمغامراتها في الشرق الأوسط :

عندما قـامت ثورة اليمن سنـة ١٩٦٢ شكلت السعوديـة نقطة الانـطلاق للتدخل في شؤون اليمن ضد الثورة التي استنزفت القدر الكبيـر من الطاقـات العربية ، خدمة لمصالح بريطانيا وأميركا.

وعندما انتصرت الثورة الإسلامية الإيرانية وفتحت آفاق الانعتاق للمسلمين

في جميع أرجاء العالم ، فإن السعوديين العاملين لمصلحة أميركا والغرب ضد كل بادرة تحرر ، لم يعدموا وسيلة لوضع مقدراتهم المالية في خدمة مخططات إسقاط الثورة . فلما شن صدام حسين حربه ضدها ، أخذت السعودية تمده بالتعاون مع جيرانها حكام محميات الخليج بمليارات الدولارات ، مما سمح له بأن يديم الحرب ثماني سنوات متواصلة ، حتى إذا أعلن صدام بعد الثاني من آب ١٩٩٠ ندمه ووعد بقتال أولئك الذين حرَّضوه على شن الحرب ، إذا بالسعودية تتحرك لإقامة علاقات حسنة مع جارتها الإسلامية الكبيرة ، وتعترف بكل ما اقترفته ولكن ليس لتتوب عما ترتكبه بحق المسلمين ، بل مناورة منها لتستمر على نفس الطريق في خدمة أميركا والغرب.

ولما احتل صدام الكويت إذا بالأميركيين المدافعين عن مصالحهم في الاستيلاء على النفط العربي ، ينزلون الجيوش من قواتهم ومن قوات أوروبا الغربية الموالية لهم في السعودية وكأنهم ينقلونها من ولاية أميركية إلى ولاية أخرى . فتشن حرباً على الشعب العراقي ، تحت ستار استرجاع الكويت ، فتدمر مرافقه الحديثة وبنية بلاده التحتية ، ثم تحتل أرضه بقواتها فتسعى إلى إقامة ترتيبات أمنية جديدة للمنطقة على غرار تلك التي رفضتها في الخمسينات.

كل هذا في الوقت الذي لم تحشد السعودية جيشاً ولم تسمح لأي جيش عربي أو إسلامي أن يستخدم أرضها لأي غرض له صلة بالدفاع عن الحقوق العربية والإسلامية المهدورة ، وإنما فقط في الحالات التي قضت مصلحة بريطانيا أو أميركا أو مصلحة النظام السعودي نفسه بذلك.

وهنا لابد لنا من أن نلاحظ كيف أن الشعارات الاسلامية ، تعود مرة أخرى لتستخدم أدوات تبرير للسياسة الصليبية في استيلائها على ثروات المسلمين واضطهادها لهم . فكان دور الوهابية أن تقتل بيديها وبسلاح الإنكليز أبناء الجزيرة وتذلهم ، وتغطي بمواقفها السياسية وبأموالها عمليات الاستعمار والإمبريالية والصهيونية في قتل المسلمين وإذلالهم في جميع أرجاء العالم.

فهل كانت وزارة المستعمرات البريطانية التي أوفدت مستر همفر وزملاءه وسابقيه ولاحقيه تحلم بكل ذلك ؟

***

نص المعاهدة البريطانية ـ السعودية لعام ١٩١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

بين الحكومة البريطانية من جهة ، وبين عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل السعود أمير نجد والإحساء والقطيف وجميع المدن والمرافىء التابعة لهذه المقاطعات من جهة أخرى.

الحكومة البريطانية باسمها ، وعبد العزيز باسمه وباسم ورثته وأخلافه ورجال عشيرته ، عينت الحكومة البريطانية السير برسي كوكس معتمدها في سواحل خليج العجم ، مفوضاً لأجل أن يعقد معاهدة مع عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل السعود ضمن المقصد الآتي :

توطيد وتوكيد الصداقة الموجودة بين الطرفين منذ زمن طويل ، وتأكيد منافعهما المتقابلة : إن الكولونيل السير برسي كوكس وعبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل السعود المعروف بابن السعود ، اتفقا وتعاهدا على المواد الآتية :

أولاً : إن الحكومة البريطانية تعترف وتقبل بأن نجداً والإحساء والقطيف وجبيل وملحقاتها التي تعين هنا والمرافىء التابعة لها على سواحل خليج العجم ، كل هذه المقاطعات هي تابعة للأمير ابن سعود وآبائه من قبل . وهي تعترف بابن سعود حاكماً مستقلاً على هذه الأراضي ، ورئيساً مطلقاً على جميع القبائل الموجودة فيها ، وتعترف لأولاده وأعقابه الوارثين من بعده على أن يكون خليفته منتخباً من الأمير الحاكم ، وأن لا يكون مخاصماً لإنجلترا بوجه من الوجوه ، أي أنه يجب أن لا يكون ضد المبادىء التي قبلت في هذه المعاهدة.

ثانياً : إذا تجاوزت إحدى الدول على أراضي ابن سعود أو أعقابه من بعده دون إعلام الحكومة البريطانية ، ودون أن تمنح الوقت المناسب للمخابرة مع ابن سعود لأجل تسوية الخلاف ، فالحكومة البريطانية تعاون ابن سعود ضد هذه الحكومة، وفي مثل هذه الظروف يمكن للحكومة البريطانية بمساعدة ابن سعود أن

تتخذ تدابير شديدة لأجل محافظة وحماية منافعه.

ثالثاً : يتعهد ابن سعود أن يمتنع عن كل مخابرة أو إتفاق أو معاهدة مع أية حكومة أو دولة أجنبية ، وعلاوة على ذلك فإنه يتعهد بإعلام الحكومة البريطانية عن كل تعرض أو تجاوز يقع من قبل حكومة أخرى على الأراضي التي ذكرت آنفاً.

رابعاً : يتعهد ابن سعود بصورة قطعية أن لا يتخلى ولا يبيع ولايرهن ، ولا بصورة من الصور يقبل بترك قطعة أو التخلي عن الأراضي التي ذكرت آنفاً ، ولا يمنح امتيازاً في تلك الأراضي لدولة أجنبية أو لتبعة دولة أجنبية ، دون رضا الحكومة البريطانية ، وأنه يتبع نصائحها التي لا تضر بمصالحه.

خامساً : يتعهد ابن سعود بأن يبقي الطرق المؤدية إلى الأماكن المقدسة مفتوحة ، وأن يحافظ على الحجاج أثناء ذهابهم إلى الأماكن المقدسة ورجوعهم منها.

سادساً : يتعهد ابن سعود ـ كما تعهد والده من قبل ـ بأن يمتنع عن كل تجاوز أو تداخل في أرض الكويت والبحرين وأراضي مشايخ قطر وعمان وسواحلها وكل المشايخ الموجودة تحت حماية إنجلترا والذين لهم معاهدات معها.

سابعاً : الحكومة البريطانية وابن سعود يتفقان فيما بعد بمعاهدات على التفصيلات التي تتعلق بهذه المعاهدة ، في ٢٦ ديسمبر ١٩١٥.

***

نص معاهدة جدة

جلالة ملك بريطانيا وإيرلندا والممتلكات البريطانية وما وراء البحار وأمبراطور الهند من جهة، وجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها من جهة أخرى. رغبة في توطيد العلاقات الودية السائدة بينهما وتوثيقها وتأمين مصالحهما وتقويتها ، قد عزما على عقد معاهدة صداقة وحسن تفاهم ، لذلك أوفد صاحب

الجلالة البريطانية حضرة السير جلبرت فاكنجهام كلايتون مندوباً مفوضاً عنه ، وانتدب صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن عبد العزيز ، نجله ونائبه في الحجاز ، مندوباً مفوضاً عنه .

بناءً على ما تقدم ، وبعد الإطلاع على مستندات اعتمادهم والتثبت من صحتها ، فقد اتفقا على المواد الآتية :

المادة الأولى : يعترف صاحب الجلالة البريطاني بالإستقلال التام المطلق لممالك صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها .

المادة الثانية : يسود السلم والصداقة بين صاحب الجلالة البريطاني وصاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها ، ويتعهد كل من الفريقين المتعاقدين بأن يحافظ على حسن العلاقات مع الفريق الآخر ، وبأن يسعى بكل ما لديه من الوسائل لمنع استعمال بلاده قاعدة للأعمال غير المشروعة الموجهة ضد السلام والسكينة في بلاد الفريق الآخر .

المادة الثالثة : يتعهد صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها بتسهيل أداء فريضة الحج لجميع الرعايا البريطانيين والأشخاص المتمتعين بالحماية البريطانية من المسلمين . . . أسوة بسائر الحجاج ، ويعلن صاحب الجلالة الملك بأنهم يكونون آمنين على أموالهم وأنفسهم أثناء إقامتهم في الحجاز .

المادة الرابعة : يتعهد صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها بتسليم مخلّفات من يتوفى في البلاد التابعة لجلالته من الحجاج المذكورين آنفاً ، والذين ليس لهم في بلاد جلالته أوصياء شرعيون ، إلى المعتمد البرطاني في جدة أو من ينتدبه لهذا الغرض لإيصالها لورثة الحاج المتوفى المستحقين ، بشرط أن لا يكون تسليم تلك المخلفات إلى الممثل البريطاني إلا بعد أن تتم المعاملات بشأنها أمام المحكمة المختصة ، وتستوفى عليها الرسوم المقررة في القوانين الحجازية أو النجدية .

المادة الخامسة : يعترف صاحب الجلالة البريطانية بالجنسية الحجازية والنجدية لجميع رعايا صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها عندما

يوجدون في بلاد صاحب الجلالة البريطانية أو البلاد المشمولة بحماية جلالته ، وكذلك يعترف صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها بالجنسية البريطانية لجميع رعايا صاحب الجلالة البريطانية ولجميع الأشخاص المتمتعين بحماية جلالته عندما يوجدون في بلاد صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها ، على أن تراعى قواعد القانون الدولي المرعي بين الحكومات المستقلة.

المادة السادسة : يتعهد صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها بالمحافظة على الصلات الودية والسلمية مع الكويت والبحرين ومشايخ قطر والساحل العماني الذين لهم معاهدات خاصة مع حكومة صاحب الجلالة البريطانية.

المادة السابعة : يتعهد صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها أن يتعاون بكل ما لديه من الوسائل مع صاحب الجلالة في القضاء على الاتجار بالرقيق.

المادة الثامنة : على الفريقين المتعاقدين إبرام هذه المعاهدة وتبادل قرارات الإبرام بأقرب وقت ، وتصير هذه المعاهدة نافذة اعتباراً من تاريخ تبادل قرارات الإبرام ، ويعمل بها مدة سبع سنوات ابتداءً من ذلك التاريخ ، وإن لم يعلم أحد الفريقين المتعاقدين الفريق الآخر قبل انتهاء السنوات السبع بستة أشهر أنه يريد إبطال المعاهدة. . . تبقى نافذة ولا تعتبر باطلة إلا بعد مضي ستة أشهر من اليوم الذي يعلن فيه إبطالها من أحد الفريقين إلى الفريق الآخر.

المادة التاسعة : تعتبر المعاهدة المعقودة بين صاحب الجلالة البريطانية وصاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها في ٢٦ كانون الأول ١٩١٥ يوم كان جلالته حاكماً لنجد وما كان ملحقاً بها إذ داك . . . ملغاة ابتداءً من تاريخ إبرام هذه المعاهدة.

المادة العاشرة : دونت هذه المعاهدة باللغتين العربية والإنجليزية وللنصين قيمة واحدة ، أما إذا وقع اختلاف في تفسير أي قسم منها فيرجع إلى النص الإنجليزي.

المادة الحادية عشر : تعرف هذه المعاهدة بمعاهدة جدة .

(وقّعت هذه المعاهدة في جدة يوم الجمعة في الثامن عشر من ذي القعدة سنة ١٣٤٥ هجرية الموافق عشرين أيار ١٩٢٧م).

هوامش الفصل الثالث

(١) جاكلين براين ، اكتشاف جزيرة العرب ، تعريب قدري قلعجي ، دار الكتاب العربي بيروت ص ١٨٣ .
(٢) عبد العزيز عبد الغني إبراهيم ، صراع الأمراء ، دار الساطي لندن ط ١ ـ ١٩٩٠ ص ٤٦ .
(٣) موجز تاريخي عن القبائل الوهابية العربية ، في مجموعة : مختارات من سجلات بومباي ، منشورات المكتبة السرية والسياسية بومباي ١٨٥٦ المجلد ٢٤ ص ٤٣٢ باللغة الانكليزية .
(٤) نفس المصدر ص ٤٣٣ .
(٥) عبد العزيز عبد الغني إبراهيم ، صراع الأمراء مذكور سابقاً ص ٦٤.
(٦) موجز تاريخي عن القواسم ، مجموعة مختارات سجلات بومباي ، مذكور سابقاً ص ٣١٦ .
(٧) نفس المرجع ص ٣١٩ .
(٨) عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، صراع الأمراء ، مذكور سابقاً ص ٦٢ .
(٩) موجز تاريخي عن مسقط ، مجموعة مختارات سجلات بومباي ، مذكور سابقاً ص ١٨٢ .
(١٠) عبد العزيز عبد الغني إبراهيم مذكور سابقاً ص ٦٥ .
(١١) نفس المصدر ص ٧٦ .
(١٢) ناصر الفرج ، قيام العرش السعودي ، الصفا للنشر والتوزيع لندن. ط ١ ـ ١٩٨٨ ص ٢٣ .
(١٣) عبد العزيز عبد الغني إبراهيم ، صراع الأمراء مذكور سابقاً ص ٧٠ .
(١٤) كيللي : ج .ب، بريطانيا في الخليج الفارسي ١٧٩٥ ـ ١٨٨٠ ـ مطبوعات أوكسفورد كلارندن ١٩٦٨ ص ١٣٤ بالانكليزية .
(١٥) لوريمر ج. ج «دليل الخليج» القسم التاريخي ص ١٦٦٠٦.
(١٦) عبد العزيز عبد الغني إبراهيم ، صراع الأمراء مذكور سابقاً ص ٩٣ .
(١٧) موجز تاريخي عن مسقط ، مذكور سابقاً ص ٢٠٦ .
(١٨) عبد العزيز عبد الغني إبراهيم ، صراع الأمراء ، مذكور سابقاً ص ٩٦ .
(١٩) نفس المصدر ص ١٢٤ .
(٢٠) عبد العزيز عبد الغني ابراهيم ، بريطانيا وإمارات الساحل العماني ص ٣٠٢ .
(٢١) موحز تاريخي من القبائل الوهابية مذكور سابقاً ص ٤٥٦ .
(٢٢) موجز تاريخي عن مسقط مذكور سابقاً ص ٢١٧ .
(٢٣) عبد العزيز عبد الغني ابراهيم ، صراع الأمراء ، مذكور أعلاه ص ١٣١ .
(٢٤) نفس المصدر ص ١٣٢
(٢٥) نفس المصدر ص ١٥٣ .
(٢٦) نفس المصدر ص ١٦٢ .
(٢٧) نفس المصدر ص ١٦٣ .
(٢٨) نفس المصدر ص ١٦٧ .
(٢٩) نفس المصدر ص ١٦٩ .

(٣٠) نفس المصدر ص ١٩٦ .

(٣١) نفس المصدر ص ١٩٧ .

(٣٢) Lewis Pelly, Report on a journey to Riyadh in Central Arabia 1865. at centre university of Cambridge 1980 P18.

(٣٣) عبد العزيز عبد الغني إبراهيم ، سياسة الأمن لحكومة الهند في الخليج العربي ، ص ١١٥ .

(٣٤) عبد العزيز عبد الغني ابراهيم ، صراع الأمراء مذكور أعلاه ص ٢١٢ .

(٣٥) نفس المصدر ص ٢٠٦ .

(٣٦) نفس المصدر .

(٣٧) نفس المصدر ص ٢٢٩ .

(٣٨) Aitchision Cn (éd) Op. Cit P102.

(٣٩) عبد العزيز عبد الغني إبراهيم ، صراع الأمراء مذكور سابقاً ص ٢٢٨ .

(٤٠) ناصر الفرج ، قيام العرش السعودي مذكور سابقاً ص ٢٣ .

(٤١) عبد العزيز عبد الغني إبراهيم ، صراع الأمراء مذكور سابقاً ص ٢٣٩ .

(٤٢) نفس المصدر ص ٢٤١ .

(٤٣) ناصر الفرج ، قيام العرش السعودي مذكور سابقاً ص ٢٤ .

(٤٤) نفس المصدر ص ١٥ .

(٤٥) ديكسون «الكويت وجاراتها» نقلاً عن الفرج ص ٢٠ .

(٤٦) عن وثيقة في المجلد ٢١٤٠ « دار الوثائق البريطانية » نقلاً عن الفرج ص ٢٠ .

(٤٧) دليل الخليج نقلاً عن ناصر الفرج ص ٢١ .

(٤٨) الفرج ص ٤٠ .

(٤٩) عن وثيقة في المجلد (٢١٣٩) «دار الوثائق البريطانية» نفس المرجع ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٥٠) الفرج ٢٧ .

(٥١) نفس المصدر ٩٦ .

(٥٢) عن وثيقة في المجلد (٢٤٤٦) دار الوثائق البريطانية نفس المرجع ص ٤٥ .

(٥٣) عن وثيقة في المجلد (٢٤٧٩) دار الوثائق البريطانية نفس المرجع ص ٣٦ .

(٥٤) الفرج ص ٥٥ .

(٥٥) نفس المرجع .

(٥٦) مس بل ، « فصول من تاريخ العراق القريب» نفس المرجع ص ٣٢ .

(٥٧) حافظ وهبة ، خمسون عاماً في جزيرة العرب نفس المرجع ص ٣٣ .

(٥٨) الفرج ص ٨٩ .

(٥٩) خيري حماد ص ٢١٥ .

(٦٠) وثيقة في المجلد ٢٤٨٦ نقلاً عن الفرج ص ٣٩ .

(٦١) الفرج ص ٤٧ .

(٦٢) د. صلاح العقاد ، «جزيرة العرب في العصر الحديث» نفس المرجع ص ٤١ .

(٦٣) ناصر السعيد ، مذكور سابقاً ص ٣٥٩ .

(٦٤) نفس المصدر ص ٥٠١ ، ٥٠٢ .
(٦٥) خير الدين الزركلي شبه الجزيرة ص ٢١٥ .
(٦٦) د. صلاح العقاد ، مذكور سابقاً ص ٨٥ .
(٦٧) ناصر السعيد مذكور أعلاه ص ٣٠٧ ، ٣٠٨ .
(٦٨) الفرج ص ٨٦ .
(٦٩) نفس المصدر ص ٤٩ .
(٧٠) أمين الريحاني ، ملوك العرب ـ ص ٨٥.
(٧١) الزركلي مذكور سابقاً.
(٧٢) نفس المصدر .
(٧٣) الفرج ص ٤٦ .
(٧٤) السعيد ص ٨٨١ .
(٧٥) جون فيلبي «أربعون عاماً في جزيرة العرب» نقلاً عن الفرج ص ٨٤ .
(٧٦) عبد الله التل ، خط اليهودية العالمية ، ص ١٧٦ .
(٧٧) الزركلي مذكور سابقاً .
(٧٨) المصدر السابق .
(٧٩) محمد علي سعيد ، بريطانيا وابن سعود ص ١٨٨ .
(٨٠) ناصر الشمراني مذكور سابقاً ص ٢٥٠ .
(٨١) نفس المصدر ص ٢٦٨ .
(٨٢) ناصر السعيد مذكور سابقاً ص ٨٩٠ ، ٨٩٨ .
(٨٣) الزركلي مذكور سابقاً ص ١٢٨٩ .
(٨٤) محمد علي سعيد مذكور سابقاً عن جريدة الحارس البغدادية .
(٨٥) راجع روز اليوسف ، صحيفة مصرية ، بتاريخ ١٩٧٩/١١/٢٢ .
(٨٦) ناصر السعيد مذكور اعلاه ص ٥٩١ ، ٥٩٢ .
(٨٧) نفس المصدر ص ٧٥٩ .
(٨٨) نفس المصدر ص ٧٤٩ .
(٨٩) نفس المصدر ص ٨٥٨ .
(٩٠) الثورة الاسلامية في الجزيرة العربيه عدد ٤٥ .
(٩١) سايروس فانس ، المذكرات ، المركز العربي للمعلومات ط ٢ ، ١٩٨٤ ص ٦٤ .
(٩٢) نفس المصدر ص ٩٢ .
(٩٣) ابن المميز ، السعودية كما عرفتها .
(٩٤) الفرج مذكور ص ٩٤ وما بعدها .
(٩٥) نفس المرجع ص ١٠٣ .
(٩٦) الشمراني مذكور سابقاً ص ٦٨ .
(٩٧) روبرت لايس ، المملكة ص ٨٧ ، ٨٨ .
(٩٨) حاييم وايزمن «التجربة والخطأ» ، نقلاً عن الفرج ص ٥١ .

(٩٩) خيري حماد ص ١٥١ .
(١٠٠) ديكسون مذكور أعلاه نقلاً من الفرج ص ٧٨ .
(١٠١) الفرج مذكور سابقاً ص ٨٢ .
(١٠٢) نفس المصدر ص ٩٢ .
(١٠٣) فؤاد حمزة «البلاد العربية السعودية» ١١٥ .
(١٠٤) جواد العطار ، تاريخ البترول في الشرق الأوسط ، ص ٣٨ .
(١٠٥) نفس المصدر ص ٣٩ .
(١٠٦) مازن البندك «قصة النفط» ص ٧١ ـ والعطار م مذكور أعلاه ص ٣٥ ـ ٤٠ .
(١٠٧) فهد مسعود الحمود «ثروات السعودية ، وسبيل الاستقلال الاقتصادي» ص ٧٩ .
(١٠٨) جو ستورك «أزمة الطاقة في الولايات المتحدة» ص ٣٥ .
(١٠٩) بنوا ميشان ، ابن سعود ، ص ٤٩٦ .
(١١٠) جواد العطار ، مذكور أعلاه ص ٧٢ .
(١١١) «بيروت المساء» صحيفة لبنانية ، بتاريخ ١٩٧٣/١٢/٢١ .
(١١٢) جواد العطار مذكور أعلاه ص ٧٥ .
(١١٣) فرد هاليداي «المجتمع والسياسة» ص ٤٥ .
(١١٤) ناصر السعيد مذكور أعلاه ص ٧٩١ .

الفصل الرابع

السلوك الأخلاقي لأمراء آل سعود الوهابيين

تدعي الوهابية أنها تعيد للإسلام صورته الأصلية بعد أن لحقه التشويه وتزعم أنها ترى الصورة الحقيقية لهذا الدين في القرون الثلاثة الأولى من نشأته، غير أنها لا تلتزم بأي من القواعد والضوابط التي أتى بها الإسلام، وهذا ما يتبدى أول ما يتبدى في نظام الحكم الذي أقامته.

فلقد حمل الإسلام التكريم للإنسان كما نشر لواء العدل والرحمة ولم يكن هاجسه القتل وسفك الدماء. فقد ورد في محكم الكتاب ﴿وكرّمنا بني آدم﴾ كما وردت الآيات التي تهاجم الظلم وتهدد الظالمين بالعذاب الشديد والتي تستنكر القسوة والفظاظة والخشونة في معاملة عباد الله، الذين لم تترك مصيرهم لأهواء الحاكمين أو لاجتهاداتهم الشخصية، بل هي ضمنت لهم حياتهم وحرياتهم وحافظت على أعراضهم وأموالهم تحت طائلة العقاب المشدد في الدنيا والآخرة.

وقد طبق الرسول (ص) والخلفاء الأول أحكام الإسلام ومبادئه فكان النظام الذي أرسي هو النظام الأمثل للإنسانية، النظام الذي ما زالت حتى اليوم تسعى إلى الوصول إليه، وكان من أهم ما كرّس على هذا الصعيد، الحريات التي اكتشفت البشرية بعضها وحمتها اليوم من تحريم اختراع الجرائم والعقوبات، فلا جريمة إلا ما ورد في القانون ولا عقوبة إلاّ ما حدده القانون للممارسات المبينة حصراً

وبشكل واضح، ولا تقييد للفكر ولا للنشاط في مجالات العقيدة والسياسة، باستثناء تحريم الشرك والأعمال التي تشكل الفساد في الأرض الذي حددته أصول التشريع.

وقد أدى نظام الحرية التي تستتبع المسؤولية إلى بروز قادة من أعظم قادة التاريخ الإنساني في الحرب والسياسة والفكر؛ وهم من أبناء أولئك الذين كانوا في الجاهلية يتقاتلون لأتفه الأسباب فتسيل الدماء بينهم دون توقف.

أما نظام آل سعود الوهابي فهو ردة إلى الجاهلية، حيث رأينا وما زلنا نرى القتل والسبي وانتهاك الأعراض ونهب الأموال، وكلها موجهة إلى أناس حقن الرسول دماءهم وحمى أعراضهم وأموالهم بقولهم: «نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله».

هذا على صعيد نظام الحكم، أما على صعيد الممارسات فإن الضوابط تعود لتتأكد بكل قوة.

إذا كان الدين يحدد للجماعة المؤمنة به مواقفها من الجماعات الأخرى فيرسم طريق التعامل معها لكسبها أو لدفع شرها أو للقضاء على تهديدها ، فإنه يحدد من جهة أخرى للفرد سلوكه في المجال الشخصي ، أي في جانبه الأخلاقي ، لأنّه يعد الأداة الأساسية في تنفيذ السياسة الدينية ، فيعدّه أفضل إعداد ليكون نموذجاً مصغراً للمجتمع الذي يريد بناءه ، آخذاً بمبدأ أن الموضوعي لا بد أن يتأثر بالذاتي ، وأن الأداة التي تستخدم لتحقيق غاية ، قد تمكن المخططين لهذه الغاية من الوصول إليها أو تخذلهم في محاولاتهم.

ولقد هيأت الوهابية أدواتها الذين استخدمتهم لتحقيق مشروعها ، حيث كان القادة يقيمون «الهجر» التي يلتحق بها «المريدون» قبل زجهم في المعترك القتالي ، ليعدوا للمهمات المستقبلية التي تنتظرهم كمهاجرين في سبيل الله ورسوله.

ولقد أتت الأداة ملائمة تمام الملاءمة لتحقيق الأهداف ، فإذا أدت المهمة

المطلوبة منها أتلفت خوفاً من أن تتحول إلى وظيفة ثانية ، واستبدلت بأداة جديدة لمهمات المرحلة المقبلة ، وقد تمثل ذلك في إبادة «جيش الإخوان» وإنشاء جيش جديد مكانه فيما بعد.

وحتى أمكن هذا الأمر ، كان لا بد لمستخدم الأداة من أن يكون فوق الآخرين ، ومن أن يكون قادراً على استبدال أداة بأداة وهدف بهدف ، أي أن يكون قادراً على عدم الالتزام بخط معين وبنهج معين كي لا ينتهي دوره في أي مرحلة من مراحل المسيرة.

ولقد كان أمراء آل سعود، قادة الوهابية السياسيين مثالاً في مجال استحداث الأهداف واستبدال الأدوات والوسائل ، وقد تبين أن ما أمّن لهم ذلك هو عدم التزامهم بمبادىء وقيم تقيد حريتهم.

وعدم الالتزام بالقيم والمبادىء ، الذي سهل حركة أمراء آل سعود ، لم يقتصر على الجانب السياسي من عملهم والذي شاهدنا نماذج واضحة عنه ، بل هو تبدى بصورة صارخة جداً في مجال تصرفاتهم الشخصية التي تكشف عن حقيقتهم المجردة بأكثر مما تكشف عنها الممارسات السياسية ، لأن هذه الممارسات لا تصدر عن الشخص معزولاً ، بل عن شخص مضطر إلى الارتباط والتنسيق والتوافق مع الآخرين من قوى تفوق قوته في غالب الأحيان ، فيضطر إلى اتخاذ المستشارين وإجراء الحسابات الجدية في كل أمر من الأمور.

لهذا كان لا بد من إعطاء صورة عما قدمته الوهابية من نماذج إنسانية ، وبعد أن ألممنا بفكرها الديني وبممارساتها السياسية ، كان لا بد لنا من إلقاء نظرة على مدى التزام قادتها والقائمين على تنفيذ مبادئها بمبادىء الأخلاق العامة.

وهكذا فإننا سنتناول أخلاق الوهابيين القتالية ثم كيفية تصرفهم بالأموال العامة والخاصة لنتناول في النهاية الممارسات العادية في المجال الحياتي.

الوهابيون وشرائع القتال :

لم يكن يحرك قادة الوهابيين منذ محمد بن سعود وحتى وقت عبد العزيز بن عبد الرحمن ، في قتالهم القبائل العربية وأبناء الإسلام عامة إلا دوافع السيطرة وغريزة النهب والسلب . وفي سبيل ذلك كان يهون الغدر والاستخفاف بالعهود

والوعـود كما كانت تداس القوانين والأعراف ويضرب بالشريعة عرض الحائط .

فالأسرى ، المستجيرون يقتلون ، والأطفال والنسـاء يذبحـون أو يسبون ويستعبدون ، وكان التمثيـل سُنَّة متبعـة في جميع الحـالات . ولعـل المثـال للأخلاقية الوهابية في هذا المجال هو عبد العزيز نفسه ، نظراً لـطول تجربتـه وتنوعها ، فهو يقدم لنا مجموعة من النشاطات والممارسـات كشفت عن أوجه عديدة للسمات الأخلاقية فكان رصـد تجربته ودراستها كفيلاً بأن يقدم لنا مادة واسعة.

كما أن حداثة العهد به من جهة ، وما وفره الإعـلام في هذا القـرن من إمكانية الاطلاع التفصيلي على الأمور ووضع الشخصيات السيـاسة بحسنـاتها وسيئاتها شبه مكشوفة أحياناً أمام العالم ، كل هذا ساعد على أن يلم المتتبع بأدق التفاصيل عن هذه الشخصية الوهابية الأساسية التي لا يرقى إلى تمثيليتها لمذهبها كبير شك وهو الذي كان يستصدر الفتاوى من القيمين على الشؤون الدينيـة ، فتأتي مؤيدة لتصرفاته ومباركة لها .

وهكذا فقد تمكنا من إلقاء الأضواء على سيرة عبد العزيز في عدد كبير من المجالات . ونحن هنا لن نعود إلى ما سبق أن بيّناه ، بل سنقتصر على ما يتعلق بالسلوك الأخلاقي في المجـال القتالي . فلجهـة معاملة الأسرى مثلاً، يـروي عبد العزيز نفسه من ذكرياته فيقول إنه عندما أسر عبيـد بن حمود آل رشيد وأخاه ماجداً في ربيـع سنة ١٩٠٤ « ضـربت عبيداً بسيفي على رجله فجعلتـه مقعداً وبعدئذ عاجلته بضربة على رقبته فسقط رأسه جانباً وتدفق الدم من عنقه كالنافورة ووجهت الضربة الثالثة إلى قلبه ورأيت قلبه ينشطر شطرين وكان لا يزال ينبض على هذا النحو . لقد كانت تلك اللحظة سعيدة وقمت بتقبيل سيفي »[١] .

وأما معاملة المستجيرين فقد تجلت في مقتل تبال السهلي الذي أجاره ابن هندي واصطحبه حتى دخلا خيمة ابن سعود فلما رآه عبد العـزيز انقضّ عليـه وضرب عنقه[٢] .

ومن الشواهد الأخرى في هذا المجال أن عبد العزيز عندما استولى على بلدة ليلي الواقعة على بعد ١٥٠ كلم جنوب الرياض أسر كل كبار عائلة الهزاني وكانوا ثمانية عشر أسيراً ، فاقتيدوا في اليوم التالي إلى منصة الإعدام بعد أن دعي

الأعراب من البوادي لحضور الحفلة . وبعد أن تلا أحد الفقهاء قرار الحكم ، أجبر الأسرى على الركوع أمام المنصة واحداً واحداً لتضرب أعناقهم . ولكن عبد العزيز عفا عن واحد لكي يذهب ويخبر بما رأى[٣] .

وأما عن معاملة الأطفال والنساء من الخصوم فقد ذكر العميل السعـودي أحمد عبد الغفور العطار في كتابه : « صقر الجزيرة العربية »[٤] : أن عبد العزيز كان يصطاد الغزلان يوماً في صحراء «بنية عفان» . وفيما كان يطارد ظبياً رأى جمعاً من الناس . وبعد أن تحقق أنهم ليسوا من جنوده وأنهم نساء وأطفال من قبيلة الصقهان من العجمان التي فر رجالها إلى الكويت ركب ابنه محمد إليهم مـع بعض رجاله في رتل من السيارات الإنكليزية ، فأسرعوا إليه . ولكنـه ورجالـه فاجأوهم بوابل من الرصاص فأبادوهم وكانوا ٧٤٣ فلم ينج منهم إلا اثني عشر شخصاً ، ولم يكن بين الجميع رجل واحد . وكان هؤلاء الناجون خمسة أطفال ذكور وثلاث نساء وأربع فتيات ما بين التاسعة والعاشرة من العمر .

ولما اقتيد الأسرى إلى عبد العزيز أعطى ابنه فتاة وامرأة وتزوج هو بالفتيات الثلاث الباقيـات وتسرّى بامـرأتين ووضع الـذكور الخمسـة في خدمته ، كما استولى على الإبل والأغنام وكان عددها ألف رأس .

ولم تكن هذه الأخلاقية مقتصرة على عبد العزيز بل كان أعوانه يتمتعون بها هم الآخرون .

فعبد الله بن جلوي الذي كان مع المجموعة التي هاجمت عجلان حاكم الرياض ، وهو الذي قتله ، قطع كليتيه ورماهما أمام قدمي عبد العزيز[٥] .

ومن الأمثلة على التمثيل بالآدميين أيضاً ما قام به منصور بن عبد العـزيز الذي شك بوجود علاقة بين إحدى جواريه وأحد الخـدم فربط كـلاً من رجلي الخادم بسيارة وسارت السيارتان باتجاهين متعاكسين ففسختاه[٦] .

ومن الأمثلة على التعذيب أيضاً ما رواه عبد الرحمن الشمري[٧] من أن جمـاعـة الأميـر فيصـل (الملك لاحقـاً) ألقـوا القبض على شـريف رابـغ في رمضان ١٤٣٨ ، ووجهت إليه تهمة التآمر فسجنه يوماً كاملاً دون أكل أو شرب وفي اليوم التالي أعطي بطيخة مثلجة فالتهمها ، ولما بدأ يشعر بإدرار البول ربط قضيبه لمنعه من التبول إلى أن أصبح عاجزاً عن تحمل الألم فاعترف بما نسب إليه .

إهـدار الأموال العامة وسرقتها :

ضرب الأمراء السعوديون الرقم القياسي في الاستيلاء على أموال الدولة وإلحاقها بممتلكاتهم أو إهدارها في أوروبا وأميركا بذخاً وإسرافاً وهدايا وما إلى ذلك . ومن أهم الأمثلة على ذلك :

فيصل وشركات النفط :

انتزع الأمير فيصل بن عبد العزيز ٢٪ من أسهم شركة جيني اليابانية مقابل الموافقة على منحها امتياز المنطقة المحايدة ، وذلك بواسطة نسيبه ووكيل أعماله كمال أدهم الذي نال هو الآخر مليون دولار . ثم باع فيصل الأسهم التي حصل عليها بواسطة كمال أدهم نفسه للشركة اليهودية الأميركية « أتلانتيك ريفايناك » بمبلغ ستة ملايين دولار .

كما أن فيصلاً نفسه نال سنة ١٩٥٩ عدداً من أسهم شركة نيوجرسي فسجلها بأسماء أولاده ، ثم أخذ يجري مفاوضات مع شركات «كاليفورنيا» و«تكساس» و«موبيل أويل» وهي المالكة لشركة الآرامكو ، للحصول على أسهم أخرى على أساس أن ما أعطته شركة نيوجرسي هو عن نفسها فقط .

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الشركات عندما تدفع السمسرة أو تقدم الأسهم ، إنما تعود لانتزاع المقابل ، وربما مضاعفاً من الدولة السعودية ، وإن بطرق غير مباشرة .

ومقابل ما قدمته شركة الآرامكو لفيصل كسبت سكوت السعودية عن زيادة حصتها من العائدات والتخلي عن بعض الضرائب المستحقة ، وإسقاط الدعوى المقدمة من الحكومة السعودية ضدها في قضية أوناسيس والدعوى المتعلقة بأرباح صيدا .

كما أن فيصلاً وقع مرسوماً ملكياً في ٨ نيسان ١٩٦٥ بإعفاء شركتي « أوكسيدنتال بتروليوم كوربوريشن » و«أنترناشينال أورانفيز كلايزر كوربوريشن » من ضريبة الدخل على حصة كل منهما من أرباح الشركة السعودية التي ستنشأ في المنطقة الشرقية ، وذلك لأنه يملك وأولاده أسهماً في تينك الشركتين .

وأخيراً طالبت آرامكو الحكومة السعودية بعشرين مليون دولار . ولكن الحكومة ردّت بأن هذا حساب مكرر وبالتالي غير مستحق ، ولكن الشركة عادت

فأثارت الموضوع ، فدفع المبلغ بأمر من فيصل لأن «آرامكو لا تغلط ولا تكذب»[٨].

الخدمات الصورية والصفقات المشبوهة :

يتعاقد السعوديون عادة مع الخبراء الغربيين في كافة الحقول ويقدمون لهم مرتبات تفوق أضعاف ما يقدمونه للخبراء العرب والمسلمين من نفس المستوى . وبالإضافة إلى هذا فهم يدفعون أحياناً أموالاً طائلة ، ربما بسبب السمسرات ، إلى من يتعاقدون معهم من الأجانب . فقد نشرت صحيفة القبس الكويتية بتاريخ ٩ حزيران ١٩٧٦ أن «هيل» المدرب الرياضي البريطاني ، قد حصل على عقد بمبلغ خمسين مليون دولار لمدة خمس سنوات لتدريب فريق الكرة السعودي . فعين هذا المدرب فريقاً للتدريب ومديراً براتب إجمالي قدره تسعين ألف دولار في العام .

ومن جهة أخرى فقد طالبت الممرضة الأميركية التي صحبت «عفت خانم» زوجة الأمير فيصل بن عبد العزيز وهي أخت كمال أدهم بمبلغ ٩٢ ألف جنيه استرليني ، ولما رفض ديوان المراقبة العامة دفع المبلغ ، صدر الأمر من فيصل إلى الديوان بالدفع .

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن عفت خانم أصبحت من أغنى نساء العالم بعد ما وهبها زوجها من عقارات[٩] .

كما نشرت صحيفة السياسي القاهرية بتاريخ ٢٣ أيلول سنة ١٩٧٩ عن مجلة «كفاك» الأسبوعية البلجيكية أن شركة «أوروسيستم» التي تضم مجموعة من الشركات البلجيكية أبرمت عقداً مع الحرس الوطني السعودي لإقامة عدد من المجمعات الطبية في مدينتي الرياض وجدة بكلفة ٤٨ مليار فرنك بلجيكي ، ثم أخذت تلك الشركة تماطل وتسوِّف تمهيداً لإعلان إفلاسها ، ثم تبين في ما بعد أنها عينت مائتي فتاة بلجيكية كممرضات ، ولكن اتضح أن هؤلاء الفتيات هن من المومسات المحترفات المسجلات في دوائر الشرطة البلجيكية .

على أن الأموال لا تهدر بهذا الشكل فقط ، بل إن مبالغ خيالية تهدر على شكل صفقات بأسعار مضاعفة مع الشركات الأجنبية .

ففي شهر كانون الثاني ١٩٨٤ كان قد أبرم عقد مع شركة «ويتاكر» الأميركية بقيمة ١٤٠٠ مليون دولار لكي تقوم بإدارة بعض المستشفيات في المملكة لمدة ثلاث سنوات . ولكن الصراعات أدت إلى إلغاء العقد ، فما كان من الشركة نفسها إلا أن تقدمت بتخفيض بلغ ٤٠٪ على قيمة ذلك العقد . أي أن الشركة كانت ستحقق أرباحاً إضافية قدرها (٥٦٠) خمسماية وستون مليون دولار عدا عما نتظر تحقيقه بالعقد المخفض ، وهذا لا يمكن أن يحصل إلا بتواطؤ من الأسرة الحاكمة .

وأخيراً فقد فازت شركة «باكتل» بعقد لبناء مدينة الجبيل السعودية وبلغت قيمة الصفقة ٣٨٠ مليار دولار ، وسيتم الانتهاء منها سنة ١٩٩٩ ، وهي ستكون أكبر من مدينة لندن البالغ عدد سكانها تسعة ملايين ، علماً بأن سكان السعودية جميعها لا يبلغون نصف هذا الرقم .

وإذا حاولنا التفتيش عن سر هذه الصفقة العبثية فإننا نجده في مالكي الشركة وموظفيها . فهذه الشركة ورأسمالها مئة مليون دولار يترأسها «ستيفن باكتل» ، وهو صديق حميم لمناحيم بيغن وللملك فهد ، وهي تضم أهم صانعي القرار في الولايات المتحدة ، الذين ينضمون إليها بعد تركهم مناصبهم ، بحيث أن مجلس إدارتها يضم عدداً كبيراً من الوزراء ورؤساء المخابرات المركزية السابقين . ومن أهم الشخصيات المعروفة في هذه الشركة :

- جون ماكون ، رئيس المخابرات في عهدي كنيدي وجونسون .
- ريتشار هولمز رئيس الجهاز نفسه في عهد نيكسون .
- جورج شولتز ، أحد وزراء الخارجية السابقين .
- كاسبار واينبرغر أحد وزراء الدفاع السابقين . .

هذا وتنتشر فروع الشركة في أربعين دولة منها السعودية والكيان الصهيوني .

أما صفقات الأسلحة وما يرافقها من سمسرات وما يدفع فيها من أسعار مضاعفة فقد أصبحت المجال الأهم لأحاديث التندر في جميع أوساط رجال الأعمال في الغرب . فقد بلغت المدفوعات درجة كان بإمكانها أن تقيم جيشاً من

أهم جيوش العالم ، فيما بقي الجيش السعودي من أضعف الجيوش العربية الأمر الذي يضطر مثلاً إلى الاستعانة بالكوماندس الأردنى في المهمات «الصعبة» كما في حادثة الحرم.

ومن أهم ما يمكن ذكره على صعيد صفقات الأسلحة السعودية وما يرافقها ما نشرته مجلة «الطليعة» الكويتية بتاريخ ٧ تشرين الأول ١٩٦٥ اذ تقول : « أصبح عدنان الخاشقجي أحد مديري أعمال الأمير سلطان بن عبد العزيز وزير الدفاع والطيران السعودي ، مشهوراً على مستوى عالمي بعد أن انكشف دوره أثناء التحقيقات التي أجرتها إحدى لجان الكونغرس الأميركي حول صفقات السلاح والصيانة التي تعاقدت عليها المملكة العربية السعودية مع شركات أميركية مصنعة للأسلحة حيث بلغت قيمة السمسرات التي قبضها والتي تم الكشف عنها إلى الآن أكثر من مائة وستين مليون دولار . . . وبالإضافة إلى ذلك فقد اعترف الخاشقجي أنه قبض رشوات من شركات أميركية (لصالح) ضباط سعوديين مقابل إقرارهم بتفضيل أنواع معينة من السلاح تنتجها تلك الشركات على أنواع أخرى تنتجها شركات منافسة.

ولكن الخاشقجي لا يعمل فقط لحسابه الخاص أو لحساب بعض الضباط، بل لحساب من هم فوق ذلك، وللتدليل على طبيعة شركائه يكفي أن نشير إلى أن الملك فهداً قدم له مبلغ ٨٧ مليون دولار كإيفاء بالضمان الذي أعلنت الحكومة السعودية أنها ستقدمه للمصارف الدائنة لعدنان الخاشقجي للحيلولة دون الحجز على ممتلكاته في الولايات المتحدة وأوروبا وذلك تفادياً للفضائح »(١٠) .

وهذا مثال من عدد كبير جداً من الأمثلة التي بينت أن السمسرات تتراوح أحياناً بين ١٨ و٢٥ بالمئة من قيمة الصفقات فيما هي لا تتجاوز قانونياً الـ ٢٪ .

الـهـدايـا :

أخذت الهدايا عند آل سعود منحى غريباً ، إذ اتسمت بهدر للأموال لا مثيل له في العالم حيث «تسفح» الملايين إكراماً للأميركان وللإنكليز، فيما لا تنال

القضايا الإسلامية والعربية غير الفتات الذي لا يدفع إلا لدرء «شرها» حيناً أو لغاية في نفس أميركا حيناً آخر.

وإذا كان عبد العزيز، سليل أولئك الذين استكثروا بعض المجوهرات المهداة إلى الحجرة النبوية الشريفة فنهبوها قد دشن عهد إغداق الهدايا على «أصدقائه» الإنكليز والأميركان، فإن أولاده كانوا أكثر سخاء نظراً للفارق الكبير بين ما كان عليه مدخول عبد العزيز وما هي عليه مداخيل هؤلاء الأبناء.

فقد رأينا سابقاً هدية عبد العزيز الى روزفلت مثلاً، وهي نموذج لما كان يقدمه إلى «أصدقائه» من الرؤساء الغربيين. أما هداياه إلى السلك الديبلوماسي فقد ذكر أمين المميز[١١]، الوزير المفوض العراقي، نموذجاً منها فكانت عبارة عن سيف مذهب وساعة ذهبية عليها صورته وكسوة عربية مؤلفة من مشلح من الغزل الرفيع موشاة بخيوط الذهب، وعقال مقصب بالذهب وغطرة من الوايل الأبيض ودشداشة من الحرير. وهذه هي الهدية التقليدية التي يقدمها الملك إلى السفراء والوزراء المفوضين عند تقديم أوراق اعتمادهم.

أما الملك سعود بن عبد العزيز فقد كان من نماذج هداياه ما قدّمه أثناء زيارته إلى طهران سنة ١٩٥٥ والذي بلغت قيمته ثلاثة ملايين جنيه استرليني[١٢].

أما الذي ضرب الرقم القياسي من بين ملوك آل سعود في قيمة ما يقدمه من هدايا فكان فهد بن عبد العزيز: فأثناء زيارته إلى واشنطن قدم «خادم الحرمين الشريفين» لريغان وزوجته هدايا فاخرة، منها ساعة مرصعة بالألماس وخاتم الرئاسة الأميركية من الألماس أيضاً وطاقماً ذهبياً يتكون من إبريق وأقداح مرصعة بالأحجار الكريمة ومحافظ يدوية موشاة بالذهب ومرصعة بألماس[١٣].

وفي سنة ١٩٨٦ نشرت صحيفة «الواشنطن بوست» الأميركية في عددها بتاريخ الحادي عشر من آذار، خبراً مصوراً عن احتفال جرى في السفارة السعودية في اليوم السابق، وتحدثت الصحيفة عن الهدايا التي قدمها السعوديون في هذا الاحتفال إلى كل من ريغان ونانسي زوجته ومساعديهما فقالت: «إن أحد الأمراء السعوديين دفع مبلغ (٤٥٠٦٩٠) دولار كهدية لنانسي ريغان إضافة إلى هدية بمبلغ مايتي ألف دولار إلى وصيفتها.

وذكرت الصحيفة أن أغلى هدية قدمت لنانسي كانت من الملك فهد وقد بلغت قيمتها عشرات أضعاف قيمة هدية وزير خارجية الكيان الصهيوني ، حينها اسحق شامير ، والتي كانت قلادة بقيمة خمسة آلاف دولار .

كما قدم فهد ساعة فضية قيمتها خمسة وعشرون ألف دولار إلى مساعدة نانسي للشؤون الاجتماعية ، وقدم أيضاً هدية إلى جورج بوش نائب الرئيس حينذاك وكانت صندوقاً ذهبياً بقيمة مئة وثمانين ألف دولار ، إضافة إلى إطار فضي للصور قيمته مئة وعشرون ألف دولار وهدية صغيرة أخرى قيمتها أربعة آلاف دولار ، في حين كانت هدية غورباتشيف لريغان مثلاً علبة من الكافيار وثلاثة أقداح زجاجية وإناءين وكانت قيمتها الكلية ٧٥٠٠ دولار[١٤].

أما ملكة بريطانيا فلم يكن نصيبها هي الأخرى متواضعاً فقد نشرت صحيفة النيوزويك الأميركية بتاريخ ١٢ آذار ١٩٧٩ أن الهدايا التي قدمت إلى صاحبة الجلالة في جولتها على بلدان الخليج بلغت قيمتها أربعة ملايين دولار في حين أن الهدايا التي قدمتها هي بالمقابل كانت عبارة عن صواني بقيمة ٤٠٠٠ ـ ٦٠٠٠ دولار.

وإلى جانب الهدايا للشخصيات فقد درج أمراء آل سعود على « التبرع » للمؤسسات التي ترعاها شخصيات أميركية وصهيونية.

فقد قدم بندر بن سلطان سفير السعوديين في واشنطن تبرعاً بقيمة خمسة ملايين دولار إلى الممثل الأميركي المعادي للعرب والمسلمين وصاحب الميول الصهيونية بول نيومن وذلك مساعدة له من أجل إقامة مخيم الأطفال الأميركيين المصابين بأمراض خطيرة[١٥] .

أما طلال بن عبد العزيز فكانت اهتماماته طبية ، فقد تبرع بملايين الدولارات إلى معهد باستور لأبحاث الإيدز ، في فرنسا ، كما تبرع في ٣٠ تموز ١٩٨٧ بشيك بملايين الفرنكات إلى جمعية مرض ضمور العضلات في فرنسا ووعد الجمعية المذكور بالتعاون معها لمدة ثلاث سنوات[١٦] .

ولم يقتصر التبرع على الكبار ، بل هو أصبح ديدن الأطفال أيضاً، وها هو عبد العزيز بن فهد ، وكان عمره أربعة عشر ربيعاً ، يتبرع بمبلغ ماية ألف دولار

لمتحف الأطفال في واشنطن ، وهو الكرم الذي قابله ريغان بتقديم نموذج مركبة فضائية أميركية وكتاب عن المتحف الوطني لعلوم الفضاء والطيران في واشنطن(١٧) .

وإلى جانب الهدايا يشكل البقشيش الوسيلة الأخرى لهدر الأموال في هذا الجانب ، ومن أمثلة ما عرف مثلاً عن تركي بن عبد العزيز الذي كان في سيئول في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٨٤ يحضر حفلة ألعاب الكرة حيث كان البقشيش الذي يعطيه لا يقل عن خمسماية دولار في المرة الواحدة .

هذه المبالغ الطائلة شكلت مادة للسخرية والاشمئزاز من مقدمها ولو أنها كانت من أموالهم الخاصة لكان ذلك فضائح ، فكيف وهي من الأموال العمومية التي لا يفصل بينها وبين الأموال الخاصة أي حاجز . فالمال السعودي لآل سعود وهم يتمتعون به كيف يشاؤون أما الرعية فهي خدم يتصدق عليهم الأمراء إذا شاؤوا وليس لهم أية حقوق لا فردياً ولا جماعياً .

شراء الذمم :

يأخذ شراء السعوديين للذمم أشكالاً مختلفة ، وهو يهدف إلى إسكات الأصوات الناقدة والساخطة في الداخل والخارج . وقد مرت بنا محاولة شراء صمت الشيخ أسعد التميمي وسنركز هنا على شراء السعوديين للأقلام من أجل صرفها عن تناول فضائحهم ودفعها إلى كيل المديح للأسرة ، وفيما يلي لن نتناول من اشتروا من الكتاب والمؤلفين ورجال الدين ، بل سنقتصر على المجال الصحفي ، فتقدم نماذج مما نشر عن رشاوى آل سعود.

- كان سليم اللوزي ، صاحب مجلة « الحوادث » يحصل على مخصصاته سلفاً ولعدة أشهر وذلك عن طريق توجيه النقد لآل سعود مرة واحدة .

- رئيس تحرير صحيفة «العرب» سافر إلى الرياض ونال شيكاً بمليون جنيه بعد أن تعهد بمنع بعض الصحافيين أن يكتبوا في زوايا معينة اعتادوا على الكتابة فيها . . .

عرض آل سعود مبلغاً كبيراً على الصحيفة الإيرانية «أبرار» من أجل إلغاء زاوية سياسية عنوانها «كل مولاً» ، فما كان من الصحيفة إلا أن رفضت ونشرت

خبر محاولة الرشوة وذلك بتاريخ ٨ آذار ١٩٨٦ .

كما نشرت أخبار كثيرة أخرى عن المدفوعات التي أدت إلى قيام عدد غير قليل من الصحف في البلدان العربية والإسلامية وفي الخارج بعد أن اكتشف الصحفيون الوسيلة للحصول على المال والتي تقوم على إصدار عدد يعرّض بآل سعود فيسارع هؤلاء إلى الاتصال بمؤسسي الصحف والتبرع لهم بما تيسر. ومن هذه الصحف « الشرق الجديد» التي أسسها عبد الوهاب فتال ، و «البلورة السحرية» التي أسسها الألوسي المنجم و« المطرقة » التي أسسها الفاسي ويترأس تحريرها زكي بدوي والتي تسلمت في إحدى المرات سبعين ألف دولار ، وأخيراً وليس آخراً « الشرق الأوسط » وهي الصحيفة السعودية شبه الرسمية في الخارج وما يصرف عليها من مال ، إضافة إلى ما تحصل عليه صحف معروفة أخرى .

أما الصحافيون الذين يمتنعون عن القبض والسكوت ، فإن أسلوباً آخر يتبع حيالهم وهو يتمثل بالضغط على المؤسسات التي يعملون فيها وربما أدى الأمر إلى اغتيالهم في ظروف معقدة.

فقد تعرّض الشاعر أحمد مطر للضغوط السعودية وغيرها حتى أخرج من الكويت بسبب ما كان يكتبه عن آل سعود من نقد في زاويته الخاصة في إحدى الصحف ، كما أخرج أيضاً الرسام الكاريكاتوري الفلسطيني المعروف ناجي العلي الذي اغتيل في ما بعد(١٨).

على أن شراء الذمم لم يكن دائماً لمصلحة آل سعود المباشرة ، بل لمصلحة أميركا . فإلى جانب ما دفعه ملوك آل سعود للحركات والحكومات الموالية لأميركا، فقد دفعوا إلى أنور السادات لكي يفك ارتباطه بالاتحاد السوفياتي ويتجه إلى أميركا بشكل كامل.

فقد كان كمال أدهم ، نسيب الملك فيصل ، ورئيس المخابرات السعودية وعضو المخابرات الأميركية على علاقة جيدة بالسادات منذ حرب اليمن رغم أن مصر والسعودية كانتا المعسكرين المتقابلين في تلك الحرب . وكان كمال أدهم يمد السادات بدخل ثابت حسب ما نشرته جريدة «الواشنطن بوست» الأميركية

على صفحتها الأولى بتاريخ ١٤ شباط ١٩٧٧ . وقد عمل كمال أدهم كواسطة اتصال دائمة بين السعوديين والسادات في عمليات الضغط السعودي على الرئيس المصري لطرد الخبراء السوفيات من مصر ، ثم لفتح الطريق بينها وبين أميركا[١٩] .

الاحتفالات:

تتميز احتفالات آل سعود بالبذخ وسفح الملايين في عواصم الغرب على أقدام الأميركان والأوروبيين الذين تشكل المناسبات التي تحييها سفارات وشخصيات آل سعود بالنسبة الى بعضهم مواسم خير ينتظرونها بفارغ الصبر ، كما تشكل بالنسبة إلى الصحافة مادة دسمة .

فقد نشرت صحيفة «الواشنطن بوست» الأميركية بتاريخ ١١ آذار ١٩٨٦ خبراً مصوراً أشرنا إليه سابقاً عن احتفال السفارة السعودية في واشنطن بتاريخ ١٠ آذار ما يلي : « في الوقت الذي انخفض فيه سعر النفط يصرف السفير السعودي في واشنطن الأمير بندر بن سلطان [ابن وزير الدفاع] في حفلته الليلة الماضية أموالاً طائلة . . ففي تلك الليلة الحمراء وجهت الدعوة إلى ٣٧٥ شخصية وكانت التكاليف أكثر من خمسماية ألف دولار ، أما صاحبة فكرة الحفلة فهي زوجة السفير الأميرة هيفاء بنت الملك خالد .

وقد أحضر رئيس المجموعة المنظمة للاحتفال ٧٠٠ فتاة ورجل أميركي ليقوموا بعرض الأزياء الشعبية السعودية كما استؤجر أخصائي لتصفيف شعر النساء .

أما الهدايا التي قدمت في تلك الحفلة إلى ريغان ونانسي ومساعده فقد أشرنا إليها سابقاً .

ولكن الاحتفالات التي تهدر فيها أموال الشعب السعودي لا تقتصر على الرسميين ، فقد أقامت الأميرة نوف بنت خالد ، أخت زوجة السفير المذكورة ، حفلة في باريس في فندق «سان ريجنت» الواقع في ١٢ شارع جان غوجون ، وذلك في شهر أيلول من نفس السنة ١٩٨٦ . وكانت الحفلة غنائية راقصة أحياها

المطرب السعودي محمد عبده وحضرها فيمن حضر عدد من الموارنة اللبنانيين من أصدقاء الأمراء.

وبعد نهاية الحفلة قررت الأميرة شراء الفندق، واشترته فعلاً. الا أن شكله الداخلي لم يرق لها كفاية فأمرت بإجراء بعض التعديلات فبلغت كلفة الزينة (الديكور) سبعة ملايين دولار أميركي.

مصاريف الأمراء في الخارج:

عندما ينتقل الأمراء إلى الخارج تنتقل معهم أجواء ألف ليلة وليلة كاملة، فيعيش أبناء «الإمام» عبد العزيز وأصدقاؤهم وخدمهم وحشمهم وأزلامهم حياة خارج إطار العالم المحسوس، بل في دنيا السحر والعجائب. ومن أهم المآثر في هذا الصدد مما استطعنا جمعه في هذه العجالة عدة حوادث:

فقد نشرت صحيفة «صانداي تايمز» البريطانية الأسبوعية بتاريخ ٢٥ تشرين الثاني ١٩٨٧ عن زيارة الملك فهد إلى الريفييرا الفرنسية أن الملك اصطحب معه ١٥٠ شخصاً من الحاشية إضافة إلى إحدى زوجاته وولده عبد العزيز.

وقد نقلوا على متن خمس طائرات نفاثة، بقصد قضاء فترة استجمام لا تتعدى الأسبوعين فكلفت تلك الفترة مليوني جنيه استرليني، ثم غادروا على متن اليخت الملكي البالغ قيمته ٧٥ مليون جنيه استرليني، بعد أن تبرع الملك الى مدينة نيس بما يعادل مئة ألف جنيه استرليني.

ومما حصل من الغرائب في تلك الرحلة، وهي كلها غرائب على كل حال، أن أحد أفراد الحاشية دخل محلاً لبيع الألبسة الجاهزة واختار ستة أصناف من أثمن القمصان الرجالية، وطلب من كل صنف مايتي قميص، وأعطى البائع شيكاً بمبلغ ثمانين ألف جنيه.

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر، فقد بلغت قيمة فاتورة الخضار التي استهلكها فهد وحاشيته في إحدى سفراته الى اسبانيا، حيث أقام أياماً في قصره «الرياض» مبلغ مايتي ألف جنيه استرليني[٢٠].

وفي ١٣ كانون الأول ١٩٨٧ نشرت جريدة «لوريان لوجور» اللبنانية أن

الملك فهداً اشترى لابنه عبد العزيز حلوى بمبلغ ٢٥٠ ألف فرنك فرنسي في يوم واحد ، أما ما قدم له في عيد ميلاده الخامس عشر من الهدايا فقد بلغ ثمنه ٣٠٠ مليون جنيه استرليني .

أما عن الطائرة واليخت والحمام فحدّث ولا حرج .

فالطائرة كما تذكر المعلومات تحوي غرفتين للمباحثات وحماماً من الرخام حنفياته من الذهب ، والحمام في السعودية كلف بلاطه مايتي ألف جنيه استرليني ، وكانت الأحجار قد استخرجت من كندا وصقلت في ايطاليا ، وأمْا اليخت الذي يبلغ ثمنه ٧٥ مليون جنيه استرليني فهو يستوعب ستين شخصاً في مقصوراته المبطنة بورق مذهب.

ولعل عادة استخدام أسطول الطائرات لنقل الحريم والحشم والخدم تعود الى مؤسس الأسرة «الإمام» عبد العزيز نفسه ، فقد جاء في إحدى الوثائق البريطانية بتاريخ ١٩ شباط ١٩٤٩ ، وقد نشرها فيلبي فيما بعد ، أن عبد العزيز قرر أن يعود من جدة الى الرياض ، فخصص لزوجاته وخدمهن وحشمهن خمس طائرات[٢١] .

القمــــار :

يعتبر الأمراء السعوديون من أكبر لاعبي القمار في العالم حيث تبلغ أرقام ما يسكبونه على طاولات الكازينوهات من عملات صعبة ما يعادل موازنات دول بكاملها . وإذا اكتفينا بذكر بما يتسرب أحياناً الى الصحافة من أخبار الميسر الوهابي ، الذي لا تستنكره « هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» ، لكان مذهلاً.

فقد نشرت مجلة «تايم» الأميركية بتاريخ ٩ تشرين الأول ١٩٧٤ أن أمراء سعوديين بينهم فهد قد خسروا مبلغ ستة ملايين دولار في كازينو مونت كارلو.

كما نشرت صحيفة «نيوزويك» الأميركية بتاريخ ١٦ آذار ١٩٨٧ أن فهداً سبق له أن خسر مليون دولار على طاولة القمار في مونت كارلو أيضاً ، كما خسر في السنة التالية عدة ملايين من الفرنكات الفرنسية في أحد كازينوهات مدينة كان ، ولما خرج في ساعات الفجر الأولى سأله الصحافيون عن صحة خبر

خسارته فأجاب : « ولكنها كانت ليلة ممتعة».

هذا وقد ذكر عبد الرحمن ناصر الشمراني[٢٢] أن ملياردير اً سعودياً يعمل في تجارة الأسلحة خسر في كازينو رول بمدينة نيس الفرنسية مبلغ سبعة ملايين فرنك فرنسي، غير أن الرقم القياسي ضربه الأمير سلمان الذي خسر في ساعة واحدة مبلغ تسعة ملايين فرنك في كازينو «نيوديفان لي بان» .

ولا بد من التنويه أخيراً بأن «صفقات» القمار السعودي لم تقتصر على كازينوهات الغرب ، بل هي تطاول أيضاً كازينوهات المنطقة العربية ، وإن تكن أرقام اللعب متواضعة نسبياً ، ومما يذكر في هذا الصدد أن أحد الأمراء خسر في كازينو فندق شيراتون القاهرة مبلغ مئة ألف جنيه استرليني[٢٣] .

الموازنات :

أما الموازنات السعودية فيحتل فيها نهب الأموال العامة وهدرها أبواباً رئيسية ، وفيما يلي ننشر نموذجين من هذه الموازنات ، واحدة اعتمدت في زمن عبد العزيز عندما كانت القيمة الشرائية للعملة مرتفعة والثانية في عهد ابنه الملك فيصل .

موازنة عبد العزيز :

نشر فيلبي إحدى موازنات ابن سعود ، وقد نقلها «لاسي» في كتابه المملكة[٢٤] . فكانت كما يلي :

- مليون من الجنيهات لتسديد ديون قديمة .
- مليونان من الجنيهات مصاريف الكاراجات الملكية .
- مليون جنيه للترفيه .
- أما ميزانية التعليم وغيره من أمور البلاد فكانت ماية وخمسة وسبعين ألف جنيه استرليني .

موازنة فيصل :

أورد المميز[٢٥] أول موازنة حقيقية للمملكة العربية السعودية منذ تأسيسها وهي التي أقرت في ٢٥ كانون الأول ١٩٧٤ فبلغت الواردات مليار ومئة وثلاثة وأربعين مليون ريال (١١٤٣٠٠٠,٠٠٠) أما المصروفات فبلغت مليار وثلاثماية

وخمسة وخمسين مليون ريال (١٣٥٥ ٠٠٠ ٠٠٠).

ويضيف المميز : وعند تدقيقي تبين لي أن أكثر من ثلث تلك الموازنة قد خصص للأغراض الملكية بصورة مباشرة ، وأن الثلث الثاني خصص لنفس الأغراض بصورة غير مباشرة ، ولو أن باب المخصصات الملكية قد نص على اعتماد مبلغ تسعة وأربعين مليون وخمسماية وثلاثة وثلاثين ألفاً وثلاثماية واثني عشر ريالاً فقط : (٤٩,٥٣٣,٣١٢).

ولكن أبناء سعود كانوا يصابون أحياناً بيقظة «الضمير» فيعمدون إلى محاولة الاقتصاد في المصروفات . فقد اكتشف الملك سعود يوماً أن مصروفات مطبخه تتجاوز الحد المعقول فقرر تخفيفها، فقد ذكر لاسي[٢٦]أن سعوداً جرّب سنة ١٩٦٠ أن يتقشف ، فاستدعى مدير أعمال المطابخ في القصر الملكي وكان السويسري «هوزي آرتولد» الى مكتبه وسأله :

كم لدينا من نادل ؟

فقال المدير : أربعة وأربعون .

فقال الملك : أطرد عشرين .

وسأل عن عدد الطباخين ، وأمره أن يطرد عشرين أيضاً .

ثم سأله : كم تصرف على ولائم القصر ؟

فقال المدير : خمسة وعشرين مليون ريال .

فقال الملك : يجب أن نخفض هذا المبلغ الى النصف .

ولدى مغادرة آرتولد، التقاه عيد بن سالم ـ الذي عمل سائقاً في القصر ثم عين مديراً للخزانة ـ فقال له : هذه قائمة بالمخازن التي يجب أن تشتري منها .

ولكن السويسري ما لبث أن اكتشف أن جميع المخازن التي حوتها القائمة كان يملكها أقرباء عيد المذكور.

ولكن ما أذهل المدير السويسري هو أنه وجد في المخازن علب كافيار ومواد أخرى كانت موجودة على رفوف غرفة المؤونة والطعام في القصر الملكي قبل أسبوع.

النهب المباشر للأموال العامة :

ونشير هنا إلى استيلاء أمراء آل سعود على الأراضي العامة وبيعها إلى الدولة أو إلى الآخرين ومن أهم الحوادث على هذا الصعيد :

● باع فهد قطعة أرض في «الخبر» بجوار مستشفى فهد التعليمي بعد أن كانت قد أقيمت عليها حديقة عامة ، فدفعت إدارة بلدية المدينة (٤٣٠) مليون ريال إلى سالم بن محفوظ الذي تمت المعاملة صورياً ، باسمه[٢٧].

● أقيم مخطط في الدمام حوى (١٢٠٠) قطعة من الأرض لتوزع على ذوي الدخل المحدود ، ولكن الصكوك سحبت وسلمت الأرض إلى فيصل بن فهد رئيس رعاية الشباب على أساس أن الأرض له.

● نال سلطان تعويضات خيالية بلغت اثنين وأربعين ألف مليون ريال موزعة كما يلي :

ـ ١٧ ألف مليون ريال عن أرض في الجبيل ادعى ملكيتها بعد أن أقيم عليها مشروع «الهيئة الملكية لمدينة الجبيل» وقد تنازل سموه عن مبلغ ثمانية آلاف مليون ونال تسعة آلاف مليون ريال.

ـ ٢٣ ألف مليون ريال عن أرض ادعى ملكيتها في حفر الباطن وهي التي أقيمت عليها المدينة العسكرية .

ـ ١٠ آلاف مليون ريال عن الأراضي التي يمر فيها خط أنابيب شرق ـ غرب الجزيرة الذي ينقل النفط والغاز من بقيق الى ينبع[٢٨].

هذا بالإضافة إلى التعويض الذي حصل عليه مقابل التخلي عن الأرض التي ادعى ملكيتها والتي تقرر أن ينشأ عليها المطار الجديد للعاصمة ، حيث خصصت له الحكومة مبلغ ألف مليون ريال إضافة إلى موجودات المطار القديم[٢٩].

● أمر أحد أبناء الملك فيصل مدير بلدية «الخبر» أن يملكه المتنزه العام وهدده بالقتل إن لم يفعل ، ثم عرف بالأمر أحد الأمراء الآخرين فأمر المدير بتسجيل المتنزه على اسمه ونشب الصراع بين الأميرين وانتهى الأمر بالاكتفاء بإبعاد المدير نظراً لعلاقاته الوطيدة بأولي الأمر[٣٠].

• استولى سعود بن فهد وعدد من الأمراء الآخرين على الأرض التي تقرر أن تنقل إليها مدينة «جيزان» واستصدروا صكوكاً بملكيتهم ، فجرى تعويضهم بمبلغ (٥٧٠) مليون ريال[٣١].

ولكن حصة الملك فيصل تبدو متواضعة نسبياً ولعل السبب هو عدم انتشار الأخبار عن نشاطاته المشابهة، فقد أمر مرة بعقد جلسة لمجلس الوزراء لتثمين أحد قصوره القديمة في جدة لأجل بيعه للدولة ، فجرى تثمينه بمبلغ أربعين مليون ريال ، ولكن الثمن لم يعجبه فأمر بعقد جلسة أخرى للغرض نفسه فثمِّن القصر بمبلغ سبعين مليون ريال قبضت من وزارة المالية . وكان من وسائل الإثبات التي استخدمها الملك للتدليل على قيمة القصر «فواتير» وزارة المالية نفسها عن الاعتمادات التي رصدتها في الموازنة لبناء ذلك القصر.

وقد أمر الملك بدفع المبلغ إلى زوجته «عفت خانم» لتبني بناية من ٣٥ طابقاً في جدة بعد أن منحها الملك الأرض اللازمة لذلك . ولما غارت أم بندر زوجة الملك خالد ، شيدت هي الأخرى بناية من ٣٥ طابقاً في مدينة الرياض فدفعت تكاليفها وزارة المالية[٣٢].

أما الأمير نايف وزير الداخلية ، فكان من حصته أراضي استملكت في مثلث «الخبر ـ التقية» بمبلغ ٤٣٠ مليون ريال .

ممتلكات بعض أمراء آل سعود :

لقد نهب آل سعود وسماسرتهم أموال الجزيرة العربية بشكل لم يشهد له التاريخ مثيلاً وراحوا يودعون في المصارف الأجنبية ، ويبنون القصور ويقتنون الأموال المنقولة وغير المنقولة فبلغت قيمتها أرقاماً قياسية وإليك بعض الأمثلة على ذلك.

أملاك فيصل :

كان الملك فيصل الذي وعد بأن يصلي في القدس ، والذي نال من المديح التكسبي للكتاب والشعراء ما لم ينله غيره ، يمتلك القصور التالية :

١ ـ قصر الطائف ، وقد بني ما بين سنتي ١٣٦٠ و١٣٧٢هـ بكلفه ١٣٠ مليون ريال .

٢ ـ قصر الشيبة في منطقة «العدل» بأعالي مكة ، وقد بدأ بناؤه سنة ١٣٧٠هـ واستمر ١٦ سنة وكلف ١٢٠ مليون ريال .

٣ ـ قصر الرويس بجوار السفارة الأميركية ، وقد بدأ بناؤه سنة ١٣٧٠هـ على طراز قصور الأندلس بكلفة ٣٠٠ مليون ريال.

٤ ـ قصر المعذّر في الرياض بكلفة عشرة ملايين ريال وهو قديم نسبياً .

إضافة إلى عدد من القصور الأخرى في الرياض وجدة ومكة والطائف وبيروت وأميركا وسويسرا ، كما يمتلك عقارات مبنية في القاهرة وفي مصر الجديدة وكوبري الجلاء ، وكذلك «جاردن سيتي» . وقد أسس فندق شيراتون ليكون عمارة سكنية فتقاضى تعويضاً عنه بقيمة خمسة ملايين جنيه.

وكان يملك إلى ذلك عدداً من الشركات ، ويودع المليارات في مصارف أميركا وأوروبا ، خاصة سويسرا. كل هذا ناهيك عن حصصه في شركات النفط التي أشرنا إلى بعضها.

وأخيراً فقد دفع قبل موته مبلغ خمسة ملايين وخمسماية ألف جنيه استرليني كجزء من ثمن طائرة خاصة به(٣٣).

ممتلكات فهد :

أهم ممتلكات «خادم الحرمين الشريفين» عدا قصره في الرياض ، هي التالية :

١ ـ فيلا قرب نيس اشتراها ثم دفع مبلغ خمسة عشر مليون جنيه استرليني لتحويلها إلى قصر ، وهي تحتوي حالياً على مركز كمبيوتر ورادار . أما ورق جدرانها فمذهب وفيها صورة للويس الرابع عشر وكمية من التحف تقدر بخمسين مليون جنيه استرليني.

٢ ـ قصر في سويسرا ، أقيم على مساحة أربعة أفدنة بقيمة ٤٥ مليون جنيه استرليني .

٣ ـ قصر في حي «ماي فيرا» الارستقراطي في لندن بقيمة ٣٧ مليون جنيه استرليني .

٤ ـ قصر في ماربيلا ـ إسبانيا ـ يحتوي على مئة غرفة بقيمة ألف مليون جنيه استرليني .

إضافة إلى طائرته التي كلفت ٨٧ مليون جنيه استرليني وكلف تجهيزها ٣٠ مليون جنيه استرليني وإلى اليخت الذي أشرنا إليه وإلى عدد من السيارات ذات الأدوات الذهبية والتي لا تقل قيمة الواحدة منها عن مايتي ألف جنيه استرليني[٣٤].

هذا وقد أهدى فهد إلى شركة الطيران العربية السعودية، حسب ما صرح به عبد الرحمن حافظ مدير الخطوط الجوية السعودية في البحرين إلى جريدة «الشرق الأوسط» بتاريخ ١٠ آب ١٩٨٥ : عشر طائرات عملاقة من طراز بوينغ ٧٤٧.

وقد قدرت مجلة فورتشن الأميركية بتاريخ ١٩ أيلول ١٩٨٧ ثروة فهد بعشرين مليار دولار أميركي .

هذا في ما يخصه شخصياً ، أما ما يخص قبيلته ، أي إخوته من أمه «السديريين» من عقارات فقد بلغ في مدينة جدة وحدها ٣٦٠ دارة (فيلا) في الكيلو ١٠ ، إضافة إلى ما يملكونه من مليارات في مصارف أميركا وفرنسا وسويسرا ومن فيلات وبنايات وقصور وشقق في مصر والمغرب وتونس وبيروت وفرنسا وإيطاليا وألمانيا وسويسرا وإنكلترا وأميركا[٣٥].

أموال عبد العزيز بن فهد :

نشرت جريدة «ناشيونال أنكوير» الأميركية بتاريخ الثاني من حزيران ١٩٨٧ أن أغنى طفل في العالم هو عبد العزيز بن فهد البالغ من العمر أربع عشرة سنة ، فهو يمتلك سبع سيارات كاديلاك وثلاث طائرات ، وتقدر أمواله وأرصدته المصرفية بـ ١٦٠٠ مليون دولار.

وقد رافق عبد العزيز أباه في زياته إلى لندن في آذار سنة ١٩٨٧ حيث صرح أنه يحصل على ستة ملايين دولار أسبوعياً إضافة الى ستماية مليون دولار

وضعها له أبوه في المصرف باسمه . وقد خصص له جناح في قصر «الرياض» الذي يحتوي على ست سينماوات ، كما أنه يمتلك مايتي جهاز للعب الفيديو.

أما هواياته فهي استهلاك العلكة الفقاعية ولعب الفيديو .

أما زوجة فهد فلا أحد يعرف ما تملكه ، غير أن قسماً من مجوهراتها سرق من سوق الصاغة في الإحساء وكان عبارة عن اثني عشر كيلوغراماً من الذهب عيار «٢١»[٣٦].

أصحاب الملايين :

ذكرت مجلة «نيوزويك» الأميركية بتاريخ ١٣ آذار ١٩٨٠ أن السعوديين الذين يملكون الملايين يبلغ عددهم ثمانماية أمير بعد أن كانوا سبعماية سنة ١٩٧٩، وأن هناك مئة طائرة خاصة في مطار جدة.

كما تشير المجلة إلى أن أحد تجار المجوهرات قد ربح (٢٥٠) مليون دولار عام ١٩٧٧ من مبيعاته للأمراء وأن لديه «ماسة» بقيمة ١٢ مليون دولار تحت الطلب برسم زبون ملكي .

اغتصاب الأموال الخاصة :

لم تتكون ثروات الأمراء السعوديين من نهب الأموال العامة فقط ، بل وكذلك من الاستيلاء على أموال الآخرين من أبناء الجزيرة العربية ، وإذا كنا لا نستطيع الإحاطة بكل عمليات الاغتصاب فلا بأس من ذكر نماذج منها فيما يلي :

فقد صادر آل سعود مساحات شاسعة من أراضي الفلاحين ونخيلهم ، لا سيما في منطقة الإحساء في «الحقل» و«العمار» و«الشراع» و«الشهيبي» و«أبو سحيل» و«الشطيط» و«السحمية» و«الغرين» و«بستان الدليقة» في الهنوم وبساتين «المهرام» و«الصقهبية» و«الغاضرية». . . التي استولى عليها ابن جلوي آل سعود قهراً ومنح بعضها إلى علي آل ثاني وعدد من شيوخ قطر[٣٧].

أما ما استولى عليه خالد السديري حاكم نجران (من أخوال فهد) فكان :

١ ـ مدينة الخدود (أي الأخدود المذكورة في القرآن) وكانت تابعة لآل الهندي فأبعد سكانها ، «آل دهمش» منها .

٢ ـ منطقة تهومة التي أبعد عنها أهلها «آل عباس» .

٣ ـ منطقة الصعيد التي أبعد أهلها من قبيلة «أبي ساق» ، والتي بني فيها العديد من البنايات والقصور .

٤ ـ أرض العريسة بحجة إقامة حديقة عامة ، فأقام فيها البساتين والقصور .

أما كاتب السديري واسمه عليان العمر فقد استولى على أرض شاسعة تمتد من مستشفى «ماقان» إلى شرق قرية «ابن الخصيب» وهو يملك عدداً من البنايات في بلاد «آل هندي» في منطقة العامرة التي كان قد اغتصبها سيده السديري نفسه .

كما وهب السديري أحد ضباط الشرطة واسمه (يحيى بن ناصر) بئراً في «نتق آل منجم» وهي تابعة لقبيلة «أبي ساق» ، وأهدى إلى أحمد خلقان قطعة أرض كبيرة في نفس المنطقة.

هذا في الوقت الذي يمنع فيه أهل نجران من تملك بيوت آبائهم وأجدادهم إلا بصكوك شرعية فيما لا يمكن الحصول على مثل تلك الصكوك إلا من قبل الأمراء والعبيد.

وأخيراً فإن السديري يؤمن صيانة بساتينه وحدائقه عن طريق إجبار موظفي وزارة الزراعة على العمل عنده شخصياً ، كما يؤمن أسعاراً مجزية لمنتجاته الزراعية عن طريق منع دخول الفواكه وخاصة العنب إلى نجران لأن كرومه في منطقة العريسة تكفي للاستهلاك المحلي[٣٨] .

الاستثمارات الخاصة في الخارج :

لم يعد السعوديون ، على غرار حكومتهم ، يكتفون بتوظيف أموالهم داخل البلاد أو في البلدان العربية والاسلامية ، بل هم تعدوها إلى أميركا وأوروبا حيث يستفيد منها «فقراء» تلك البلدان من سماسرة ونصابين ومحترفي

التعامل مع أمراء النفط ، كما أنها تغدو في مأمن من حسد الحاسدين «واعتداءات» أبناء البلاد في ساعة الحساب.

وقد بلغت استثمارات السعوديين في الخارج ـ عدا الإيداعات في المصارف ـ ستين مليار دولار أميركي .

ومن أهم النماذج على تلك الاستثمارات مجمع سكني أقامه أحد الأمراء في جزيرة «مايوركا» الإسبانية من أرخبيل الباليار على مساحة عشرين مليون متر مربع .

أما عن طرق التعامل مع هؤلاء الأمراء فقد ذكرت صحيفة «السياسي» في خبر أشرنا إليه عن مجلة «كفاك» البلجيكية أن شركة «أوروسيستم» التي قدمت جيش الممرضات من البغايا : «أعلنت إفلاسها بعد أن غرّرت بعدد كبير من المستثمرين السعوديين مقابل عمولات لسعوديين آخرين ولبلجيك (قدرت) بحوالي أحد عشر مليار فرنك بلجيكي ، ورشاوى بمبلغ ثمانية مليارات».

التهريب :

إذا كان الأمراء السعوديون يتعرضون غالباً للابتزاز والاحتيال في الخارج على عكس ما هو عليه الأمر في الداخل ، فإنهم أحياناً يكونون هم «الشطار» ، ومن الأدلة على ذلك اعتماد بعضهم تهريب المخدرات إلى الغرب .

فقد عرف عن الأمير مشهور بن سعود تهريبه للكوكايين حسب ما ورد في جريدة «ذي ميرور» اللندنية بتاريخ ١٩ تموز ١٩٨٥ .

كما حكمت إحدى المحاكم اللندنية بتاريخ ١١ حزيران ١٩٨٧ على وليد ابن سعد آل سعود بغرامة قدرها ١٨٠ جنيه استرليني بتهمة حيازة كوكايين وقنب «هندي» .

الدعارة :

تنتشر الدعارة في أوساط الأمراء على نطاق لم يعرف في «قصور ألف ليلة وليلة» ، وهم يجوبون العالم كله سعياً وراء الملذات الشهوانية بشكل جعلهم

أحدوثة في معظم عواصم العـالم ، حيث تسكب أموال النفط المسـروقة كمـا تسكب الـويسكي والشمبانيـا في الكؤوس المترنحـة في الحانـات والمواخيـر والبارات ، وهي الأمور التي يركز عليهـا أعداء المسلمين والعـرب ليثبتوا أننـا لا نستحق إلا السخرية قياساً على ممارسات أعدائنا . وقد وصف كتاب «قيـام وسقوط أمبراطورية النفط»[٣٩] بعض نتائج الزنا السعودي الذي لوث العالم فيما بعض الجيوش العربية يحاصرها العدو الصهيوني في حرب تشرين ، بقـوله : «جاء النفط فلطّخ العبور بفعل الإثارة المدبرة ضـد «الجشع العـربي» و«السفه العربي» وقضايا الطلاق المنتشرة في محاكم أوروبا وأميركا وما تردد فيها من أرقام فلكية عن ثروات السماسرة والنصابين المنتزعـة من أموال الأمـراء التي تحكم المحاكم بنصفها لأشباه العاهرات فتحصل الواحدة منهن على حصة من مال النفط الـعربي تفوق حصة الجيش (المصري) الثالث المحاصر في السـويس ، بـل تفوق ما يلزم لتحـرير الجولان أو ما دفع وسيدفع لجميع أرامـل شهداء الثـورة الفلسطينية» .

هذا في الخارج ، أما في الداخل فالوضع أسوأ لما يرافقه عادة من تغرير واغتصاب ، وقد بدأ الأمر منذ أيام عبد العزيز الذي كان يستعبد نساء المسلمين بحجة الشرك ، واستمر في عهد أولاده على نطاق أكثر صفاقة ، فحتى فيصل الذي اعتبر مختلفاً عن سائـر أفراد العـائلة حملت ذاكرة السعـوديين عنه أسـوأ الصور . ففي فترة شبابه وعندما كان أميراً على الحجاز ، ضجت البلاد بمفاسده إلى درجة دفعت الشيخ «الصحابي» حاكم الطائف إلى أن يشكوه إلى أبيه بقوله : « إن ابنك فيصل قد اختطف عدداً من النساء والغلمان وجعل من قصره ومن بيوت أخرى استأجرها في مكة والطائف بيوت دعارة وإباحة ورقص وخمارات»

وبعد أن فاحت الروائح ، سافر فيصل إلى أميركا سنة ١٣٦٣هـ (١٩٤٠) لكي يمر الزمن على الفضائح[٤٠] .

كما حملت الذاكرة الشعبية الكثير عما كان يقيمه الأمير مشاري بن عبد العزيز من علاقات شراب مع نائب القنصل البريطاني في جدة ، والذي كانت زوجته حسناء هام بها الأمير ، فأخذ يتردد على بيتها من دون موعد حتى أخذ يتبّرم به أصحاب البيت . وفي إحدى المرات قدم الأمير إلى بيت نائب القنصـل وكان

ثملاً ، فأخذ يقرع الباب بقوة ، فخرج صاحب البيت يعنفه ، فما كان من الأمير إلا أن أطلق عليه النار فقتله . وبعد أن ثاب إلى رشده عرض على زوجة نائب القنصل مبلغ سبعين ألف دولار كدية[٤١].

أما فهد فقد فاق جميع ملوك العالم المعروفين ، حسب الأخبار ، إذ أن هناك من يتحدث عن ألفي زواج عقده هذا الخادم لـ «الحرمين الشريفين»[٤٢] . ومن أهم حوادث زواجه الحادثتان التاليتان :

الأولى : أعجبته ملكة جمال القطن في حلب سنة ١٩٥٨ واسمها (حسناء وفائي) ، فحمل صورتها وتقدم لخطبتها فرفضت على أساس أنها مخطوبة لمهندس من آل البرازي . ولكن فهداً لم يقنط . فبعد زواجها أغرى زوجها بواسطة سماسرته عارضاً عليه العمل في معمل المياه الغازية في الرياض . فوافق الزوج وسافرت العائلة إلى الرياض ، واستلموا شقة وسيارة وعملاً .

وفي اليوم الثالث لوصولهم اختطفت الزوجة وخادمتها السورية معاً ، ولما عاد الزوج لم يجد في البيت إلا آثاراً من الدم . ولما سأل قيل له : إن زوجته أصيبت بنزيف ونقلت الى المستشفى فماتت.

ولما ذهب إلى المستشفى وسأل عن زوجته قيل له : توفيت ودفناها .

فسأل عن الخادمة ، فقالوا له : لا نعرف عنها شيئاً .

ولكن الرجل طلب أن يتسلم جثمان زوجته لدفنها في حلب ، فقيل له : قد حرمت عليك رؤيتها لأنها لم تعد زوجتك . فقال أروني قبرها ، فقادوه إلى قبر حديث وزعموا أن هذا هو قبرها . فعاد إلى بيته ، ولكنه رجع لوحده ونبش القبر ففوجىء بأن المدفونة كانت الخادمة وأدرك أنهم قتلوها فأخذ يصرخ مطالباً بزوجته .

ولكن الأمر وصل إلى أمير الرياض ، فأمر به فأوثقوه وأفتوا بكفره وقرروا قطع يديه لأنه عبث بحرمة الأموات ، إلا أنهم عفوا عنه وأعادوه إلى حلب[٤٣] .

الثانية : سافر فهد سنة ١٩٦٤ إلى أميركا ، فأقام له الطلبة السعوديون حفلة تكريمية ، وفي أثناء الحفلة أعجبته فتاة اسمها لؤلؤة آل ابراهيم . فسأل الأمير عن الفتاة : أهذه من بناتنا ؟ ، فقيل له : نعم من بناتكم طال عمرك ، إنها زوجة

الطالب عبد الرحمن آل إبراهيم ، من أولادكم أيضاً.

ولما عاد فهد إلى السعودية تلقت الفتاة برقية بتوقيع والدها ، يدعوها فيها إلى العودة بحجة أن حالته خطرة وتقول البرقية : « أتركي ابنتك عند أبيها ».

واستدعى فهد الوالد وأخبره بما فعل «مبشراً» إياه أنه يرغب بالزواج من ابنته . ولما اعترض الوالد ، قال له فهد : إخرس ، أنت خادم لنا وما نقوله سينفذ.

ولما وصلت لؤلؤة إلى السعودية عرفت بحقيقة الأمر وأخبر زوجها ، فرفض تطليقها ، فتجاوز الأمير المسألة وتزوجها دون طلاق.

وقد كلف الزواج مبلغ ١٥٠ مليون دولار ما عدا الهدايا والقصور(٤٤) .

انتشار الرذيلة والخمور :

يسرد ناصر الشمراني (٤٥) بعض القصص عن استيراد الخمور ومعاقرتها في قصور الأمراء فيقول : « أثناء حكم الملك فيصل حدث أن عمال الشحن في ميناء الدمام ، وأثناء تفريغهم سفينة محملة بصناديق كبيرة كتب عليها عبارات «قرآن كريم ، لا يمسّه إلا المطهرون» . . . تصادف أن سقط أحد هذه الصناديق من الرافعة على رصيف الميناء ، وإذا بالعمال يفاجؤون بأن داخل الصناديق زجاجات خمر . . . وكانت مرسلة إلى أحد قصور الأمراء السعوديين».

ويضيف الشمراني : ويتناقل الكثير من الشباب ممن رأوا بأعينهم في النوادي الرياضية التي تشرف عليها «رعاية الشباب» برئاسة فيصل بن فهد ، كيف أن رؤساء أندية «النصر» و«الشباب» و«الأهلي» وغيرها . . وهم من الأمراء ، يروّجون أفلام الخلاعة ويعرضونها في مقرّات الأندية.

هذا عدا عن حفلات الخمور والحشيش التي يقيمها الأمراء في قصورهم ويدعون إليها ضعاف النفوس من الشباب . أما الفنادق فهي الأخرى تلعب أحياناً دور المواخير ، لا سيّما فنادق الدرجة الأولى حيث تباع الخمور بشكل مستتر وتنتشر أفلام الدعارة عن طريق الفيديو الداخلي المغلق(٤٦) ، في حين أن القصور لا ينقصها شيء من أنواع الخمور المتعارف عليها ، وتدور فيها عادة

حفلات السكر والحشيش وتدار أفلام الخلاعة فيما تلبس نساء الأمراء آخر الموديلات[٤٧].

وحتى يقوى الأمراء على القيام بنشاطاتهم هذه فهم يتناولون كميات من العقاقير المنشطة ، ولكن النتيجة مع ذلك تكون انتشار عدد من الأمراض الجنسية ، كما يروي الدكتور الهندي قادر سناتارا الذي عمل كطبيب لآل سعود سنة ١٩٧٥ ، في كتابه تجارب طبيب الصادر سنة ١٩٨٠ والذي يقول : « رغم أني متخصص في أمراض الجهاز الهضمي إلا أن الملك والأمراء كانوا يراجعونني للحصول على الأدوية الجنسية المنشطة . وفي بداية سنة ١٩٦٣ بدأت ألاحظ أن الشخص الواحد يراجعني عدة مرات في الأسبوع طلباً للأدوية الجنسية ، وفي كل مرة كنت أجري للواحد منهم فحصاً سريرياً للتأكد من نجاعة الفحص وصحة العلاجات التي أصفها . . ولما ازداد تردد كل «مريض» . . . قررت أن أتخلص من الفحص السريري المقرف بكتابة الوصفة بلا إجراء فحص كان يتكرر أحياناً كل يوم.

وهكذا تعرفت إلى فهد . . . و. . . [٤٨]» .

ويذكر الطبيب نفسه أن الأمير مقرن بن عبد العزيز طلب منه في إحدى أمسيات عام ١٩٦٤ أن يجري عملية إجهاض لامرأة لم يرَ وجهها .

كما يذكر أنه زار الأمير مقرن في إحدى المرات فوجده مستلقياً « وحواليه خمس بنات مختلفات الألوان » ويضيف «لاحظت بينهم ثلاث شقراوات ربما كن من ممثلات برودواي أو راقصات نيويورك، واثنتان سمراوان سمرة خفيفة، وربما كانتا من إيطاليا ، وهن على أسره أحرى أوطأ من سرير الأمير » .

وقد تداعى (إلى الحفلة) بضعة رجال ونساء يلوح عليهم السكر والخدر وتبينت من بينهم السفير الأميركي ومساعدته الشقراء المعروفة باسم « أ . بيلي » في الأوساط الديبلوماسية . وكان الكل عراة[٤٩] .

ونحن نكتفي بهذا القدر من كلام الطبيب ولا نتناول ما رواه عن فساد الأميرات حفاظاً على الأخلاق والذوق .

عودة الى استعباد المسلمين :

أخذ عبد الله جلوي حاكم الإحساء بسياسة البطش والتنكيل بالمواطنين في منطقته . فهو يستخدم الناس سخرة لبناء قصوره ويفرض الضرائب الباهظة على الفلاحين وسائر أبناء الشعب باسم « الزكاة » و«الجهاد» و«ضريبة الحفاظ على الأشخاص » و«ضريبة الحفاظ على الأعراض» ، حتى أنه أرغم الكثيرين على بيع أبنائهم وبناتهم في أسواق الرقيق ليسددوا قيمة هذه الضرائب.

وممن أرغموا على بيع بناتهم شخص اسمه ابن داود .

ومما هو مشهور عن ابن جلوي أنه يرسل عبيده إلى بعض المواطنين ليجبوا الضرائب منهم ، فإذا ما التقوا الشخص المطلوب في الطريق العام ولم يكن في جيبه شيء واعتذر ، أوقفوه في مكانه وخطوا له دائرة من حوله على الأرض وأقسموا بقتله إذا برح هذه الدائرة . فيقف الشخص في مكانه لا يبرحه تحت حر الشمس المحرقة أحياناً ، حتى يرسل من يأتيه بمطلب عبيد ابن جلوي ، أو أنه يعطي أحد العبيد مفاتيح بيته ليذهب العبد بنفسه ويفتش البيت ويأخذ ما يعجبه ، ومن ثم يعود إلى المواطن المحبوس ضمن الدائرة فيعيد إليه المفاتيح ويضربه بالسيف على رأسه أو على صدره (ضربة خفيفة نسبياً).

أما إذا لم يجد العبد شيئاً في جيب المواطن ولا في بيته فهو يقتاده الى السجن فيزج به فيه ، ولا يخرج حتى يبيع ابنه أو ابنته أو يقدم أحدهما ليعمل مجاناً في القصور لمدة سنة ، إلا إذا كان حظه جيداً فيتبرع عنه مؤاطن آخر.

ومن الذين تعرضوا لتعسف ابن جلوي رجل سقّاء (بائع ماء) من محلة «الرقيات» في الإحساء اسمه محمد الدحيم . فقد أرغمه ابن جلوي على بيع ابنته ليسدد إليه ضريبة «الجهاد المربوع» أي المضاعف أربع مرات.

ومنهم أيضاً المواطن علي بن صالح الذي فرضت عليه الضريبة ، ولم يكن له مال ولا ولد ، فأمر ابن جلوي بربطه من يديه ومن رقبته إلى مؤخرة حصان ركبه أحد العبيد وأخذ يجره في الطرقات حتى مات بعد أربع ساعات.

هذا مع العلم أن ابن جلوي يعتمد في مسألة الضرائب على الذاكرة فقط ، إذ لا سجلات ولا إيصالات تسلّم وتسليم .

هوامش الفصل الرابع

(١) روبرت لاسي ، المملكة ص ٤٤ ، ٤٥ .
(٢) عبد الرحمن ناصر الشمراني مذكور سابقاً ، ج ٢ ص ٥١ .
(٣) «عبد العزيز آل سعود ، سيرة بطل ومولد مملكة» ص ١٠٦ ـ ١٠٧ .
(٤) ص ٥٩٢ .
(٥) لاسي مذكور سابقاً ص ٤٠٩ .
(٦) أمين المميز مذكور سابقاً ص ٦١٠ .
(٧) مذكور سابقاً ص ١٥٠ ـ ١٥١ .
(٨) ناصر السعيد مذكور سابقاً ص ٧٥٤ ـ ٧٥٥ .
(٩) لاسي ، مذكور سابقاً ص ٢٧٨ .
(١٠) الشمراني مذكور سابقاً ص ٣٠٣ .
(١١) المميز مذكور سابقاً ص ٨٢ .
(١٢) نفس المصدر ص ٤٣٥ .
(١٣) الشمراني مذكور سابقاً ص ٢٠٨ .
(١٤) الثورة الاسلامية عدد (٧٣) .
(١٥) الشمراني ص ٢٢٠ .
(١٦) نفس المصدر ص ٢٧٥ .
(١٧) راجع الصحف الأميركية.
(١٨) نفس المصدر ص ١٩٦ .
(١٩) محمد حسنين هيكل ، طريق الغضب ص ١٢٣ وما بعدها .
(٢٠) الشمراني مذكور سابقاً ص ٢٩٩ .
(٢١) الثورة الاسلامية عدد (٤٩) .
(٢٢) الشمراني مذكور سابقاً ص ٢٤٠ و٣٥٥ .
(٢٣) جريدة السياسة الكويتية بتاريخ الأول من تشرين الثاني ١٩٧٥ .
(٢٤) مذكور سابقاً ص ٢٠٤ .
(٢٥) المميز ، مذكور أعلاه ص ٢٨١ .
(٢٦) لاسي مذكور سابقاً ص ٢٥١ ، ٢٥٢ .
(٢٧) الشمراني مذكور سابقاً ص ٣٦٣ .
(٢٨) نفس المصدر ص ٢٤٢ .
(٢٩) نفس المصدر ص ٢٨٩ .
(٣٠) ناصر السعيد ص ٤٠١ .
(٣١) الشمراني ص ٢١٧ .

(٣٢) السعيد ص ٧٤١ ، ٧٤٢ .
(٣٣) نفس المرجع .
(٣٤) عن «الصانداي تايمز» البريطانية بتاريخ ٢٥ تشرين الأول ١٩٨٧ .
(٣٥) الشمراني ص ١٨٤ ـ ١٨٥ .
(٣٦) نفس المصدر ص ٢١٦ .
(٣٧) نفس المصدر ص ١٠٣ .
(٣٨) نفس المصدر ص ١٤٣ .
(٣٩) ص ١٣ .
(٤٠) السعيد ص ٧٤١ ، ٧٤٢ .
(٤١) الشمراني ص ٣٢٥ .
(٤٢) نفس المصدر ص ١٨٦ .
(٤٣) نفس المصدر ص ١٨٦ .
(٤٤) نفس المصدر ص ١٠٩ .
(٤٥) ص ١٥٨ .
(٤٦) راجع صحيفة سيفنكاداك السويسرية ٢ نيسان ١٩٧٨ .
(٤٧) الشمراني ـ مذكور أعلاه .
(٤٨) الشمراني ص ١٦٠ .
(٤٩) نفس المصدر ص ١٦٣

الخلاصة

يتبين لنا مما تقدم أن الوهابية حركة قامت للسيطرة على مقدرات المسلمين ، فعمد قادتها العسكريون السياسيون الى إخضاع أبناء الجزيرة العربية وغزو جيرانهم وإذلالهم عن طريق القتل والسبي والاستعباد ونهب الأموال والإفقار ، وينتهي بهم الأمر مرتمين في أحضان المستعمرين والأمبرياليين من قادة الصليبية الجديدة بعد أن حوّلوا المناطق التي استولوا عليها الى مستعمرة للإنكليز ثم للأميركان يتحكمون بمواردها ويستفيدون من موقعها ومن رصيدها لتحقيق مشاريعهم في المنطقة العربية والإسلامية وحتى في العالم .

ومن أجل الوصول بالمسلمين الى هذا المصير ، وجهت الوهابية إليهم أولاً تهم الشرك والكفر واستحداث البدع ، وهي التهم التي تبيح الدم والمال ، ولكن هذه التهم ما لبثت أن افتضح تهافتها ووهنها . ولكن الوهابية لم تكترث بكل هذا فتابع دعاتها المسيرة عن طريق الحروب والغزوات ، فضرّجوا جنبات الجزيرة العربية بالدماء وزرعوا أرضها بالجماجم ، حتى تمكنوا من احتلالها ، وإذا بالإنكليز الذين كانوا يتراءون من حين إلى حين أثناء القتال ، هم المخططون وأحياناً المنفذون ، مستفيدين من طموحات القادة السياسيين الوهابيين لتحقيق استراتيجياتهم البعيدة .

أجل ، لقد اتضحت الحقائق بعد أن استتب الأمر لآل سعود وتخلّصوا من أعدائهم المسلمين وحتى من شركائهم من قادة القبائل القوية الأمر الذي مكنهم دون مخاطر من أن يكشفوا بكل صراحة عن علاقاتهم بالغرب دون مواربة ، وراحوا ينفذون مشاريعه في المنطقة العربية بكل أمانة ، فيؤدبون من يدفعون إلى تأديبه من المتمردين على الاستعمار ويخدعون من لا يقدرون على ضربه بالقوة

المسلحة حتى أصبحت منطقة الشرق العربي ثمرة ناضجة سقطت بشكل شبه تلقائي في سلال المستعمرين.

ولم يكتف الوهابيون القادة من الأمراء السعوديين بالتمهيد للسيطرة الاستعمارية بل هم وضعوا في تصرف أربابها مخزونات البترول والثروات المادية وسلموهم الأرض ليقيموا عليها قواعدهم العسكرية المعدة لمواجهة القوى الكبرى العدوة من جهة ولقمع أي تمرد عربي أو إسلامي من جهة أخرى.

وبعد كل هذا وعندما اطمأن أمراء الوهابية الى الحماية الاستعمارية التي تضمن لهم استمرار الحكم بين يديهم، راحوا يتصرفون على سجيتهم بدون تحفظ، وإذا بهم أناس من شواذ البشر الذين يندر أن يجد الإنسان لهم مثيلاً من حيث التردي الأخلاقي والنهم الشهواني اللذين لا تحدهما حدود.

فهل أتت هذه الأمور عن طريق التداعي الطبيعي والتطور التلقائي بعد قيام الوهابية بإطلاق دعوتها وتحركها لتطبيقها على الصعيد الديني، أم أن الوهابية نفسها كانت وراء هذه الأمور بشكل فعّال؟.

إننا نعتقد أن الأمور التي حصلت كانت مقصودة على وجه عام، وليس بالضرورة بشكل تفصيلي، وقد وضعت ملامحها الرئيسية مسبقاً. ذلك لأن الوهابية ما زالت تشكل بأفكارها مادة الخطاب التبريري للقادة الوهابيين السعوديين، كما أن القيمين عليها دينياً ما زالوا يصدرون الفتاوى لتسهيل تصرفات القادة السعوديين، وهم الذين أنشأوا، بعد استيلائهم على الحجاز ما أسموه «رابطة العالم الاسلامي» لتعمل تحت إشرافهم، وهي تدعى إلى الاجتماع كلما احتاج الأمراء السعوديون الى تغطية دينية للمخططات الهامة التي ينوون تنفيذها.

ولعل دور الوهابية هذا يتأكد، ليس فقط من خلال النتائج التي تمخضت عنها مسيرة قادتها السياسيين والتي أشرنا إليها آنفاً، بل وأيضاً من خلال ظروف نشأة تلك الدعوة، تلك النشأة التي تمت في فترة الهجوم الصليبي غير المباشر على الشرق الإسلامي، الذي شهده القرنان السابع عشر والثامن عشر، حيث نشطت الإرساليات ووضعت المخططات التآمرية ضد الإسلام وحتى ضد

المسيحية الشرقية موضع التنفيذ ، فأخذت الضغوط تتوالى لتنصير زعماء بعض المناطق في بلاد الشام ، ولتسريب اليهود الى داخل الإسلام في تركيا ، ولدفع المسلمين إلى تبني الأفكار الغربية وما إلى ذلك ، وكل ذلك يتوازى مع الحركات العسكرية في البحار المحيطة في المنطقة الإسلامية . فهل يمكن أن يصدق عاقل أن حركة تنشأ في هذه الظروف فتبيح دماء المسلمين لأتفه الحجج ، وتعلن أن جهاد رواد الاستعمار الصليبي غير واجب ، متعامية عن تهديدهم لبلاد المسلمين وسيطرتهم على سواحلها ، وما يفرضه ذلك دينياً من واجب حمل السلاح وقتال الأعداء ، قبل تصفية الحسابات الداخلية مع سائر المسلمين.

إن كل المعطيات تؤكد أن الحركة الوهابية حركة مفتعلة الى أبعد الحدود ، أتت كجزء من المخططات الاستعمارية المتنوعة الأشكال والتي تستهدف جميعاً وجود الإسلام كعقيدة سياسية أولاً وحتى عبادية ثانياً لتزول تلك العقبة الكأداء التي واجهت الحروب الصليبية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين.

وقد أتت هذه الحركة بالزي الذي يلائم المناطق المنغلقة من الجزيرة العربية ، إذ لبست مسوح الدين وركّزت على بعض الممارسات التي يمكن أن تشتبه على الإنسان البدوي البسيط كالتوسل والتشفع وزيارة القبور، وذلك في الوقت الذي كانت الصليبية الجديدة تستخدم في المناطق الإسلامية الأخرى أساليب مختلفة تتلائم مع ظروف كل منها.

وهكذا فقد صاغ الاستعمار للجزيرة العربية فكراً ، هو ليس الفكر الغربي الليبرالي أو الاشتراكي ، بل هو فكر إسلامي مستقٍ فرعياً من ابن تيمية ، مشوَّه ، وظِّف في سبيل تحصين الجزيرة العربية صد الفكر الإسلامي الثوري الصحيح المعادي للاستعمار والأمبريالية وكل أشكال الصليبية الجديدة . فكر فاقد للمحتوى السياسي الحقيقي للإسلام ، فكر راح يتلهى بالأمور الثانوية ، دون أن يؤرقه مصير الأمة التي كانت تهوى لتصبح على كف عفريت غربي حاقد على الإسلام ساع الى تدميره طامع بخيراته هادف إلى الاستيلاء على أرضه ليستخدمها مقراً ومنطلقاً لتحقيق مخططاته العسكرية والاقتصادية.

ولو أن المستر «همفر» عاش حتى اليوم لكان صلى للصليب ركعة ولآل

سعود ألف ركعة لما أسدوه من خدمات للمخططات التي كان من جملة المكلفين بتنفيذها ، لاسيما بعد أن أصبح الإسلام إسلامين فعلاً ، أحدهما إسلام سعودي أميركي والآخر إسلام ثوري تحرري معادٍ للاستعمار ، بعد أن كان الاسلام كله ، باستثناء قلة بسيطة من الخونة ، معادياً للكافرين والمشركين ، يتحرك بكل مذاهبه وفئاته عندما تتعرض حياضه للعدوان وحرماته للانتهاك ، حالما يدرك حقيقة أن هناك عدواناً وانتهاكاً وتتوفر القيادة التي تستنفره وتسير على رأسه .

إن تحول فريق من المسلمين إلى وهابيين أو مؤيدين للوهابية المعادية لعامة المسلمين والموالية للمستعمرين الصليبيين أشاع الالتباس والضبابية على مستوى قواعد واسعة من الجماهير الإسلامية إلى الحد الذي أصبح يشلها عن التحرك ضد أعدائها خوفاً من أن تكون على ضلال ، لا بل هو سمح بدفع قطاعات منها إلى السير في ركاب المستعمرين والقتال دفاعاً عن مصالحهم ، فلا يبقى في المواقع الإسلامية الصحيحة إلاّ القلّة المؤمنة حقاً والتي لم تنطلِ عليها شبهات الوهابية ومن وراءها ، فأصرت على مقاومة أعداء الإسلام بكل ما أوتيت من قوة .

وباختصار فإن الوهابية فاقت في خدماتها لأعداء الإسلام أكثر التوقعات تفاؤلاً ووفرت على الصليبيين الجدد من الجهد والدم والمال ما لم يكونوا يحلمون بتوفيره ، فهل يمكن بشكل من الأشكال أن يبقى أي مجال لاعتبارها ، كما يرى المنتفعون من فتات موائد النفط ، حركة إسلامية أو إصلاحية أو تجديدية أو. . . ؟ .

إنها حركة كافرة بكل الفكر السياسي الإسلامي وبالقيم الأصيلة ، وكافرة بإسلام المسلمين ، وهي رصيد الكفر والكافرين من أعداء الله والإنسان .

مراجع البحث

ـ إبراهيم عبد العزيز عبد الغني **صراع الأمراء** دار الساقي لندن ط ١، ١٩٩٠ .

ـ إبراهيم **أمراء وغزاة** دار الساقي لندن ١٩٨٨ .

ـ ابن الأثير **أسد الغابة** دار الفكر بيروت ١٩٨٩ .

ـ ابن حجر **تهذيب التهذيب** دار الفكر بيروت ١٩٨٨ .

ـ ابن حنبل أحمد **المسند** دار الفكر بيروت ١٩٩١ .

ـ ابن سعد **الطبقات الكبرى** مؤسسة النصر طهران ١٣٢٥ .

ـ ابن ماجة **السنن** دار إحياء الكتب العربية القاهرة ١٩٥٢ .

ـ ابن هشام **السيرة النبوية** دار الجيل بيروت ١٩٧٥ .

ـ أبو حاقة أحمد **لمع الشهاب** (تحقيق) دار الثقافة بيروت بدون تاريخ .

ـ أبو داود **السنن** دار الفكر بيروت بدون تاريخ .

ـ أبو ذر **ثورة في رحاب مكة** منشورات صوت الطليعة ١٩٨٠ .

ـ ابن أبي طالب علي **نهج البلاغة** فهرست صبحي الصالح .

ـ الإسكندراني **النفحة الزكية** مغفل الناشر والتاريخ .

ـ الأمين السيد محسن **كشف الارتياب** ط ٥ مغفل الناشر والتاريخ .

ـ الأميني د. محمد هادي **مكة** مكتب نشر العلم والأدب طهران ١٩٨٨ .

ـ البخاري **الصحيح** دار الفكر ١٩٨٨ .

ـ براين جاكلين **اكتشاف الجزيرة العربية** تعريب قدري قلعجي دار الكتاب العربي بيروت ١٩٦٠ .

ـ بل مسز **فصول من تاريخ العراق القريب** المطابع الحكومية ١٩١٧ .

ـ البلاذري **فتوح البلدان** نشر المنجد القاهرة ١٩٥٧ .

ـ البندك مازن قصة النفط دار القدس بيروت ١٩٧٤ .
ـ البيهقي أبو بكر السنن المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية القاهرة ١٩٧٠ .
ـ الترمذي السنن مطبعة البابي الحلبي القاهرة ١٩٣٧ .
ـ التل عبد الله خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية دار القلم القاهرة ١٩٦٥ .
ـ الجوزية ابن القيم زاد المعاد دار الفكر بدون تاريخ .
ـ الحاكم المستدرك مطابع النصر الرياض بدون تاريخ .
ـ حتي، و. فيليب تاريخ لبنان دار الثقافة ط ٣، ١٩٧٨ .
ـ حجار، جوزيف أوروبا ومصير الشرق العربي ترجمة حلاق ونعمة المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٧٦ .
ـ الحريري، تاريخ الحروب الصليبية مغفل الناشر والتاريخ .
ـ حسين الملك عبد الله بن المذكرات مغفل الناشر والتاريخ .
ـ حماد، خيري التطورات الأخيرة في قضية فلسطين الدار القومية القاهرة ١٩٦٤ .
ـ حمزة، فؤاد البلاد العربية السعودية مكتبة النصر الحديثة الرياض ١٩٦٨ .
ـ دحلان، أحمد زيني الدرر السنية في الرد على الوهابية البابي الحلبي القاهرة ١٣١٩ .
ـ الدويهي الشرح المختصر في أصل الموارنة نشر الآباتي فهد جونيه ١٩٧٤ .
ـ الرضوي، مرتضى صفحة عن آل سعود الوهابيين مغفل الناشر والتاريخ .
ـ الريحاني أمين ملوك العرب دار الريحاني بيروت ط ٥، ١٩٦٧ .
ـ الزركلي، خير الدين شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٠ .
ـ الزركلي، خير الدين الأعلام دار العلم للملايين ط ٥، ١٩٨٠ .
ـ زيدان جرجي تاريخ التمدن الاسلامي مكتبة الحياة بيروت بدون تاريخ .
ـ السبحاني، الشيخ جعفر الوهابية في الميزان دار المنتظر بيروت ط ٢ ١٩٨٨ .
ـ ستورك، جو الشرق الأوسط وأزمة الطاقة مطابع المجلة الشهرية ١٩٧٥ .

ـ ستوكويل وديك تركيا والمصائف التاريخ الموجز نيويورك ماكميلان ١٩٤٠ .
ـ سعيد ، محمد علي بريطانيا وابن سعود منظمة الإعلام الاسلامي طهران ١٩٨٧ .
ـ السعيد ، ناصر تاريخ آل سعود منشورات اتحاد شعب الجزيرة العربية مغفل التاريخ .
ـ السمهودي وفاء الوفا في أخبار دار المصطفى مطبعة الآداب القاهرة ١٣٧٤ .
ـ السيوطي الخصائص الكبرى دار الكتب الحديثة القاهرة ١٩٦٧ .
ـ الشمراني ، ناصر مملكة الفضائح دار الإنسان ١٩٨٨ .
ـ الشهابي ، حيدر لبنان في عهد الأمراء الشهابيين مديرية المعارف العامة بيروت ١٩٣٣ .
ـ ضو، الأباتي بطرس تاريخ الموارنة دار النهار ١٩٧٠ .
ـ الطبرسي ، أبو نصر مكارم الأخلاق عبد السلام شقرون القاهرة ١٣٤٧ .
ـ الطبري تاريخ الأمم والملوك مؤسسة الأعلمي بيروت ١٩٨٩ .
ـ عبد الوهاب ، سليمان بن الصواعق الإلهية، تحقيق إبراهيم البطاوي دار الإنسان ١٩٨٧ .
ـ عبد الوهاب، محمد بن رسالة كشف الشبهات مطبعة المنار القاهرة ١٩٢٨ .
ـ العطار، جواد تاريخ البترول في الشرق الأوسط الأهلية للنشر بيروت ١٩٧٧ .
ـ العقاد ، د. صلاح جزيرة العرب في العصر الحديث معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة ١٩٦٠ .
ـ علي ، صالح بن تاريخ بيروت تحقيق هورس وصليبي بيروت ١٩٦٨ .
ـ غالب الخوري بطرس صديقه ومحاميه بيروت ١٩٢٤ .
ـ فانس، سايروس المذكرات المركز العربي للمعلومات ط ٢ ، ١٩٨٤ .
ـ الفرج، ناصر قيام العرش السعودي الصفا للنشر والتوزيع لندن ط ١ ، ١٩٨٨ .
ـ الفقي أثر الدعوة الوهابية مغفل الناشر ١٣٥٤ .
ـ قرألي بطرس الأمير بشير بيت شباب ١٩٣٢ .
ـ القضاعي فرقان القرآن دار إحياء التراث العربي بيروت دون تاريخ .

ـ كيللي .ج . ـ ب . بريطانيا في الخليج الفارسي مطبوعات أوكسفورد وكلاندن ١٩٦٨ .

ـ مسلم الصحيح دار الفكر ١٩٨٣ .

ـ المعلوف ، عيسى إسكندر تاريخ الأمير فخر الدين المطبعة الكاثوليكية ١٩٦٦ .

ـ مغنية ، الشيخ محمد جواد هذي هي الوهابية دار الجواد بيروت ط ٢ ، ١٩٨٢ .

ـ المقريزي ، أبو العباس الإمتاع لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٤١ .

ـ المميز ، أمين السعودية كما عرفتها دار الكتاب بيروت ١٩٦٣ .

المنصوري ، إبراهيم السمنودي سعادة الدارين مطبعة جريدة الأهرام ـ القاهرة ١٣١٨ .

ـ النجار ، محمد حمود الدرة الثمينة في تاريخ المدينة القاهرة ١٩٥٦ .

ـ النجدي ، سليمان بن سحمان الهدية السنية مطبعة المنار مصر ١٣٤٢ .

ـ همفر ، مستر مذكرات نقله الى العربية د.ج.ح. ١٩٧٣ .

ـ الهيثمي عز الدين مجمع الزوائد دار الفكر ١٩٨٨ .

ـ هيكل محمد حسنين خريف الغضب شركة المطبوعات بيروت ١٩٨٧ .

ـ وهبة حافظ خمسون عاماً في جزيرة العرب مكتبة النهضة المصرية القاهرة ط ٤ ١٩٦١ .

- Grousset, histoire des croidades, Paris, 1935.
- Hurwitz J.C. Diplomacy in the Near and Middle East, London, March 1968 Vol.1.
- Lammens, La syrie.
- Pelly Lewis Report, on a journey to Riyadh in central Arabia 1865 act, centre University, of Cambridge 1980.
- Rabbath, Documents inédits pour servir à l'histoire du Chrstianisme en Orient T2.
- La société nationale des antiquaires de France, 5 série, T.8, Paris.

الدوريات :

ـ بيروت المساء ـ الثورة الإسلامية ـ روزاليوسف المصرية

ـ السياسة الكويتية ـ سفينكاداك السويسرية ـ الصنداي تايمز اللندنية

ـ مصر (جريدة) سنة ١٩١٠ ـ المقتطف مجلّد ٣٦ ـ الوطن ١٩١٠.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الفصل الثاني : حروب الوهابية
ضد مسلمي الجزيرة العربية

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
- الدعـارة	٢٩٩
- انتشار الرزيلة والخمور	٣٠٢
- عودة إلى إستبعاد المسلمين	٣٠٤
- هوامش الفصل الرابع	٣٠٥
الخلاصة	٣٠٧
مراجع البحث	٣١١
الفهرس	٣١٧